طارق بكاري

مرايا الجنرال

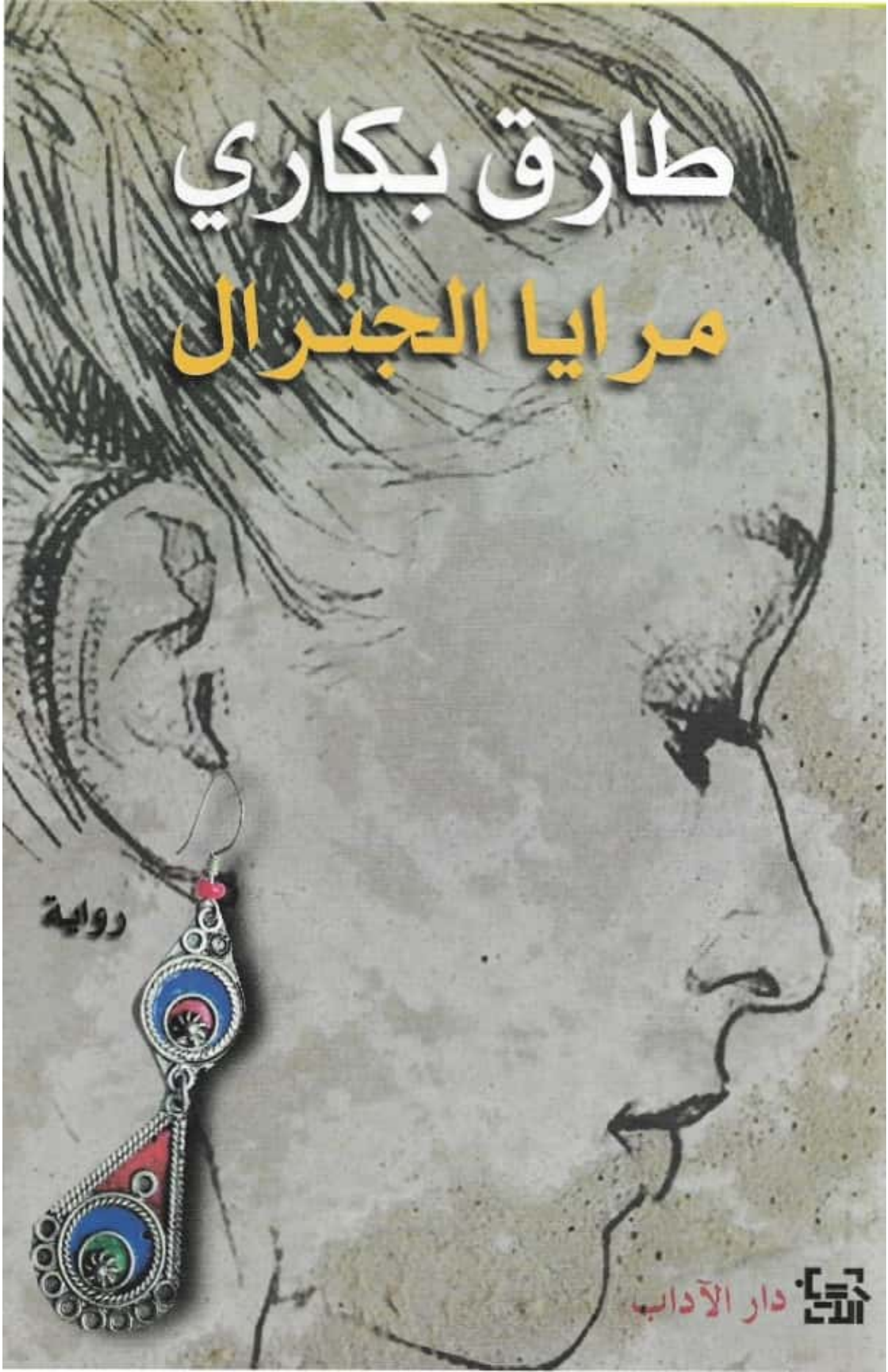

رواية

دار الآداب

طارق بكاري

مرايا الجنرال

رواية

دار الآداب - بيروت

جميع الحقوق محفوظة©

«كل تطابق بين شخصيَّات هذه الرواية و أحداثها مع شخصيَّات وأحداث واقعيَّة هو مجرَّد صدفةٍ وخالٍ تمامًا من الغرض والقصد».

حالة عشق

«لديَّ إحساس عميق بأنَّني لست حقيقيَّة تمامًا، بل إنَّني زيف مفتعل ومصنوع بمهارة، وكلّ إنسان يشعر في هذا العالم بهذا الإحساس بين الوقت والآخر، ولكنِّي أعيش هذا الإحساس طيلة الوقت».

مارلين مونرو

(قبل انتحارها)

«وداعاً يا صديقي، دونَ يَدٍ، أو كلمة. ولا تحزن، ولا تقطِّب حاجبيك، فليسَ جديدًا في هذهِ الحياةِ أن نموت، وليسَ جديدًا بالتأكيد أن نعيش».

سيرغي

يسينين

(من قصيدة

كتبها قبل

انتحاره موجَّهًا

كلامه

لفلاديمير

مایاكوفسكي)

قاسم

٠٩ ١١ ١٩٩٤

عيادة د. ليلى حدّاد

١٩:١٩

آه يا ليلى الوديعة...

فلتغفري...

أدري بأنّني أدميتُ قلبَكِ، وأعلمُ بأنّي لست جديرًا بعد اليوم بصداقتك ولا عطفك. ألجأني إليك الخبلُ الذي عشّش في الأعماق طويلًا، ألجأتني إلى طبّك تلك الفراغات الفجّة التي تستوطنُ الذاكرة، ونسيتُ أن أحيطكِ علمًا بأنّ لي حالات **لا أكون فيها أنا**... لا يكون فيها أناي خلف مقود الجسد. نسيتُ أن أخبِرك أنّني كثيرًا ما أفقدُ زمام أيّامي، وأنّ حياتي تأسّنت بلحظاتٍ أخرج فيها عن طوري، إذ أستسلم مكرهًا لطنين ذلك الصّوت الذي لا ينفكُ يستوديني صوب ما لا أشتهي. أتجرّعُ تلك الأطياف المقيتة، وأرى خيالات ما لا أريد. أراني أقترف ما لا أودُّ، لأنّ ذلك الصوت المجلجل يقذفُ بي مرساة صوب أعماق ذاتي السحيقة، وتنوب عنّي في اقتراف الفظائع (**أنا**) ثانية.

ليلى الطيّبة.. ما كان يجدر أن أفعلَ بكِ ما فعلت، فكيف السبيل إلى إقناعكِ بأنّني لم أكن في جسدي كامل الحضور؟! أنتِ تطبّبينَ النفوس وتقيمين أودَ الأرواح، ولا بدَّ أنّكِ تدركين أيَّ خبلٍ استبدَّ بي وأنا أهاجمكِ، لكنَّ فهمكَ لن يغيّر من مرارة التجربة شيئًا، وهذا على وجه التّحديد ما يحزُّ في النّفس.

لا سلطان لي على ما حدث...

جملةٌ من فرط التكرار صارت أشبه بأسطوانة مشروخة، لا بدَّ وأن تدور بعد كلّ إثم أقترفه، لا سلطانَ لي على جسدي حين يعلنُ عليَّ تمرُّده ويمتثلُ لصوت الخطيئة، لا سلطان لي على ما أجهلهُ فيّ... و«ليلى حدّاد» أخطأتُ إليها السبيل، وبدلَ أن أضع بين يديها هذا الهبل الذي تتفجّرُ به أيّامي، شرعتُ أخرط في حضرتها كلَّ أسراري إلّا ما اتّصل منها بهذه الآفة التي لا أجدُ لها اسمًا محدّدًا، مستر هارفي يسمّيها السكيزوفرينيا ، آنسُ إلى ملاحظاته عادة دون أن أنبش في التفاصيل.

ليلى.. كان يجب أن أنبّهك إلى أنَّ لي تارات تتخثّرُ فيها روحي

وتصاب حياتي بعطب بالغ. حزينٌ بحقّ، لأنَّكِ لا تستحقّين هذه الندبة التي وقعت على قلبكِ، لا تستحقين أن أدميَ حياتكِ بهذه الذكرى القاسية، لكنَّه مرضي المبهم، مرضي الذي تحفَّلتْ شططه وتدحرجت به في الطرقات المنحنية.

لكنَّني كذلك ممتنٌ للعيّ الذي أربك مذي، ممتنٌّ لفحولتي التي عرفت أنسبَ أوقات خيانتي، كان يمكن للذكرى التي طرَّزتْ بجنوني تفاصيلها المريرة في قلبكِ أن تكون أعنف، لولا أنَّ الرجولة تخلَّت عنّي في الوقت المناسب: لحظة اغتصابك.

عجز فادح..

ممدَّدًا على هذه الأريكة كنتُ.. كلَّما حاولت أن أدير أعضائي كما أشتهي خانتني. عيناي.. بالكاد تنفتحان، يداي وجسدي، كلُّ الجسد، يتنكَّر لي، رغم أنَّني لا أنفكُّ أوجِّهُ له المرَّة تلو الأخرى أمرًا بأن ينتصبَ واقفًا ويبرحَ هذا المكان. عجز فادح يتمشَّى في دمي. لا بدَّ أنَّ الدكتورة ليلى حدَّاد قد حقنت جسدي بما يستبقيني فوق أريكتها دون حراك، الأرجح أنَّها تخاف من أن تستبدَّ بي نوبة أخرى وأدميها أكثر.

ها قد عادت أخيرًا، أشعلت نورَ الكهرباء، ولم تفتح كعادتها الستائر.اتَّجهت صوبي، وعلى وجهي حطَّت أناملها الرَّقيقة، **تعجبُني أصابعها** البيضاء الرَّقيقة، لطالما أعجبتني أصابعها، لا أدري على وجه التَّحديد لماذا أصابعها بالضبط هي أكثر ما كان يروقُني في الدكتورة ليلى حدَّاد! سمعتُها توشوش في مخابرة هاتفيَّة، لكنَّ المعنى لم يصل إليَّ. تُرى هل لها دخل بحالة الشلل التي أكابدها؟ هل لها علاقة بمحاولة الاغتصاب التي اقترفتُ؟ هي تدري أنَّني إلهةُ هذه المدينة، وأنَّ كلَّ شكوى لا بدَّ وأن تُرفع إليَّ...!!

جئتُها صباحًا، أذكرُ أنَّني حين وضعتُ يدي على قبضة الباب البرونزيَّة، كانت الساعة في معصمي تقارب العاشرة صباحًا. لكنَّ الآن، وقد أشعلت الدكتورة نور الكهرباء، يظهرُ أنَّ اللَّيل قد حلَّ. تُرى أأنفقتُ كلَّ هذه السَّاعات الطوال في حالة غياب؟؟

أحبُّ أن أسمع الجواب من الدكتورة ليلى حدَّاد، لكنَّ لساني لا يُسعفُ على طرح السُّؤال وجسدي يخونُ، الإنسان دون طينه لا شيء.. أشبه بسمكة ثرثارة في قفص من زجاج. الفرق أنَّ السَّمكة تملكُ ذاكرة قصيرة لا تكاد تحيط علمًا بما يضمُّه الأكواريوم حتى تنساهُ، فتعيش في

حالة اكتشاف دائم، بحيث لا يوجد فرقٌ بين ذلك الوعاء وبين المحيط.. لكنْ مهلًا، آخرُ من يجدر به الحديث عن الذاكرة هو أنا، أليست هي التي اقتادتني إلى عيادة الطبيبة النفسيَّة؟

ليلى.. تروقني كثيرًا، تروقُني أصابعها النحيلة، وتعجبُني نحافتها التي لا تبلغ حدَّ الضمور، وعينيها الشهلاوين... اشتهيتُها، منذ وقعت عيناي عليها.حدث ذلك حين جاءت إلى ولاية الأمن تشكو سرقة أحدهم لمحفظتِها، وجدتُها هناك صدفةً تسردُ التفاصيل للضبَّاط بذعر شديد، أدهشتني ملامحها الوثنيَّة، كان لها **صدى ما مبهم في الذاكرة**، لم أستطع أن أجلوَه، صرفتُ عنها الضبَّاط المتحلّقينَ حولها ونظراتهم التي تقرأ جسدها، وطلبتُ منها أن ترافقني إلى المكتب. كنتُ لأنجبَ لو أنَّني تزوَّجتُ في شبابي شابَّة في سنِّها، لكنْ لم يحدث أن فكَّرت في الزواج، ويبدو أنَّني لن أفكِّر في ذلك إطلاقًا.

في مكتبي، لم نناقش قضيَّة المحفظة، حدَّثتني عن عيادتها وعن وظيفتها التي كان المجتمع حديث عهد بها، وتركت عنوانها. أدهشتني أصابعها وهي تُناولني قصاصة عليها العنوان وأرقام الهواتف، وفي تلك الثواني القليلة التي عانقت فيها يدُها يدي، أحسستُ بانتشاء آثِم خفقَ له قلبي وانتصبتُ كاملًا...

عاودتُ التفكيرَ فيها مرارًا، عرَّيتُها في خيالي مرارًا، ولم أنتشِ، ضاجَعتُها في الخيال ولم أستطب الأمر، فقط حين استعدتُ أصابعها، ثمَّ حين جنحتُ بتلك الأصابع في خيالي إلى موطن أسراري، لحظتها فقط انتشيتُ، ولا زلتُ على ذلك الحال إلى أن اندلقت المياه. كان الأمر على تفاهته يفوق لذَّةً قضاء ليلةٍ صاخبةٍ مع أجمل الجميلات !! لكنَّ هذا الاعتلالَ النفسي، هذا الشذوذ في الشهوة لم يكن هو السَّبب الذي اقتادني إلى عيادتها، ولم تكن أصابعُها البديعة هي التي ألجأتني إليها.. الحقيقة، أنَّ مشكلتي أفدحُ بكثيرٍ..

حين زرتُها في المرَّة الأولى، سُرَّت كثيرًا بحقيبَتها التي استعدتُ كاملةً غيرَ منقوصة، وحين أفضيتُ لها بما كابدتهُ ولا أزال، اتَّسعت حدقتا عينيها غير مصدِّقة ما تسمع، وألحَّت على ضرورة العلاج، وأطنبت في الحديث عن علَّتي.. وقبل أن أمضي، زوَّدتني بوريقةٍ تافهة تضمُّ قائمة من الأدوية، تركتُها تنزلق من بين أصابعي أوَّل ما برحتُ العيادة، وعاوَدتُ زيارتها المرَّة تلو الأخرى، لا أدري لماذا لكنَّني كلَّما أهملتُ سيرتها، وجدتُ قدميَّ تقتادانني صوبها.. الدكتورة ليلى تقول بأنَّ حالتي النفسيَّة خطيرة،

في العادة لا تفصحُ بأكثر من هذا، وتردف قولها بكلمات تشجيع غامضة، قبل أن تقرّر أيّة أدوية يجدر أن آخذها. أسايرُها بحركات من رأسي، وأهملُ شراء الأدوية.

قبل أن تندلع تلك اللّحظات العصبيّة التي لا تستطيع اللُّغة اعتقالها، سال من لساني بعض النزف، حاولتُ بطلب منها أن أنظُمهُ بعد أن تفزقَ بين أكثر من جلسة واندلق على أكثر من موضوع.. وذلك بمناسبة مرور أربعة وعشرين عامًا على حادثة العاطفة التي سفحت دمي، أربعة وعشرين عامًا على ميلادي الثاني.. قلتُ لها في غمرة اليأس وأنا أمعنُ في استرداد ما أستطيعُ استردادهُ من ماضيّ:

١٠:١٠

«لا أدري من أين جئتُ، حين أمعنُ في استرداد الماضي، أصابُ بالخيبة والأسى، ذلك أنّني أرتطمُ حقًّا بكثير من الأحداث والوجوه والأسماء، لكن كذلك أحسُ أنَّ هناك فراغات جمّة، وأنّه بين الأحداث المهمّة والتي لا تزال راسخةً في الذهن خلاءً يعسُر عليّ أن أستجلبَهُ، ذاكرتي.. كتلةُ الأمشاج اللّزجة التي تستقرُّ بين جدران جمجُمتي مخاتلةً تبتلعُ صفحات من أيّامي... تخيّلي أنّني لا أجدُ في جارورها أيّة صورة عن طفولتي.. كأنّني ولدتُ وفي عمري ثلاثون سنةً! أيعقلُ أن يولدَ الإنسان كبيرًا..؟!

في قعر ذاكرتي.. أجدُ أقدمَ الصُور، تلك التي تعودُ إلى سنة ١٩٧٠ وكان عمري وقتها ثلاثون سنة، كنتُ كما لو أنّني نتأتُ فجأة من العدم! كان الحديث يومها في تلك السَّفينة العملاقة عن وفاة شارل ديغول، ، أفهمُ الفرنسيّة وأجيدُها، وأفهمُ كذلك الكلام الذي كانت تدرجُ به الألسنة... كلام النّاس يتمشّى همسًا ويراوحُ بين التشفّي والحزن الصادق، وكنتُ لسبب غامض أعرف من هو الفقيد، أعرف أنَّ أنفهُ معقوف، وأنّه طويل كشجرة الصفصاف، أعرف عن حروبه الكثير، لكنّني لم أكن أعرف من أكون، مهملًا كنتُ في تلك السَّفينة التي استفقتُ في أحد حجراتها طفلًا كبيرًا تائهًا بلا ماض، كانت تجوسُ في الذهن أفكار قليلة، أنَّ اسمي «قاسم جلال»، وأنّني من أرض العرب الجرداء الممتدّة من المحيط إلى الخليج، من غرب هذه الأرض على وجه التّحديد، وأنّني في المدرسة العسكريّة الفرنسيّة تلقّيتُ تكوينًا عسيرًا، وأنّني عائدٌ إلى وطني بعد تغريبة سنوات لأستلمَ منصبًا مهمًّا.. كنتُ أعرف بعض التفاصيل الأخرى، أين أذهب، ما المنصب وغيرها..

لكنَّ ذاكرتي كانت مسروقةً، لا أدري قبل أن أصحوَ أين كنتُ، ولا أذكرُ مدينة مارسيليا التي جئتُ منها. خلاءٌ موحش كان يفترشُ ذاكرتي، وكنت خائفًا، لا أدري لماذا أو ممَ؟ لكنَّ قلبي كان خائفًا.. هل كان قلبي خائفاً حقًّا؟ كان كذلك.. لكنَّه كان أيضًا كسيوف الصقيع، تتدلّى من أسقف القرميد في المدن المثلّجة، سيفًا من الجليد كان القلبُ، لكنَّه شرع ينزُّ حين اقتربنا من ميناء البيضاء، طبعًا لم تحرّك تلك الأرض فيَّ أيَّ حنين، كانت ذاكرتي صفحة بيضاء عذراء، ولم أكن لأحفلَ بتلك الأرض أو بغيرها.. لكنَّ قطعة الجليد التي تنام يسار الصدر شرعت تذوب رويدًا رويدًا، حين رأيتُها.. هل رأيتُها حقًّا أم أنَّني كنتُ مدفوعًا بمشيئة ما لرؤيتِها؟ لست أدري. الدنيا حين تشتهي أن تضربَ لنا مواعيدها، تفعل ذلك على نحو بالغ التشفير، لا منّةً منها، وإنّما طُعمًا نسيرُ صوبَهُ بعينين مفتوحتين، نسيرُ إليه لأنَّنا لا نملكُ في الحقيقة إلّا أن نسيرَ صوبه.

في السَّفينة، تلك السَّفينة العملاقة، وقبل أن تمنَّ عليَّ الأقدار برؤيَتها وأنا أتأمَّل البحر بعينيَ طفل يراهُ لأوَّل مرَّة، فاجأت خلوتي بهِ يدٌ شدَّت على ذراعي، التفتُّ لأجد شيخًا يابسًا كشجرة مرَّت بها سنواتٌ من الجذب، يابسة وقاسية ملامحه كَلِحَائِها، نشر الزمان عليها تجاعيد تؤرّخُ لعمر لا بدَّ أنَّه لم يكن سعيدًا في مجمله، عيناه صغيرتان غائرتان في محجريه تلتمعان كلّما تطلّع إليَّ ببريق مبهم، كأنَّه دمعة خجولة أو حزن مضمر أو فيض من الكلام الذي لا يودّ المرء على العموم سماعه، ناولني أوراقًا عدَّة كان يتأبَّطها، والتمسَ منّي أن أفكَّ طلاسمها. فكَّرتُ أوَّل الأمر أن أردَّهُ خائبًا، لكنَّني تراجعت، لا أدري لماذا. لكنَّني فعلت. كانت الوثائق تقول إنَّه من قدماء المحاربين الذين زجّت بهم فرنسا في مواجهة الآلة العسكريَّة الألمانيَّة، وأنَّ الغربة وسوء الحظ قد فرَّا به محاربًا إلى الهند الصينيَّة حين كان يضربُ المستعمر مستعمراته بعضها ببعض، أمّا الأوراق، فقد كانت تتعلَّقُ بمستحقَّاتِ معاشه بعد حرب انتبهتُ متأخّرًا إلى أنَّها قطفت يده.

جرى بيني وبينه حديثٌ باردٌ، بعد أن أفدتُهُ بكلِّ ما يرجوه.. حديث بارد، لأنَّني لم أكن مؤهَّلًا للحديث مع الناس، كنتُ باردًا كقطعة ثلج أراقبُه وهو يذرفُ سيرَتهُ، أهزُّ رأسي من حين لآخر دلالة أنَّني مواكبٌ لما يقول، وفي أعماقي، كنتُ أشتهي لو يبتعدُ فقط قبل أن أحملهُ على الابتعاد. حين تحدَّث عن جذوره، لفت انتباهي إلى أنَّني قصبة من غير جذور، تحدَّث بفخر عن عائلته التي لها باعٌ في الغيبيّات في الجنوب ، قال إنَّه سليلُ

شرفاء نزحوا منذ زمن غابر من شبه الجزيرة، وعانقت دماؤهم دماء شرفاء الأمازيغ.أبديث فتورًا في التفاعل معه علَّهُ يمضي إلى شأنه، لكنّ العجائز عادة ما يستلذونَ الكلام مع الغرباء ممَّن لم يملّوا بعد سيرتهم، ولأنَّ في جوارير ماضيهم الكثير. حين انتبه متأخّرًا إلى فتوري، فكّر أن يجتذبني إليه، قال بأنَّه يريد أن يكافئني على خدمتي له بأنْ يقرأ لي طالعَ كفّي.. قال إنَّه من عائلة شريفة ترخي لها الأقدار من سماواتها جدائلها.

آه يا ليلى.. لا أسوأ من أن يستهلَّ المرء حياتَهُ بوجه يابس، كذلك الوجه الذي تستبطنُ أخاديده أكثر من إشعار بالقيامة. تردَّدتُ طويلًا قبل أن أناولهُ يدي، وحين فعلت ندمتُ، رأيتُ وجهه يتلوَّنُ وينضحُ بأكثر من لغزٍ، وتنزُّ الشعابُ المحفورة في وجهه بالمبهمات. عندما شرعَ في تحريك رأسه مثلما يفعلُ المرء حين يجدُ نفسَه أمام أمرٍ عصيّ على التصديق، سحبتُ يدي بخفَّةِ مَن لسعتهُ ألسنة اللَّهب، وتراجع هو خطوات إلى الوراء دون أن يتوقّف عن تكرار تلك الكلمات الغامضة، التي أصابت رأسي بطنين مدوٍّ. كان وجههُ الكالح يطفرُ بالتقزُّز، قال فيضًا من غوامض، كلّما حاولتُ أن أستجلبهُ وجدتُني أعود منه بالنزر القليل، ويضيعُ منّي وسط عرامة الدّهشة الكثير.. قال إنَّ جسدي وعاء لشيطان قميء يعدُ بالويلات، وقال إنَّني أحملُ بدلَ القلب قطعة حديد باردة، وإنَّني لستُ بشريًا، لستُ بشريًا بما يكفي. قال كلامًا كثيرًا ضاع منّي في غمرة الدهشة أكثرهُ، لكنَّني أذكرُ جيّدًا أنَّه قال، وهو ينسحبُ مبتعدًا بعد أن رأى عينيّ تقدحان شررًا، إنَّني سأعيش خمسين عامًا وبضع سنين، وإنَّني سأموتُ في التاسع عشر من آذار!!

زفَّ لي بعض الحقائق التي كنتُ مبرمجًا على السير صوبها، ومضى. حمّلني نبوءتهُ وملامحهُ اليابسة، وغادر غير آبهٍ بأنَّه أرقد داخلي وسواسًا صدئًا، سينخرني من الداخل كلّما وقفتُ على إثمٍ عظيمٍ أو اقترفت الخطايا، كان أكثر ما أزعجني أنَّه ركّبَ على ظهر القلب موتًا موقوتًا. أهملتُ تلك النبوءةَ شابًا، لكن حين تجاوزت الخمسين، استيقظ نصلُها حادًا، أنذبحُ به كلّما حلَّ آذار! لا أخاف الموت، لكنَّني لا أريد الربَّ أن يبارك نبوءة الدجّال!!

في السَّفينة ذاتها، التقيتُ مستر هارفي كلارك. تدخَّل حين رأى عينيّ ترميان العجوز الدجّال شررًا، ناولني سيجارة، وهدهد غضبي بكلمات فرنسيَّة عذبة.. قدَّم نفسه إليّ بأدب جمّ، كان كهلًا ربّما غزا البياض شعره ولحيتهُ الكثّة قبل الأوان، يتسربلُ في بذلة أنيقة، ويتحدَّثُ بلباقة، ينتقي

كلماته بعناية يصعبُ معها أن تتجاهلهُ أو تبدي إزاءهُ فتورًا. قال إنَّ وجهتهُ هي مدينة «ليكسوس» وإنَّه عالمُ آثارٍ انتدبتهُ فرنسا ليجري عمليَّات تنقيب في تلك المدينة التي كان يسمِّيها الفينيقيُّون في الأزمنة الغابرة «جنَّة هيسبيريديس»، المدينة التي كنتُ مسيَّرًا بمشيئة ما غامضة إلى حكمها!

استعذبتُ حديثَهُ الرائق، لا سيَّما وقد وجَدتُني أميل إلى الفرنسيَّة من ذلك الكلام الذي تدرجُ به ألسنة النَّاس على ظهر تلك السَّفينة، دخَّنَّا أنا وهو علبة سجائر مناصفةً، وشربنا معًا من قارورة الخمر الصغيرة التي كانت تنامُ في جيبه، تحدَّثنا كثيرًا، واستعذبنا معزوفة **«كارمينا بورانا»** التي كانت تصدحُ بها أبواق السَّفينة، وعرفتُ من خلاله الكثير عن ليكسوس، المدينة التي كنتُ أسير إليها غازيًا! في تلك السَّفينة نبتت صداقتنا، شعرتُ في حضرته بألفة من نوع ما! وجرى بيننا الاتِّفاق وهو يعود إلى **سيِّدةِ شقراء** كانت برفقَتهِ أن يكون لنا أكثر من لقاءٍ في مدينة ليكسوس.

أمَا ما حدث بعد ذلك، فقد كان حادثة قدر لا مندوحة عنها، كان ذلك حين اقتربت بنا السَّفينة من ساحل مدينة الدار البيضاء، لا نسيرُ إلى حيث نشتهي، لكن إلى حيث تستدرجنا أقدارُنا، حديثَ عهدٍ كنتُ بالدنيا، لذلك لم أفهم تلك الأحاسيس التي زغردت في القلب، داهمتني رجفةُ حبٍّ نتأ في القلب فجأة، فلم أملك إلَّا أن أعلِّقَ على جمالها نظراتي! حسناء كانت, لها عينان واسعتان وأنف دقيق حادّ وشعر كستنائيّ تغازلهُ الرياح, قوامٌ ممشوق يميل إلى النحافة، لكنَّه لا يبلغُ حدَّ الضمور.

كانت ترتدي حديقة ألوان جميلة، وتبدَّد في الفضاء كلمات علَّها تصلُ معنيًا بها هناك في اليابسة، حين تطلَّعت صوبي انفلقت شفتاها بضحكة ريَّانة، كانت أوَّل ذكرى كاملة العذوبة تحفزُ بإزميلها عذريَّة ذاكرتي، ثمَّ شرعت تلوِّحُ بمنديلها الأبيض وتصيحُ بكلمات غامضة. كانت جميلة، وكنتُ طفلًا كبيرًا يتأمَّل ببلاهة سيِّدةً باذخةَ الحسن، ترى أأحببتُها لأنَّها كانت جميلة جدًا، أم لأنَّها كانت.. الأولى؟ لستُ أدري...

كانت تلوِّحُ للجحافل التي تملأ حواف الميناء بمنديلها، وحين اقتربنا أكثر، تأكَّدتُ أنَّها كانت تلوِّح لشخص بعينه، كانت تنادي باسمه «سيمون»، كنتُ أكابدُ تخمةَ الحبّ. حين أُذنَ لنا بالنزول، استجديتُها في السرِّ أن تمنَّ عليَّ بنظرة، فكان لي ذلك. تطلَّعت إلى ملامحي باستحياء وواجهتني بابتسامة سخيَّة، وهمست وهي تمرُّ بجانبي مستسمحةً، لأنَّها ربَما اعتقدت أنَّها أزعجتني بنداءاتها المتكرِّرة:

«pardon» -

ومضت تراوغُ بخفّة مهرةٍ, ورشاقة غزالة، الجحافلَ النازلة. كان واضحًا أنّ قلبَها يسحبُها إلى عناقه، بقدر ما امتلأتُ بها حبًا شعرتُ أنّني رديفٌ للغربة, أغمدتُ يمنايَ في جيب البنطال وأنا أكابدُ دوار العشق, ورعشتهُ حين يزاحمُ الدم في الأوردة، أمّا حين التحمت به في عناق طويل، فقد عادت أصابعي من الجيب بكيس بلاستيكيّ شفّاف وصغيرة جدًا, فيه أقراطُ ذهب غريبة الشكل ومضرّجةٌ بدمٍ متبَسٍ, كانت كما لو أنّها استلّت من مسرح جريمةٍ ما...

التصقت بي غيمةُ كمدٍ، ولسعتني وحشة وأنا أتلصّصُ حافيَ القلب على عناق عاشقين، وحدهُ الربُّ يعلمُ أيّة غربةٍ مريرةٍ جرت بينهما، وأشدُّ بقبضةِ يدي المضمومة على لغزٍ مبهم، وحدهُ الربُّ يدري أيّة يدٍ دسته في الجيب!!

جواهر

١٩٧٠ ١١ ٠٩

ميناء الدار البيضاء

عامان وأنا أسيرةٌ لهبلنا المشترك، مضت بي السَّفينة قبل عامين وأنا حبلى بحبّك، في قلبي كان حبُّك جنينًا لم أملك إلَّا أن أغذِّيه بمزيد من الشوق. أتدري أنَّه لا ينفكُ ينصرم يومٌ دون أن أذعن لقليل ذكرياتنا؟ أستعيدُك المرَّة تلو الأخرى، وحين تضيقُ بي الأرض أجدني أكتبُ لك رسالة. أرسلتُ لك قليل القليل وخبَّأتُ في حقيبتي حزمة الرسائل لتقرأ تغريبتي بعدك وضياعي.. أحبُّك يا سيمون، ولا أملك إلَّا أن أحبَّك، لا أدري أيَّ سبيل سلكت لتستحكم بشغاف القلب كلَّ هذا الاستحكام، ولستُ أحفلُ بذلك على أيَّة حال!

عامان في المنفى، عامان وثلاثة أشهر وخمسة أيَّام وبضع ساعات، هذا عمر الشطط الذي عشتُهُ دونَك، فرَّقتنا بصلف الجبابرة الدنيا، سحبت كلَّ واحدٍ منَّا إلى قحط مصيره، وأصابتنا بالوحدة. سيمون يا كلَّ العمر.. سنتان وذكرياتك لا تنفكُ تهلُّ اليوم تلو الآخر دون أن يصيبها الشحوب.. قلبي يخبطُ بإلحاح جدران صدري الداخليَّة كلَّما اقتربت هذه السَّفينة صوبَك، حتى إذا أتعبَهُ النبض التصق بجوفي، وكادت تنال منِّي حالة اختناق!

سيِّئةٌ هي الدنيا.. في عزِّ هبَلنا بهذا الحبّ، حين خلنا أنَّ الربَّ لا بدَّ أن يهادن ويبارك ما فقَس في قلبينا من مشاعر في عزِّ الطفولة، وجدناهُ يجدل لنا مصير تشرُّدٍ...! ألم أقل لك من قبل إنَّ النضال والحبَّ لا يجتمعان، وأنَّنا مهما استمهلنا الربُّ فلا بدَّ أنَّنا سندفع الثمن؟ ألم يكن المنفى وفراقنا على بتر في العواطف ضريبة النضال؟ دفعتني السُّلطات خارج أرض الوطن، وحكمت عليك بالإقامة الجبريَّة، شرَّدتنا المدينة يا حبيبي قبل أن يعنَّ لها لسبب لا أعلمهُ أن تسمح لي بالعودة مرَّة أخرى.. تراهم اقتنعوا بجدوى نضالاتنا، وآثروا أن يسلكوا في إدارتهم لهذا الوطن مسلكًا أكثر ديمقراطيَّة، أم أنَّهم يحبكون في الخفاء فخاخًا أخرى؟ وحدها الأيَّام كفيلةٌ بأن تمدَّنا بالإجابات، لكن الآن.. ليتَ رأسي يهملُ طنين السياسة قليلًا ويُصغي لقلبي وضجيجه.. إثرَ كلِّ خفقةٍ محمومةٍ أصابُ بحبّك، ويتفاقم الشوق في قلبي والحنين.

سيمون حبيبي.. لو فقط تعلمُ أيَّ وجع كان يجري مشرطه في

الرُوح، لم أكن أدري أنَّ المنفى سيكون أقسى من تلك الشهور القاسية التي قضيتُها في سراديب النظام، لم أكن أعلمُ أنَّ صنوف التعذيب التي تعرّضتُ لها ستكون أهون من الأيّام العجاف التي كابدتُها في الغربة، كلّ يوم يلوكُني هاجسُ بغيض: أنَّ المنفى سيسرقُني منكَ إلى الأبد. كلَّ يوم كانت تنشرُ قلبي الفجيعة وترشُقني بتلك الأفكار السَّوداء التي تنهبُ كلَّ أرصدة الأمل فيّ. كم ترتيلة للأمل كان يصدحُ بها قلبي قبل أن تعتقلها واقعيّة اليأس، كلُّ يوم في المنفى كان يشرعُ له في القلب ثقبًا، كلُّ يوم إضافيّ كان يتغلغلُ بي أكثر في أتون الضياع.

لكنْ لم يحدث أن تخلّيتُ عنكَ يا حبيبي. كنتَ في غربتي كامل الحضور، أنفقُ في استجلابك وكتابتك السَّاعات الطوال، أتّقي بذلك يد اليأس المتيبّسة المعروقة، تعتصرُ في كثير من الأحيان نياط القلب. بعد أزيد من عامين ها هو الميرُ، جنرال المدينة، يرضخُ للمطالب ويأذنُ لي بالعودة. لو فقط تدري أيُّها الأحمق أيّ شوق يعمّرُ هذا الخلاء الذي دشَّنتهُ الغربة في القلب، أحمل لك شوق الدُنيا، وأتأبّطُ مشاريع فرحٍ كبيرٍ، فقط لو تتنازل قليلًا عن طوباوياتك ويلين عقلك..

الحياة ضيّقةٌ حبيبي، والعمرُ يفرُّ بنا صوب النهايات، عيبٌ أن نرى أيّامنا تنزلقُ من بين أصابعنا دون أن نبادرَ إلى اعتقالها في ذكريات جميلة، الدنيا غير قابلة للتقسيط، ولا تؤخذُ بالحلول الترقيعيّة والتسويف، إمّا أنَّنا سنقرّر أن نعيشَ مسرّاتها أو أن نواصل سقوطنا في مهاويها، ويكون الموتُ هو السَّفحُ الذي سيستقبل أشلاءنا المشدوخة وأمنياتنا الصغيرة، التي فاتنا في غمرة الأيّام الدامسة أن نغنمها.

سيمون.. يا كلَّ العمر. آمل أن تكون أيّام القحط التي تجرّعناها معًا قد أفادتكَ بشيء، أتمنّى ألّا أجدكَ مثلما خلّفتكَ: ذلك الماركسيّ المتطرّف، والمريض بتلك الأفكار التي يضيقُ بها الواقع والنظام ذرعًا. أتمنّى أن يتّسع عقلُكَ لقليل السعادة التي اشتهيتُها دائمًا، وآمل أن تكون الشهور العجاف قد جوّعتك مثلي إلى الفرح.

رأينا أنا وسيمون في ليكسوس، تلك المدينة التي تدفعُ إلى أشداقها عشّاقها قبل أن تطرحهم جيفًا، وتنشر في حبل غسيلها سِيَرهم المضمّخة بالدمِ والفجيعة، قلتُ رأينا الكثير، وقضمت دواخلنا خسارات جمّة، عشّاقُ تلك المدينة ممّن لم تفرّقهم الديانة يتجرّعون العلقمَ الذي تدفعهُ في أفواههم غصبًا. نادرًا، نادرًا جدًا ما تباركُ أوجاعهم بزواج، أمّا أن يكون العاشقان من ديانتين مختلفتين فإنَّ تلك المدينة المخبولة ليست وحدها

من تناصبهم العداء، بل عليهما تُعلِنُ السَّماوات والأرض الحروب. أمَّا النَّاس، أولئك الذين يُبدون البساطة، وينفقون ساعاتهم طلبًا للقمة العيش في الحقول، تلهبُ ظهورهم أشعّة الشمس وشتائم الفلّاك... أو في معامل السمك، تُمرِّغُ في الخزي وجوههم لعناتُ أرباب المعامل، أو حتّى أولئك الذين يتوغّلون في البحر ويعودون بالنزر القليل، مما أهملت سفنُ الشمال، كلّهم يولمون للعاشق فضائح الدنيا، وتنزُّ أنيابهم بقصص بعضها حقيقيّ وبعضها لفقهُ الرواةُ، لعلّهم يغتالون به الإملال ورتابة الشغل.

أن يعشقَ يهوديٌّ مسلمةً في هذه المدينة أو العكس، فالأمر أكثر من مجرّد فضيحة، إنّه إعلان حرب، حرب باردة، رصاصها الغيبة وقنابلها النمائم. لا يكادُ يفقسُ ما بين العاشقين من مشاعر حتى يمتشق كلّ واحد الشائعات، وتزرع الأكاذيبُ ألغامها في طريق العاشقين، وتحصي خطواتهما العيون، وتزفُّ الألسنة أخبارهما بكثير من الزيادات التي يكون الهدف من ورائها إمتاع السّامع والإمعان في تجريح الضحايا.. وكنّا أنا وأنتَ أيُّها البهيّ رأسي الفتنة، كنّا المغضوب عليهما، لكنّنا كنّا عاشقين حقيقيّين، حين لم نذعن لأكوام اللّحم التي تقفُ بيننا، ولم نهادن الأيادي التي حاولت أن تثنيَنا عن «غِيّ» العشق، ولأنَّ كلّ حرب لا بدّ لها من خسارات، فالنمائم والشائعات كانت تنسحب من الأفواه رصاصًا طائشًا، كثيرًا ما أخطأنا، لكنّه استقرَّ في أرواح من نحبّ، واستوداهم صوب هاوية سحيقة. كلّ حبٍّ كبير ينتقي قرابينه بعناية ويطالبُ ليتأكّد من أنّه استمسك بأزمّة القلوب العشّاق بما لا يطيقون.

ها أنتَ واقف على حافّة البحر، عابسًا كعادتك، ساهم، تصطخب في دواخلك الأفكار، تفتعل كعادتك اللامبالاة، وكعادتك تختبر مدى قدرتي على أن أهتديَ إليك، دون أن تدلّني عليك. ها أنتَ ترشقُني بنظرة وتشيح عنّي بوجهك، كأنّك لا تراني.. جُنَّ بين أضلُعي القلب، زغرد كأمّ تستقبل ابنها الشهيد، وسحبتُ من الحقيبة الصغيرة المعلّقة فوق زندي منديلي الأبيض، لوّحتُ لكَ به مرارًا، تظاهرت أوّل الأمر بأنّك لم ترني، ثمَّ أطفأتَ لهفتي عليك بتلويح بيدك، قبل أن ترسمَ شارة النصر بأصبعيك... تطلّعَ إليَّ لحظتها شابٌ غريب بملامح ملغّزة، استلَّ من شحوب ملامحه ابتسامة ذابلة وهو لا ينفكُ يراقبُني، توقّعت أنّه سيشيحُ بوجهه عنّي بعد أن بادلتُه بلباقة الابتسامة، لكنّه تمادى في التّحديق في وجهي، لربّما أزعجه زعيق نداءاتي لحظتها وكانت السّفينة قد توقّفت لم أجد بُدًّا من الفرار إلى عناقك يا سيمون..

من بعيد، كنتُ أراه لا كما هو، بل كما تصوّرهُ لي الذاكرة والذكريات: وسيمًا مشرق القسمات، لكن حين اقتربتُ منه، ثمَّ حين ضممتُهُ، شعرتُ أنّني طوَّقتُ حفنة عظام بارزة، وحدهما عيناه لم تنحتهما الغربة وعذابات السجن، خضرتهما الجميلة تتّصل بهذه الأرض، وبتاريخ الطشابيم (يهود المغرب الأصليُون). مررتُ بأصابعي مخلخلةً شعره الأشيب وأنا أستنطقُ عينيه الخضراوين، باحثًا بكلّ الأسرار سريعًا، وهل كنتُ أتوقّع غير هذه الهشاشة؟! أنا التي تركتُه لشطط الغربة وحديد النُظام، ثمَّ إنَّه، حتى وإن لم تستدرجهُ إلى كلّ هذا الهزال الأيّام الطويلة التي يقضيها نزيل السراديب السرّيّة للمير، فلا بدَّ أن تنهكهُ السّاعات الطوال التي يكابدها في المعمل واقفًا يقشّر السردين! يغنيه عن العمل ما ترك أهلهُ قبل أن تعتقلهم الغربة، لكنه اختارَ أن ينتمي للبروليتاريا!

وشرَدني دونهُ المنفى.. كانت رسائلهُ تبوح بكلّ شيء، لكنّني كنتُ عن أوجاعها أغضُّ الطرف، وكان انقطاعها عنّي شهورًا يقول الحقيقة.. تكوَّر الحنق أسفل لهاتي، لكنّني كضمت الغيظ، وهمستُ له في أذنِه بكلمات حبٍّ، فابتسمَ لها بتعب...

لم يكن سيمون، هو نفسه ذلك الشابّ الطاعن في العشق، ولا حتى ذلك الماركسيّ الذي يحملُ في قلبه حلمًا أكبر منه، كان متعبًا جدًّا. في عينيه حفنة كلام ونشاز ما مبهم، وقليل ما يخرج من فمه مخدوشًا يفضح بعض ما يعترك في أعماقه. حزينة كنتُ مثلما لم أكن في المنفى، لكنّني حاولتُ أن أبدّدَ الغيمة التي تلتصق بوجهي، أعرفُ أنَّه يعرف كيف يتلو ملامحي، وأنا لا أريد أن يقرأ في جزعي محنّتهُ وضموره، أشتهي أن أكون جواهر التي يحبّ لا مرآةً يرى فيها كيف «أزرى به الدهر» ! لا بدَّ أنَّه قبعَ في تلك الأقبية الدبقة أكثر ممَّا صرَّح به، ولا بدَّ أنَّ أزلامَ النُظام قد أذاقوه الويلات..

ومضى بي حبيبي سيمون، لا أدري إلى أين.. التصقتُ به، كنتُ في قمّة فرحي وأنا أشدُّ على ذراعه. صحيح أنَّها ليست بحجم ذراع سيمون قبل عامين، لكنَّها كانت ذراعَه في الأخير، كنتُ لحظتها منشغلة بقليل ما يقول.أمّا حين يصمتُ أو يطولُ به الصمتُ، فإنّني في خيالي أبتني تلك الأحلام الورديّة... أو على الأقلّ أحاول. لم أكن أريد من الربّ الذي فرّقنا ثمَّ لمَّ شملَنا سوى أن يهبَنا الأمان ويهملَ سيرتَنا، فلا يأتي على ذكرنا لا بخير ولا بشرٍ.

كان يصحو في قلبي الفرح رويدًا رويدًا، لولا أنّني رأيتُ ذلك الوجه

البارد باسمًا، ذاك الشاب الذي كان معي على ظهر السَّفينة والذي كان يتلصَّصُ على هبلي وأنا ألوِّحُ لسيمون بالمنديل، حين استدرتُ صدفةً وجدتُه خلفي؛ وفي كلّ مرَّة، كنتُ أستدير كنتُ أراه يتقفَّى خطانا، للحظات، خلتُ أنَّه مخبرٌ... لكن في وداعة ابتسامته وشحوبها ما يناقضُ ذلك، ثمَّ إنَّه من الغباء أن يتقفَّى خطانا مخبرٌ على هذا النحو المفضوح..!

حين هجستُ لسيمون بالأمر، استدارَ أكثر من مرَّة، قبل أن يستدرجَهُ صوب الملَّاح ودروبه الضيِّقة. كان سيمون باديَ الغضب، لم نكد نبتعدُ عن الأنظار حتَّى استدارَ صوبَهُ، واستلَّ من جيبه مديتهُ. كنتُ أفترض لحظتَها أنَّ ذلك الشابَ سيولّي هاربًا لكنَّه لم يتراجع قيدَ أنملةٍ، وحين أسنده سيمون إلى الحائط ثمَّ فردَ مديَتهُ في السَّماء، لم تظهر على ذلك الوجه الشاحب إماراتُ الجزع والخوف. كان وجهًا يابسًا كلحاء شجرة عمَّرت أكثر ممَّا ينبغي، وجهًا هو مزيجٌ من الوداعة، وداعة الأطفال، والبلاهة، بلاهة الحمقى، والقوَّة، قوَّة الجبابرة! كأنَّه وجه غيرُ بشريّ، أو لكأنَّه وجهٌ بشريٌّ أكثر ممَّا ينبغي، حَرنَ في وجهه سيمون قائلًا:

لماذا تتبعُنا؟

لم يجب. كرَّر العبارة مرَّات ومرَّات قبل أن يومئ الغريبُ بسبَّابَتهِ تجاهي.. قائلًا بالفرنسيَّة على نحوٍ صادم وغير متوقَّع:

Je l'aime (أحبُها)

انطلقت من فيهِ الكلمة كأنَّها نصلٌ مدبَّبٌ. ما قاله الغريب هو نفسه كلُّ ما كنتُ أعتقد أنَّه من المستحيل أن يقال في حضرة عاشقين ذبحتهما الأشواق والمنافي، قال الكلمة ببراءة طفل يقرأها دون أن يعرف معناها، انطلقت من فمه العبارةُ كدمعة من عين مراهقة، سريعة وقاسية في آن، الغريبُ أنَّ ملامحهُ كانت محايدةً، لا تقول شيئًا، أو كأنَّه مكلَّفٌ بأن يقولها وحسب، كان أبله غريب الأطوار، أقرب للجنون، كما لو أنَّ قدرًا ما غامضًا زجَّ به في دورٍ، هو نفسه لا يشتهيه، لكنَّه مضطرٌّ إلى الانصياع له.

اشتعل حنقُ سيمون، أرغى وأزبدَ قبل أن ينهال على الوجه المحنَّط ضربًا. لم يبدِ ذلك الشابُ أيَّة مقاومة، استسلم ليديّ سيمون المضمومتين، وحين هوى إلى الأرض مدحورًا كوسادة أفرغت من لبدها، ظلَّ يكرِّرُ الكلمة نفسها المرَّة تلو الأخرى (Je l'aime... Je l'aime)، ثمَّ عاد سيمون يضربُه بعنفٍ مضاعف، كان كما لو أنَّ ذلك الاستفزاز أيقظ القبيلة النائمة في أعماقه، خرج عن طوره. حاولتُ أن أستوقفَهُ أكثر من مرَّة دون جدوى،

لم يبرحهُ إلَّا وهو مسربلٌ في دمائهِ. كان في لسانه بقيَّة نبض يقول:

Je l’aime ... Je l’aime

الرسالة (١)

من سيمون إلى جواهر

شتاء ١٩٧٠

«بيننا، نشر الربُّ جبالًا عالية وبحورًا شاسعةً واستحالات جمَّة.. عذرًا أيَّتُها الجميلة، اقتدتُ خطاك في المسارب السبخة، كان لا بدَّ من نضال، لكن ما كان يجدرُ أن أدفعَكِ إلى سراديب المير الدبقة، ما كان يجدرُ أن أستدرجكِ إلى آفتي: الماركسيَّة.

كان يجدر، بدل أن أزجَّ بكِ في قفص الأيَّام العصيَّةِ، أن أولمَ لكِ فرحًا تستحقَّينهُ نظير ما كابدناهُ معًا في هذه المدينة من شظف، تحمَّلتِ كثيرًا، ربما أكثر ممَّا تحمَّلتُ؛ وقامرتِ من أجل هذا الحبّ بالكثير، ربَما بكلّ شيء.كلُّ علاقة حبٍّ بين يهوديّ ومسلمة هي إعلانُ حرب ضدّ السَّماء والأرض.وأنتِ أيَّتها البهيَّةُ، ضحَّيتِ، وسرتِ إليَّ في درب من الخسارات.

هذه المدينة بنتُ كلبٍ، وناسُها لا تجد مدخلًا لفكّ طلاسمهم، أو فهم كتل اللزوجة التي تنام بين جماجمهم الصلدة، ملائكةٌ حينًا وأوباشٌ حينًا آخر، تركيبتهم النفسيَّة بالغةُ التعقيد رغم أنَّها تبدو بالغة البساطة، حاربَت حبَّنا المدينة قاطبةً، فعلت ذلك على نحو بالغِ المواربةِ، بالغ الإيلام...

حين اندلع في قلبَينا الحبُّ، لم تواجهنا المدينة صراحة، لكنَّها مثل كلّ المدن العربيَّة، سنَّنت رؤوس النمائم، دبَّبت رماح الشائعات وعلَّقت سيرتنا، ثمَّ ناولت كلَّ واحد في هذه المدينة سلاحًا يرشقُنا به، حتَّى الأطفال، الأطفال الصغار دفعت في أفواههم علكة قصَّتنا يمضغونها ويتندَّرون بالتفاصيل... كلُّ من في المدينة كان يحصَبُ سيرتنا بحجارة النمائم.

«مدينَتُنا لم يكن غرضها محاكمةُ عشقٍ شذَّ عن القاعدة، ولا سحق هذه الزهرة التي هزَّت تراب هذه المدينة القبر، طاردتنا الشائعات وجلدتنا الألسنةُ وعكَّرت صفوَ حياتينا معًا، لأنَّ كلَّ مدينة لا بدَّ لها من حكايات، النَّاس هنا، وأعتقدُ في كلّ المدن العربيَّة الكبيرة، لا بدَّ لهم من سيرة يلوكونها، لا بدَّ لهم من عُصاةٍ يضعون أعناقهم على مقصلة النميمة ويتابعون باهتمام، الخوف في نظراتهم، أجسادهم وهي تنتحُ عرقًا، وقلوبهم الواجفة وهي ترقص على إيقاعاتِ إفريقيَّةٍ فيها كثير

من الخبل.

وأنا وأنتِ يا جواهر، حملنا في ظهورنا نصالًا عدَّة، ونزفنا لنظفرَ بهذا الحبّ كثيرًا، جرى نزفُنا في الأزقَّة والشوارع، تحلّقت حوله النساءُ أمام الأبواب المفتوحة في اللَّيالي القائظة، وشربَهُ النَّاس في كؤوس شايهم، في حسائهم الساخن. كلُّ تجمّع لا بدَّ وأن تفقسَ فيه حكاياتُنا، ولا بدَّ للألسنان أن تكزَّ بعبارات الاستهجان المبطّنة بلذَّةِ ما، قبل أن يجري طوفانُ الحكايات التي يكون أغلبُها من تأليف خيالات مريضة بحبّ إبهارِ الآخرين بما لا يعلمون، ضاعت حقيقة حبّنا، ضاع صفاؤهُ وبهاؤهُ في سيلِ الأكاذيب التي برع النَّاس في ترويجها وتعذيب أهلنا بها».

قاسم

٠٩ ١١ ١٩٩٤

عيادة د. ليلى حدّاد

«لم يحدث أن كنتُ طفلًا، أو على وجه الدقّة لا أذكرُ أنّني كنتُ كذلك. حين قدفت بي تلك الباخرة العملاقة على ساحل البيضاء، لم أكن أكثر من آلة باردة. كانت نفسي تهضبُ بأفكار شتّى، كنتُ أعرف ما أريد، كنتُ صاروخًا مبرمجًا على الوصول بإتقان إلى النقطة التي أُريدَ له أن يصلها، كانت تَلسعني في الأعماق وحشة غامقة وشوق ممض لما لست أعرف، وكانت تلك الفراغات الفجّة في ذهني تزعجني، لكنَّ الأمر برمّته لا يصلُ بي حدَّ الثورة أو الجنون. في ذهني، في قعر ذهني، كنتُ أشعر بأنّني غيرُ سويّ، لكن كان ينبتُ في الذهن كذلك يقينٌ مضادٌ، بأنَّ ما أنا عليه هو حقيقتي، ليس حقيقتي وحدي وحسب، بل وحقيقة البشريّة جمعاء!

لكن يا ليلى.. حين التقت عيناي بعينيّ تلك المهرة الجميلة، التفتُّ إلى عضلة محمومة في يسار الصدر، كانت تخفقُ بإلحاح، ركدت على لساني كلمة واحدة (أحبُها)، وجرَّتني قدمايَ إثرها. لم أكن لأعبأ بذلك الشابّ النحيف، الذي كان يرافقها، وحتى حين انتبهَ إليّ، بإيعاز منها، ما كنتُ لأتراجع.. كنتُ آلةً مبرمجةً على تقفّي أثرها، دميةً مبرمجةً كنتُ على تكرار كلمة واحدة على نحو رتيب: أحبُها... أحبُها.

وحتى في تلك اللّحظة التي ثارت فيها ثورة حبيبها، ما كنتُ لأتنازلَ عن الكلمة، وعن تلك الأحاسيس العذبة التي كانت تنحتُ دواخلي، كأنّها تشكّلُ القلب. كنتُ إثر كلّ قبضة مضمومة تنهال عليّ، أتطلّع إلى نظراتها المشفقة، إلى وجهها الحزين، وإلى شفتيها الحمراوين بفعل أحمر شفاه.وحين كَلَّ حبيبها وكلّت يداهُ اليابستان، تركني أهوي أرضًا، مضرجَ الوجه، لا أنفكُ أردّدُ الكلمة ذاتها: أحبُها...

في تلك اللّحظة المجنونة التي انهارَ فيها جسدي، استيقظَ لسببٍ ما لا أعرفهُ عضوي، كنتُ وأنا أتمرَّغُ في خزيي، عاجزًا، أراقبُها تمضي، أنتصبُ رويدًا رويدًا، لا أدري أكان ذلك **الشعور بالخزي** هو من أيقظَ فيّ ذلك الضجيج المنسيّ: الجنس... أم أنَّ نظراتي البلهاء إلى عجيزتها المكوَّرة وهي تبتعد كانت السَّبب! لستُ أدري...

لم أكن أكثر من طفل، طفل بجسدٍ أكبرَ منه، طفل يصحو على الدنيا وقلقها الكبير وصخبها الأكبر، وكنتُ باردًا، كسيف جليديّ، مسكونًا بحبّها

الذي لا أدري أيَّ لعنة دفعت شعلتَهُ في القلب المتجمّد، وأذابت صقيعهُ.. لا أتعَس ممَّن يستهلُّ حياته عاشقًا، وهو لا يعرف من الدُّنيا غير ذلك. أحببتُها يا ليلى، كيف كان يمكن أن أتجنّبها وأنا نيزكٌ طوّحت به يدُ الغيب صوبها؟ لم أكن ملك نفسي، لم أكن ملك نفسي بما يكفي، ولا كانت هي كذلك. لا أخطرَ من عاشق يرى في المعشوقة مشاريع أمومة، ولا أتعسَ ممَّن يستهلُّ حياته عاشقًا, لأنَّه لا بدّ وأن يستنزف قلبهُ ونصيبهُ من العواطف، ثمَّ يواصل بعد ذلك عمرهُ، تنام يسار صدره قطعة خشب متفحّمة!!

عنَّفني حبيبها، لأنَّني تجاسرتُ ولفظتُ في قلبه الحريق، كان محقًّا وكنتُ أستحقُّ أفظع ممَّا نلتُ. وربّما لهذا السَّبب وجدتُني لا أقاومُ ضربه، كلُّ ما كنتُ أفكّر فيه لحظَتها هو حبُّها الذي ضجَّ به قلبي فجأةً، وتلك المديةُ التي تصحو رويدًا رويدًا دون أن أدري إن كانت تلك العجيزة المكوّرة هي التي استفزَّتها أم الضربُ والمبالغة في الإذلال؟

ياه... استيقظتُ من نومة اللّحود في تلك السَّفينة إنسانًا دون إنسانيَّة، قطعة حديد صدئة وباردة! وحدهُ ذلك الدَّفقُ من المشاعر الذي كانت تلك البهيَّةُ جواهر سببًا فيه، وحدهُ كان يصلني بنقطة ضوءٍ غائرة في الأعماق.أمّا أنا، فقد كنتُ فاقدًا لكلِّ شيء، أحمل بين جدران جمجمتي ذاكرةً بتولًا، تتَّصلُ بحاضرها فقط، وفي رأسي كنتُ أعرف الكثير، أهمُّ هذا الكثير أنَّني كنتُ أسير إلى مدينة ليكسوس جنرالًا غازيًا، وأنَّني قبل أن أمسك زمام المدينة لا بدَّ أن أعيش فيها سنة متدرّبًا. كانت تملأ رأسي التعليمات والخطط الحربيَّة والسياسيَّة. أمَّا عن ماضي الفتى الذي أكونه، فلا أذكرُ أنَّني كنتُ صبيًا، لا أذكرُ أنَّه كان لي أهلٌ أو أقرباء، لا أذكرُ أنَّني (كنتُ) قبل أن أستيقظ في تلك السَّفينة!

الغريبُ أنَّني رغم الألغاز التي تحفُّني، رغم علامات الاستفهام المقلوبة التي تنتصبُ أمامي كالمشانق، لم أكن أجدُ أنَّ الأمر يستحقُّ أن أنشغل به، لم يكن يعنيني ذاك الخلاء المهولُ في الذاكرة ولا كانت تزعجني الأسئلة. باردًا كنتُ، أتقبَّلُ نفسي كما أنا، أو كأنَّ ما أنا عليه هو ما يجدر أن يكون عليه كلّ إنسيّ، كنتُ حالة شاذَّة، لكن ما كنتُ لأعبأ بهذا الشذوذ، كأنَّ في دمي مثبّطًا لكلِّ قَلَقٍ أو سؤال عصيّ.

مضت، وظننتُ أنَّني أضعتُها، وأنَّها انسحقت في معدة تلك المدينة الضخمة التي يُسمُّونها الدار البيضاء. كانت تلك الفتاة أوَّل ذكرى تهزُّ عرش القلب المدثَّر بالصقيع، وكان ذلك الموقفُ الغامض بعد أن أبرحني حبيبُها ضربًا أوَّل ذكرى تهزُّ العوالم السفليَّة.. في اللَّيل، في فندق صغير آويتُ

إليه، رأيتُ الكثير، أحلامًا مبتورة وغامضة.. رأيتُني أتلمَّظُ باشمئزاز نهد جثَّةٍ، ثمَّ رأيتُ الثلج، الكثير من الثلج، ورأيتُ أشخاصًا بدون وجوه، في أزياء عسكريَّة خضراء، وأصابع مقطوعة، واستيقظتُ أكثر من مرَّة باكيًا...

وفي الصباح، اتَّجهتُ إلى المحطَّة، وأنا لا أنفكُ أفكِّر فيها، كان وجهي المتورِّمُ يذكِّرني بها، وكانت ذاكرتي الجديدةُ عامرةً بها، كنتُ أسير إلى تلك المدينة الساحليَّة التي قيل لي ولا أذكرُ لا متى ولا أين إنَّها بالغة الجمال، كأنَّها عذراء عارية تضعُ قدمًا في البحر. مستر هارفي كذلك قال غزلًا كهذا الذي لا أدري كيف انحشر في ردهات ذاكرة معطوبة. أسيرُ إلى تلك المدينة، لأتسلَّم منصبًا مهمًّا على أن أتوَّج بعد سنة جنرالًا يديرُ المدينة. آه.. ما الإنسان دون ذاكرة يا ليلى ودون ماض! مجرَّد آلةٍ صدئة تستحيلُ إلى لحم ودم، وتكتسبُ آدميَّتها بما راكمتهُ من ذكريات...

ومضيتُ أراوغُ الجحافل لعلَّني أدرك الحافلة، قيل لي إنَّني تأخَّرتُ بضع دقائق، قيل إنَّ الأسلم أن أنتظر حافلة الغد، لكنَّني هرولتُ كثور مجنون أراوغ هذا وأخبطُ كتفَ هذا، كأنِّي على موعد أجهلهُ. حين رأيتها تهرب، لم أحفل بذلك. ركضتُ كالسَّهم صوب الباب المفتوح، ثمَّ قفزتُ بجنون. أذكر أنَّه قبل أن أنطَّ، سمعتُ رجلًا بدينًا يصيحُ (ستموت!!) قالها بثقة ملاك الموت، بثقة عرَّاف السَّفينة، لكنَّني أهملتُ صوتَهُ، ولم أمت. يمكن أن أزعمَ أنَّني، بعد تلك الحماقة التي كان يمكن أن أترك فيها أشلائي مشدَّخة على قارعة الطريق، قد حييتُ مزيدًا من الحياة.

ما حدث بعد ذلك كان كما لو أنَّه اجتُزئ من قصَّة حبٍّ كبيرة، تلك القصص البهيَة التي تتورَّطُ فيها الصدفة وتخطِّطُ لأتفه تفاصيلها، وتكون ربتها الوحيدة. بينما كنتُ أبحث عن مكان أركن عليه تعبي، ارتطمتُ بها، بهما... جالسين! هل يمكن أن يكون كلُّ ما حدث مجرَّد صدفة لا غير؟ لا أعتقد، كنَّا ثلاثتُنا موجَّهينَ كنيازك صوب انفجار مدوٍّ. ألقيتُ تحيَّةً باردة على الراكبين، ثمَّ جلست خلفهما، غير بعيد عنهما.

لو فقط تدركينَ يا ليلى أنَّ الربَّ لم يكن رحيمًا بنا، وكان يجدر به أن يشتِّتَ خطانا في الدنيا، لا أن يضرب لنا مواعيد تكون بداياتها رقراقة، لكنَّها تنتهي بانكسارات عميقة. كانت الدنيا لتكون أرحم، لو أنَّها أبقت تلك الحسناء وشمًا في القلب، ومضت بها إلى حيث لا أدري! لكنَّ الحياة، دائمًا، لا يحلو لها أن تكون كريمةً إلَّا عندما لا نسألها ذلك.

سيمون

١٠ ١١ ١٩٧٠

بينَ البيضاء وليكسوس

فرَّقنا النِّظام بصلف، سرقنا عمرًا نادرًا من البهجة، لكن حين توغَّلتْ بنا المعرفة أبعد من خطوط النِّظام الحمراء، وجدنا أسلاكهُ الشّائكة تتوغَّل عميقًا في لحمنا. لَفَظَك الوطن بعيدًا، وقد ارتحتُ لهذا الأمر فيما بعد، ارتحتُ كثيرًا، بعدك. بعد رحيلك القسريّ، رأيتُ الموت رؤية العين، ولم أمت. استحال (المير) وحشًا مجنونًا يفضِّل أن يحرق المدينة كلّ المدينة على أن يُبقيَ فيها ثائرًا واحدًا. مدينة ليكسوس حمامة نازفة على حافَّة البحر، هذه المدينة أرملة تمرَّدت على تقاليد القبيلة و«حقِّ اللَّهِ»، فاستحالت مسخًا، تفتعل نهارًا نومة ملاكٍ، وفي اللَّيل تنقلبُ غولةً.. تبتلعُ الحياة والأحياء. تراهُ الربُّ سلَّط عليها «المير» أم سلَّطها هي و«المير» علينا؟ لا أدري.. قلتُ لجواهر، وقد أخذنا مكاننا في الحافلة أخيرًا:

قيل إنَّ «المير» سيُحال على التقاعد هذه السنة.. أو السنة المقبلة على أبعد تقدير.

تطلَّعتْ إليَّ بعينيها اللَّوزيَّتينِ اللَّتين اشتقتُ لهما أيَّما شوق، ثمَّ قالت:

يمضي «مير» ويأتي «مير»..!

كانت صادقة حدَّ الوجع، هدمت بمعول الحقيقة الظنَّ الذي ربَّيتُه في أعماقي، لكنَّني سعيدٌ جدًّا لأنَّ ذلك الرجل الصلد، ذلك الرجل الذي كما لو أنَّ الربَّ لم يضع بين جوانحه قلبًا سيتركُ لغيره ملكوته. حربي ضدَّ النِّظام لا تزال قائمة، لكنَّ حربي ضدَّ هذا الرجل، حربي الشخصيَّة ضدَّهُ رغم أنَّ الأمر يناقضُ قناعاتي تقرعُ في القلب طبولها، سيمضي المير ويأتي غيره، لا بدَّ أنَّ النِّظام لن يرسل إلَّا من هو أسوأ منه.. قالت:

كيف كانت أيَّامك من دوني..؟

تسألُ... آه تستدرجني إلى مكاشفة لستُ مؤهَّلًا لها بعد، تراها لم تر جسدي المتيبِّسَ، وجهي الذي شاخ والندوبَ التي تكسو رقبتي؟ تراها لم تستنتج دون الحاجة إلى السؤال ما حلَّ بي بعدها، أم أنَّها تريدُني أن أذرف في حضرتها الكلام؟ تريدُني أن أتطهَّرَ بالبوح من كلِّ تلك الآلام التي حلَّت بي، هيهات... لا يضمِّدُ الكلام جراحاتٍ لا تلتمُّ إلَّا لتتفسَّخ، بالنسبة لمذبوح مثلي في أعماقه، لا يكون الكلام سوى صديدِ نفسيّ لجراح في

الأعماق..

آه.. لو فقط تعلمين كيف كانت أيّامي دونك، هي أيّام شاحبة مريرة تطاولت أكثر ممّا ينبغي، أيّام لا يبين أوّلها من آخرها.. في ذلك القبو الدبق، حيثُ تنزلقُ روح المرء إلى هاوية سحيقة، وتحفر في اللّحم الحلكةُ، أمّا حين يجيء دورُك ويقتادك زبانية النّظام إلى التعذيب، فإنّ القلبَ يضمرُ ويتضاءل في الصدر، يشخصُ البصرُ وترى العينُ الموت، وهو يسرجُ ذلك البراق الذي سيُقلُّ روحك رأسًا إلى السّماء، لكنّ الموت حين تتمنّاهُ لا يكونُ حليفك، يرقبُ كقطٍّ عابثٍ عذاباتك، يتلصّصُ على لحمك وهو ينفلق بجراحاته، يحثُّ الخطو، يدنو بحذرٍ، حتّى إذا قلتَ إنّه لا بدّ سيُتوّج عذاباتك بالضربة التي طالما انتظرتها، أشاح بوجهه الكئيب عنك غير عابئ بك وأنتَ تستجديه ضربة المنتهى، تلك التي لا يكون بعدها غيرُ العدم..

ترى أكانت جريمةً أنّنا أردنا لهذا الوطن الأفضل..؟

ابتسمتْ، لأنّي أجبتُ عن سؤالها بسؤالٍ، وردّت، وهي لا تكفُّ تخلخلُ بأصابعها الجميلة شعري:

طبعًا لا.. ولكن لا يجدر أن نبالغ، لا ينبغي أن نمرَّ في الحياة مرورًا شاحبًا. حبيبي، أعرف قلبَك الطيّب وأعرف تلك الأفكار التي تتّقدُ في رأسك، لكنّني أخاف عليك. قليل العمر لا يكفي لتفعل كلّ شيء، العمر يهربُ بنا، من حرب لحرب، ندافعُ عن الحياة، لكن يجدر أن نعيشَها كذلك، حبيبي «شويّة لربّي وشويّة لعبده»..

ربّما، لكن لا مجال للتراجع. الرصاصة انطلقت، والسكّين حين يسبحُ في اللّحم لا فرق بين أن تَستلّهُ أو تستبقيه، وهذه الحرب، هذه الحرب اللّعينةُ ضدّ النّظام، ليس نظام ليكسوس وحده بل ونظامُ كلّ المدن العربيّة التي يحكمها الجنرالات، حرب لا بدّ منها. أعرف أنّ الخطط النضاليّة التي نتبعُ الآن بسلميّتها الذميمة مفلسةٌ، أعرف كذلك أنّنا مجرّد لقمة سائغة في يد المير، لكن تمنّيتُ، منذ زمن بعيد، لو أنّ الرّفاق لا يهادنونَ صلف النظام ويبادلون بطشَهُ بطشًا، لا أن يحشدوا الجماهير الشعبيّة ويدفعوها، ويندفعوا معهم إلى الموت بصدور عارية..

ستخسرُ الكثير أنتَ ورفاقك.

ومن قال أنّنا لا نخسرُ الآن الكثير. ثورةٌ واحدةٌ تهزُّ عرش المير لا بدّ أن ننزف فيها كلّ قوانا، لكن ستكون ذات جدوى. أما النزيف، فلا بدّ منه. نزيفنا المتدرّج الذي امتدّ زمنًا طويلًا، لا بدّ أنّه سيكون قليلًا مقارنةً مع

نزفِ يوم وليلة نعلنُ فيها على المير القيامة..

لا أريدُ أن أخسرَك حبيبي، يكفي ما رأيناه..

ولا أنا.. لكن كذلك لا أشتهي أن أتخلّى عن الوطن... هذا الوطن الكبير, يسمُونه مجازًا بلاد العرب.

لم تجب. استقرّت على وجهها غيمةُ حزن، سحبت أصابعها وأشاحت بوجهها عنّي إلى النافذة، كما لو أنَّها تريد بذلك أن تضع حدًا للنقاش. كان يمكن أن أتنازل عن هذا الوطن، هذا الوطن الذي بقدر ما أحببتُه نبذني، كان يمكن أن أستجيب قبل سنوات لنداء تلك السَّفينة التي استقرَّت على ساحل تلك المدينة العاهرة، تلك السَّفينة التي يتَّمتني قبل الأوان، تركتُها تمضي بأبي وأمّي وأخوتي الصغار إلى تلك الأرض التي أسموها مجازًا: الأرض الموعودة..

كان يمكن أن أتنازل عن وطن تنازل عنّي، مثلما تنازل عن ملايين سواي، كان يمكن أن أبتنيَ في إسرائيل ذلك البلد الندبة على جسد بلاد العُرب حياة جميلة، كانت السَّفينة تشرعُ لي عناقًا حارًا وتعدُني بالسَّعادة، لكنَّني عن كلّ ذلك الفرح المعلنِ غضضتُ الطرف، وآثرتُ إلّا أن أمدَّ جذوري في هذه الأرض السبخة، ليس لأنَّني أنتمي لها وحسب، ليس لأنَّ القلب ولأسباب مبهمة تحنَّطَ على هواها، بل أكثر من ذلك، لأنَّني أؤمنُ بآصرة الفكر، ولأنَّ قلبي مشدودٌ بحبال جواهر لوتد هذا الوطن، ولأرض هذا الوطن..

أنتمي لمساحة التراب التي وجدتُني فيها، وقبلي وُجدَ فيها أجدادي.أنتمي إلى الماركسيَّة، وللحبّ أنا أنتمي، أوجعني رحيلُ من أحبُهم، أوجعني تخلُّفي عن مرافقتهم يوم نادت السَّفينة. كانوا قبل الرحيل يحلمون بالرحيل، وحين امتدَّت إليهم تلك اليدُ الخشنة، اقتلعتهم بيُسرٍ، ذلك أنَّهم كانوا في أرض تلفظهم، رحلوا غير أوَّابينَ، رحلوا بعد أن دفنتُ في قلوبهم أملًا زائفًا، بأنَّني لا بدَّ آتٍ، جَرت بيننا السنون وتكسَّرَ الأمل على جنادل الأيَّام الرتيبة ما بيننا، الأيَّام العصيبة التي مررت بها ولا أزال أمرُّ بها، دفعتهم إلى دوَّامة النسيان.

أحبُكِ.. قلتُ لها، ثمَّ أردفتُ بحزن، أنتِ السَّببُ الوحيد الذي يبقيني على قيد الحياة. في السجن، وأمام الجلّاد، كان يكفي أن أستعيدَ كلَّ جنوننا، لأعشق الحياة وأصارع من أجل فرصتي في العيش. أعرفُ أنَّ حربَنا عبثيَّة، وأنَّنا قبل أن نثور، وقبل أن تدكَّنا آلةُ النِّظام الهمجيةُ،

محكومون بالهزيمة، لكنَّ هزيمتنا ضروريَّة، بل إنَّ اندحار هذا الجيل الثائر ليس إلَّا حطبًا لثورة لا بدَّ آتية، بعد عشر سنين، بعد خمسين سنة، بعد ألف عام.. لا أدري!

دعيني أقولُ لكِ بيأس إنَّني أحبُّكِ بقدر ما في جوارير قلبي من يأس، وأشتهيكِ بقدر ما أشتهي ثورة هذا الشعب النائم. كلَّما حزَّكتُه أمعن في عناق الوسادة.. ليتني استلبتُ هذا الزمن الرديء، ليتني أعود به إلى الوراء، طبعًا لن أقرأ ماركس، لن أصيخ السمع إلى سحر لينين، ولا بدَّ أنَّني سأتبرَّأ من تلك الكتب الحمراء، لن أحلم بأكثر من كوخ تافه في قرية مهملة، يلملمُ سعادَتنا بهذا الحبِّ الكبير، وينأى بنا عن عويل واقعنا.

حين تحرَّكت بنا الحافلة، كنتُ غارقًا في سديم من الأفكار السوداء، رأيتُه يعدو صوبها، ترى أيُّ جنون قذف به في هذه المحطَّة، هو... نعم هو.. لستُ أنساه. بعض الوجوه، بمجرَّد أن تراها حتى تخبطَ بختمها في الذاكرة.ظننتُهُ مخبرًا أوَّل الأمر، ثمَّ لم ينفكَّ هذا الظنُّ أن اضمحلَّ مع أوَّل لكمة أهوي بها على وجهه؛ أمَا حين ردَّد تلك الكلمة على نحو بالغ السماجة، قلنا إنَّه مجنون، ترى ماذا عساه يكون اليوم؟ وأيُّ صدفة ملعونة هذه التي ستزجُّ بنا معه في الحافلة نفسها..؟

أوَاهُ.. في الحافلة نفسها!

ألقى تحيَّة باردة، ثمَّ جلس خلفنا، كان وجهه باردًا، وفظيعًا، وجه لا تنفكُّ تنزعج حين تراه. أودعتُ فيه رضوضًا وتوؤمات شتَّى، حين التقت عيوننا ابتسم ابتسامةً ملغَّزة... كنتُ لحظتها ألعنُ الصدفة العبثيَة التي اعتقلتنا معًا في هذه الزنزانة الحديديَّة، والتي، وحدهُ يعرف الشيطان كم سيدوم أسرنا فيها، وكان في القلب مقدار حفنة من الحزن رغم السَّعادة التي هجمت عليه. حزنٌ، رغم أنَّ أسباب الفرح تبدو كثيرةً، هو الذي يصحو في القلبِ نصلهُ، ولا أجد له سببًا واضحًا، حزن يابس يخدشُ جدرانَ القلبِ!

التفتُّ أكثر من مرَّة، وراقبتُ وجههُ الخرب. كنتُ أرقب نظراته، أنتظرُ اللَّحظة التي تستبدُّ به الرعونة فأفقأ عينيه، لكنَّه بدا كما لو أنَّه يتحاشى النظر إلينا عامدًا. أنِستُ للأمر، وتمنَّيتُ لو تلفظهُ الحافلة المهترئة سريعًا، لكنَّه حين سحب من حقيبته كتابًا انتبهتُ أنَّه «الأمير». شعرتُ أنَّ طريقَهُ لا بدَّ يطول، ربما أطول ممَّا بين البيضاء وليكسوس من زمن، وتمنَّيتُ فقط لو تلفظنا الحافلة أوَّلًا وتستبقيه، أو العكس!

الرسالةُ (٢)

من جواهر إلى سيمون

ربيع ١٩٧٠

«أحبُكَ...

وعدتُكَ ألا أدشّنَ رسائلي لكَ إلا بهذه الكلمة. أحبُكَ، وددتُ لو أنّني أملأ بها هذا البياض ولا أقرؤكَ غيرها، لكنّ في القلب مقدار حفنة من الكلام لا بدّ ألّا أغفلَ عن حرائقه. أحبُكَ، وتعرف أيُها المجنون أيّ هبلٍ عمّرَ في القلب منذ سرقتَنِي منّي بنظرة. أحبُكَ، وأعرف أنّني مهما أفنيتُ في هواكَ الحروف لا أقول عواطفي على نحو يليق...

قاسيةٌ حياةُ المناضل في تلك الأرض المسنّنة، قاسية ومرّة، يتجرّعُ أيّامها على مضض دون عزاء من الشعب، أو فتح يسلّيه، بين كرٍّ وفرٍ يبدّد أيّامه، وطمعًا في حياة يرى أنّ العامّةَ تستحقُّها يفوته أن يعيش، وأنا وأنت يا حبيبي كنّا مطالبين بأن نخدع اليسار قليلًا. قليلٌ من الغشّ حين يتعلّقُ الأمرُ بالقلب جائزٌ، بل ومستحبّ... لكنّ عقلكَ كان شعلة من لهبٍ متّقدٍ، وتلك الأفكار التي ملكتها تملّكتكَ، وأنا لأنّي أحبُكَ، لأنّي نزفت في الطريق إليكَ كثيرًا، ولأنّك كلّ ما لي في هذه الدُنيا.. لا أقدر إلّا على تقفّي أثرك ولو كنت تسيرُ بي إلى جهنّم.

لا أحتجُّ يا حبيبي ولا ألومكَ، لأنّك سقتَ حبّنا إلى هموم إضافيّة. أنتَ ورفاقكَ على صواب، وتلك الشّعارات التي تصدحُ بها حناجركم، تلك المطالب التي ما فتئتم ترفعونها في وجه الطاغوت، لا بدّ منها لتقوّموا اعوجاج ميزان ليكسوس.. حزينة فقط، لأنّ حبّنا كان يستحقُّ بعد أن سيّجتهُ لعنات المدينة وخرج سالمًا هدنة، لا لنلملم فوضانا الداخليّة ولا لنرفو مزقَ القلب، بل لنفرح قليلًا. كنّا نستحقُّ بعد تلك القيامة الاستباقيّة أن نُسعد ولو لبرهة، لكن ما كدنا نسلمُ للراحة أضلعنا المفككة، بعد إخماد حرب كادت تنهشُنا ألسنتُها، حتّى دفعتْ بحبّنا إلى ألسنة حرب أخرى».

قاسم

١٩ ١٠ ١٩٩٤

عيادة د. ليلى حدّاد

كنتُ أرفلُ في جبّة الجلّاد رغم أنّني كنتُ الضحيّة. حين زجّت بنا الصدفةُ في الحافلة نفسها، قبلتُ منّة الغيب مبتسمًا، ولم أسعَ إلى ما ينغّصُ على ذلك الشابّ الوديع سفره. اكتفيتُ بنظرات خجولة إلى شعرها الكستنائيّ الجميل وملامحها، كلّما تطلّعت للنافذة وأشاحَ هو عنّي بطرفه. كان باديَ التعب، كأنّه رجلٌ غادر قبرهُ ليستقبل تلك الحسناء الطاغية الجمال ويعود.. تمنّيتُ لو يعود إلى قبره. وحين تطلّعتُ إلى عينيها وهي تراقبه، أصابعها وهي تتحدّثُ معه، لهفتها عليه، لهفتها إليه... لحظتها، تمنّيتُ لو أعيده إلى قبره!

كانت جميلة كملاك ترجّل عن سمائه، وانتقى له الربُّ أبهى جسد. حلوةُ كفاكهة الجبال، رائعةٌ كيوم رائق، لكنّ حبيبها كان يقفُ بيني وبينها. كانت نظراتهُ الشزراءُ تنتصب بيننا حاجزًا، وكنتُ مطالبًا بافتعال اللامبالاة، وألّا أكون مثل الأمس أرعن، تسوقني البلاهة في طريق الزلل. كان تربُّصهُ بي واضحًا، وكان تحفّزهُ للحرب لا يخفى على أحد في الحافلة. أمّا القدّيسة الجميلة، فكانت تنشغل بعينيه في كثير من الأحيان، أو تتطلّعُ إلى النافذة ويطولُ شرودها... كما لو يتقلّبُ في روحها حزنٌ فجٌّ، أو لكأنّها نبيّةٌ تكابدُ ما يلقي الربُّ في روعها!

آه.. يا ليلى!

كنّا أبعد ما يكون عن ذلك الجنون، لولا أنّ الحياة جرّتنا، أنا وهي، صوب خندق الصدفة، بعد ذلك بسنوات، وأنا أرقبها وهي تتساقطُ بين يديّ، تسعلُ ذلك النوع من السعال الحادّ، سعال ملاك ترجّل عن سمائه وغصّ بهواء الأرض الفاسد، ثمّ وهي تبصقُ دمًا.. بعد سنوات، سأمقتُ الصدفة العمياء التي أنبتتها يومًا إلى جواري، وسأكرهُ القلب الذي ربطني إليها كما يُربطُ ثورٌ إلى وتدٍ مغروس في أرض صلدة..

آه.. يا ليلى! بعد سنوات ستمضي وتخلّفُ في الجوف غصّةً وفي العينين بحرًا من الدّموع، حين ثقبَ السلُّ صدرها، وألجأتها الخيبات إلى جسدي عظامًا مفكّكة، كانت تستحثُّ الموت أن يقوم بواجبه تجاهها، ويحسم بالضربة القاضية كلّ عذاباتها. ومثل ما حدث في تلك الحافلة، كان ينتصبُ بيننا حبيبها، كان الغائب الكبير والحاضر الأكبر في آن،

تحتضرُ بين ذراعيّ، لكنَّ قلبَها الداوي كان يلهجُ باسمه. وهي تلفظُ أنفاسها الأخيرة كان حبيبها الغائب سيّد حاضرها، وكنت أنا الذي أدثّرُ بأضلعي برد أضلعها الغائب الأكبر، مثلما كان يحرسُها في تلك العلبة الحديديَّة الصدئة، التي يسمُّونها حافلة، من نظرات الذئب الذي كنتُه. كان يحرس روحها، والموت يستلُّها ويبقي لي جسدًا باردًا شاحبًا.

كان يمكن أن أحملها في ذلك اليوم الأوَّل ذكرى جميلة في القلب، ويبدِّد الربُّ بعده خطانا في تلك المدينة، ويسكنَ كلّ واحد منَّا في زنزانة أقداره الفرديَّة، لكنَّ الربَّ آثرَ أن يضعها في طريقي. لم أكن آدميًا، لم أكن آدميًا بما يكفي، كنتُ قطارًا مدفوعًا في سكَّة طويلة تنتهي بحافَّة اسمها الموت، وكانت دميةً كبيرة، دمية جميلة وضعت يدُ الغيب نحرها على حافَّة السكّة. كانت أقدارنا مرتّبةً على نحو دقيق، القطارُ الذي كنتُه لا يملكُ أن يتوقّف، والنحر لا يبرح الحافّة الباردة للسكّة.. لا يذهبَنَّ بك الظنُّ يا ليلى بعيدًا. لم أقتلها وإن أهملتُها في متناول الموت!! كانت تعدُّنا الحياة للمأساة، لم تدفعنا إلى ذلك الارتطام القدريّ إلَّا لتتوَّج حيواتنا بالتراجيديا..

كان الربُّ في تلك الحافلة ينثرُنا في مشهدٍ أوليّ، مثلما ينثر لاعب الشطرنج على الرقعة بيادقهُ ويقرّرُ بعنجهيّةٍ أن يلعب ضدَّ نفسه، كانت كهرباءُ السعادة تسري في جسديهما.. فرحين كانا، وكنتُ أتربَّصُ بفرحتِهما، كلَّما توقَّفت الحافلةُ تمنَّيتُ ألَّا يبرحاها. وحين انتهت أخيرًا إلى ليكسوس، هذه المدينة التي كنتُ مصوَّبًا نحوها، كانت تلك الدقائق القليلة التي سبقت توقُّفها حاسمةً، كانت تقف في الجوف أمنيةٌ يتيمةٌ، أن يترجَّلا مثلي عن صهوة هذا الخربة الحديديَّة المتآكلة. تماطلتُ والحافلة تبطئ، وأخذت نفسي تهضبُ بأفكار شتى، فكَّرتُ بأن أنتعلَ الجنون وأتقفَّى أثرها، ولو انتهت بنا هذه الحافلةُ إلى القمر..

وفي تلك اللَّحظة المجنونة، تلك اللَّحظة التي كان عمرُها جزءًا من الثانية، التقت عينانا أخيرًا.. طيلة الطريق بين البيضاء و«ليكسوس» سعيت لاقتناص هذه الحادثة اللَّذيذة دون جدوى، وحين أزفَّ الرحيلُ، باركت خيبتي بنظرة عجلى، باحت فيها بكلام غامض وهي تنتصبُ واقفة، كاد قلبي ينطُّ من مكانه، سارت تسبقُ حبيبها، وسار خلفها كأنَّما يحرسُ عجيزتها الجميلة من عينيّ...

هل يمكن لنظرة عجلى أن تفجّر قلبًا باردًا وتعيدَ تشكيلهُ، مثلما تشكّل صبيّة جسدَ دميةٍ مفككًا؟ أيُّ سلطانٍ لنظرة سريعة حتّى تعجنَ صلصال عاشق وتغمرهُ بماء الحبّ؟ وهل يعقلُ، هل يعقلُ يا ليلى أن تكون

نظرةٌ بمثل ذلك الإلغاز الذي يحمل الودّ والصد، القبول والرفض؟ أيعقل أن تتّسع نظرةٌ لبحر من المبهمات؟!

ضجَّ قلبي بفرح عارم بعد أن تأكّد لي أنّهما مثلي، ليكسوس منتهى رحلتهما.. مضيتُ خلفهما، أحثُّ الخطوَ، لم أبتعد كثيرًا لئلّا أخطئهما، ولم أقترب أكثر من اللّازم لئلّا يبرِّحني حبيبها ضربًا، كان يمكن أن أردُّ عن نفسي الأذى. جسدي، جسدي المصقولُ كجسد محارب إغريقي، كان كفيلًا بإسقاطه، لكنّني تركتُه يهزمني، مثلما سأتركهُ يهزمُني. يستحقُّ الانتصار، لأنّني في قرارة نفسي كنتُ واعيًا بأنّه ينخرطُ في معركة شرف، وأنّه جديرٌ بالفوز ما دمتُ أتفه من غازٍ ظالم يطمحُ لامتلاك ما ليس له.. تقفّيتُ أثرهما، لكنَّ سيّارة أجرة اختطفتهما في غفلة منّي..!

أنستُ لهذه النهاية على قسوتِها، في الأعماق استقرَّ يقينٌ كأنّه الحقيقة: لا بدَّ وأنَّ الدنيا قد جدلت مصيرينا معًا مثلما تجدلُ صبيّة ضفيرتَها الطويلة.. لا بدَّ أنَّ الحياة تحتفظُ لنا أنا وحبيبها بجولات وجولات.. كنتُ الظالم والغازي والجلّاد، وكنتُ واعيًا بالأمر، وعيًا يورثُني ألمًا لذيذًا لا أملكُ إزاءهُ إلّا التمادي.

لم أدخل هذه المدينة المخاتلة فاتحًا، رأيتها من بعيد حسناء ممدّدة على رمل البحر يخبطُ الموج جسدها الأبيض، مدينة زائفة لا تمنحكَ أسرارها كاملة إلّا إذا أفنيتَ في عشقها عمرًا كاملًا، وأنا الآن بعد ردح طويل من الزمن، يا ليلى، لا أزالُ حين يسألونني عنها أتهجّى بارتباك كلامًا قد لا يعنيها بالضرورة. كنتُ الحجّاج، أدخلُها متنكّرًا قبل أن يتلبّسَ بي هبلُ نيرون وأشعل فيها حرائق الدنيا..

دخلتُها بعطبِ الملك الفرنسي شارل السادس, مثلهُ كان يقوم في النّفس جنون من نوع ما، قد يتّصلُ بشكل أو بآخر ببلاهة شارل السادس وارتيابيّتهِ، لكنه يفوقهُ.. دخلتُها بخبل الملكة الإنجليزيّة ماري الأولى, لم يكن لديها أفضل من أن تستنشق طبيخ لحوم أعدائها! كنتُ أحمل لهم بين جدران الجمجمة الصلدة مشاريع رعب كتلك التي سبقني إليها الكونت فلاد دراكولا, كان يأكل خبزه المغمّس في دمِ سال من ضحاياه المخوزقين. دخلتُ المدينة غازيًا, وفي جعبتي لهم غزو مؤجّل!

هذه المدينة..

آه.. لعلّي قد أفني فيها الكلام دون أن أقول عنها بعض الذي تستحقّ، جئتُها تئينًا ملتويًا أشبه بنهرها، نهر اللوكوس، وفي سبيل حراسة

تفّاحها الذهبيّ، لو تعلمين أيّ شنائع اقترفت، جنّة هيسبيريديس هذه، بيني وبينها حكاياتٌ وحكايات. جنّتُها يا ليلى نكرةٌ، دخلتُها مثلما يدخُلها الغرباء حافيَ القلب، لكن عكس الغرباء، جنتُ لأوطّنَ فيها بيارقي وأعلنها مستعمرة، جنتُها أتأبّطُ مشاريع صديد ودم، لا أدري لا متى ولا كيف انكتبت في الذهن، مشاريع دمويّة، لم أملك بعد أن استمسكتُ بأزمّة المدينة سوى الانصياع لها.

«ليكسوس» أو التفّاحة الذهبيّة, هكذا سمّاها الفينيقيُّون, مدينة جميلة, حتى ليعتقد المرء أنّها لا تنتمي لقفار العرب الشاسع, بالنسبة للمقطوعين مثلي من شجر! مبهمة طمرها النسيان, أرى فيها التاريخ, تاريخها الذي تلتصقُ بالذاكرة نتفٌ منه. حدّثني عنها مستر هارفي بحماس, كما لو أنّه ينتمي لها, أو كما لو أنّ روحهُ سافرت عبر الزمن, وعادت إليها وهي طفلة فينيقيّة قرونًا قبل الميلاد, ثمّ وهي مراهقة أمازيغيّة, فشابّة رومانيّة, فإسلاميّة في أوجّ حسنها, قبل أن تسقط في شَرَك الاستعمار الإسباني, مدينة عاهرة ومتمنّعة في آن, تستهلُّ معاركها بالصدّ، لكنّها تنبطح في الأخير تحت غازيها، وتسلّمُ له المفاتيح. تناوبت على قُفلها الحضارات, وحين انتهيتُ إليها، كنتُ على ثقةٍ أنّ أيّة قطعة ستفتحُ بابها الخرب!

لكنّها غانية لعوب, لا تكادُ تدخُلها حتى تنسج لها في أعماقك عاطفة غامضة, يندفع فيك تاريخ من تناوب عليها حارًا، ترى كلّ الذين دخلوها غزاةً مجندلينَ تحتها رميمًا, وهي ترقص فوق بقايا الحضارات عاريةً. سرتُ في شوارعها التي تتزيّنُ بالعمارة الإسبانيّة، وتمشّيت في الدروب الضيّقة التي كانت وقتها تعبق بروائح الأندلس, وتقومُ دليلًا على حضارة نزحت في وقت ما إلى هذه الأرض التي تشرعُ عناقها للجميع.

سرتُ إلى «المير» جنرال المدينة وفرعونها وفي يدي حقيبتي، وأوراق اعتمادي.. حين دخلتُ إلى ولاية الأمن، سألت عن الجنرال، سمّيتُه باسمه لا بما يسمّى، فاستمهلني الشرطيُّ ريثما يأخذ إذنهُ، وعاد إليّ يلتمس دخولي بحفاوة، غادر «المير» مقعدهُ، وهو يفتح ذراعيه ليستقبلني بعناق، كان عجوزًا يزحف صوب الستّين من عمره، شاربه منتصب من الجهتين كشوكة دبّور ووجهه كان خليطًا مشنوءًا من التجاعيد، جسده كان ممتلئًا تضيق به البزّة العسكريّة، لكنّه لا يصل حدّ البدانة؛ ذاك الرجل الذي أرسلتُ لخلافتهِ في إدارة هذه المدينة، ذاك المير، سمعت حكاياته الكثيرة، لا أدري على وجه الحديد لا متى ولا أين؟ لكن يرسخ في الذاكرة، ذاكرتي

القديمة، هذا الوجه وسيرة هذا الوجه الذي قيل إنَّ المعتقلين يتلعبكون بين أصابعه كقطع المخاط، قيل إنَّه لا يزجُّ بأحدهم في رأسه إلَّا ويستوديه إلى قبره، أعرف الكثير عنه، حتى وجهه كان في مكان ما من ذاكرتي، رغم أنَّني جئت من وراء البحار بذاكرة بكرا!

جرى بيننا ذلك اليوم حديثٌ طويل عن هذه المدينة ومشاكلها التي لا تنتهي، ومناضليها الذين لا يرتاحون إلَّا حين تُكسرُ هاماتهم. ناولته أوراق اعتمادي، أمعن فيها النظر طويلًا، قبل أن ينزع نظّاراته، وتترقرق في عينيه دمعة. خلتُ أنَّ هذا الرجل الصلد مثلي لا يبكي، فإذا هشاشته تطفح في لحظة ضعف، لا بدَّ أن قرار إسناد هذه المدينة الجمرة إليّ، ذكَّرهُ بإحالته على المعاش، ونهاية فترة مجنونة من تاريخ هذه المدينة. قال بلغة مضطربة:

هذه المدينة...

وأطرق يفكّر، كأنَّه يحاول في صخب الأمواج الهادرة داخلهُ أن يصطاد العبارات المناسبة التي تقول الحقيقة، دون أن تبالغ في فضح ضعفه، أردف بعد صمتٍ خلتُه لن ينتهي:

هذه المدينة.. سنوات وأنا أحبُّها على طريقتي، أحبُّها دون إذنها. وحين يلسعُ حبُّها الأعماق آخذها اغتصابًا. حين جئتُها، لم أكن أريد بها كلَّ ذلك الشطط الذي بلغتُه بها، لكن... يتكسَّر القلب حين تجدُ نفسك بين نارين، حبٌّ كبير تشتهي أن تدافع عنه، وحقد تجد دائمًا من يدفعُك إليه.. في هذه المدينة، كثيرون يدفعونك لتكون شيطان المدينة الرجيم، والنَّاس، النَّاس البسطاء لا يعرفون التفاصيل، تلك التفاصيل الدقيقة، حين تذاع سيرتُك بين النَّاس على أنَّك شيطان المدينة، فإنَّك لا بدَّ ستُنفق عمرك دون جدوى في محاولات عابثة لمعالجة سيرتِك! لا أدري لماذا أنزف في حضرتِك هذا الكلام، هل لأنَّك «ميرُ» المدينة الجديد، ولا أريدُك أن تعبُرَ الفخاخ التي أكلت منّي، أم أنَّني أذرف الكلام فرحة بميلادي الجديد؟ الداخل إلى المخزن مفقود والخارج منه مولود، وأنا بحضورك مولود وأنتَ بغيابي مفقود!

كان كلامه صادقًا، لكنَّهُ لم يكن ليحرِّكَ فيَّ ذرَّة. لم أكن آدميًا لأتأثَّر، كنتُ قنبلة موقوتة، تعرف متى ستنفجر وتعرف ما تضمرُه من خراب، ولا تعرف شيئًا عدا ذلك... كان ما نبت في الصخرة الصلدة يسار الصدر تجاه تلك الفتاة، هو الخيط الرفيع الذي يصلُني بإنسانيَّتي النائمة أو المخمَدة. لستُ أدري يا ليلى على وجه التحديد، إن كنتُ إنسانًا، إنسانًا بما يكفي، أم

أنَّني مجرَّد دمية مبرمجة على أن تؤذي دورًا ما وتمضي. في كثير من الأحيان، أحسُّ أنَّ حياتي تُسرقُ منِّي، وأنَّ في أيّامي فراغات جمَّة عصيَّة على الذاكرة.

ليلى

١٠ ١١ ١٩٩٤

العيادة

كان يومًا عصيبًا بحقّ..

هل الجنرال «قاسم جلال»، ذلك الرجل الوديع الضائع هو نفسهُ قاسم الذي كان أمس ثورًا هائجًا تقدَحُ عينيه بشرر وتلهجُ أساريرهُ بالويل؟! كان يومًا لعينًا بحقّ. كنت أعرف أنَّ هذا الرجل الغامض، الذي لا تنفكُ هذه المدينة تتهجَّى سيرتَهُ القبيحة في همس، هذا الرجل الغارق في وداعة الأطفال ينام على فصام مرير، منذ شهور وهو يتمدَّد من حين لآخر على الأريكة الوثيرة. كان يفعل ذلك بوجل، وحين يميطُ اللِّثام عن هرس في قلبه، كان الكلام يندلق من فمه باردًا كما قسمات وجهه، كأنَّ المعنيَّ ببوحه شخصٌ سواه..

كنتُ أعرف أنَّه رجل خطير، وأنَّه خلف تلك الملامح الباردة ينام بركان أهوج، حين ينشط فإنَّه يدلقُ حممهُ على كلّ من يجدهم أمامه ويحوّلهم إلى حجارة. في عقله، عقله العميق كجبّ غائر في رحم الأرض، تقبع تماثيل ضحاياه، تماثيل من حمم تحجَّرت، تماثيل محشوَّة بلحم بشريّ! كنتُ أعرف أنَّ هذا الرجل جبل ثلج يضمرُ أكثر ممَّا يعلنُ، ولم أتوغَّل في حقوله الملغومة إلَّا لأنَّني أعرف أنَّه يملك مفاتيح هذه المدينة، وفي جيبه تنام أسرارها.. ويمكن، إن أنا ساعدتهُ على التصالح وذاته، أن يمنحني ما أرمَمُ به ذاكرتي المنقوصة وأستعيد به بعض طفولتي... لي في هذه الأرض جذرٌ طمرتهُ الغربة والسنوات العجاف، ولا بدّ أن أتَّصل به وبتلك التي حين هدَها عطبُ الرُّوح لفَّت بالبياض بنتها قبل أن تدفعها في الأحضان الباردة، أحضان الغربة والغرباء!

لم أخطّط حين زلَّت بي قدمي صوب هذه المدينة الفتنة لاستدراجهِ إلى ماضيّ، لكن حين دفعتني الصدفة إلى الارتطام به، قبلتُ خطط الغيب، تمسَّكت بصداقته أوَّلًا، ثمَّ ألححت على معالجته فيما بعد، دفعتُه ليخرط أسرارهُ كاملةً على تلك الأريكة، فإذا بي أجدهُ علبة فارغة إلَّا من قصَّة حبٍّ عصيَّة على الفهم. جاس في الذهن قبل اليوم الكئيب ذلك الظنُّ، لكنَّني سارعتُ إلى تكفينه في بياض النسيان، أمام ذلك الخلاء اللَّزب الذي هو ثلاثة أرباع شخصيَّته. فكَّرت أنَّ الرجل ينام على فصام يلتهم حياته، وقد مُنحت إشارةً لم أعبأ بها طويلًا، وهي أنَّ هناك بونًا شاسعًا بين الشخص

الذي يقدّمه قاسم على أنّه هو، وبين قاسم الذي يعرفهُ الجميع. النّاس! النّاس في هذه المدينة يتحدّثون عن سنوات عجاف وقحط عَبَر المدينة، يحفظون تاريخها، وكلُّ المصائب التي عبرت بها لا تزالُ ندوبًا في الذاكرة الجمعيّة، يورّثها الأجداد للأحفاد، لكن حين يجيء ذكر قاسم جلال هذا، فإنَّ الوجوه تُصاب بالقرف، يسبحُ الكلام طويلًا داخل الأفواه المطبَقة. وإن حدثَ وانفتحَت، فإنّها تسيلُ همسًا وتحكي قصص مضطربة، أغلبُها لا يدخل العقل.

كان واضحًا أنَّ هذا الرجل جرحٌ فجٌّ في أعماق هذه المدينة، وكان واضحًا كذلك أنَّ حياتَهُ لا يمكن بأيّة حال أن تُختزلَ في تلك العلاقة الغراميّة البالغة التعقيد، وأنّه خلفَ مساحات البياض، في تلك المناطق البكر، التي يزعمُ أنّه لا يعرف عنها شيئًا، في تلك السّنوات الثلاثين المسروقة من عمره هناك، لا بدَّ تكمنُ كلُّ الأسرار..

شخصيّة هذا الرجل تنامُ على فصام، وقد دفعت لي المدينة بما يؤكّدُ ذلك، وغضضتُ عنه الطرف. هو نفسه أشار في بوحه إلى الأمر ولو مواربةٍ لكنّني عجزتُ عن التقاط الإشارة، كانت أشرعةُ فكري سادرة في نوم هانئ، لو أنَّ الربَّ والأقدار الرحيمة لم تبادر إلى إخماد ذلك الحدث الدامس، لاتُّهمتُ بالغباء. النّاس البسطاء لا بدَّ وأن يخبطوا كفًّا بكفٍّ شفقةً وحزنًا عليّ. أمّا رفاقُ الحرفة، فلا بدَّ أنَّ ألسنتهم ستعجلُ بالشجب والتنديد، لكنّهم في السرّ سيسخرون من الشابّة الغرّة، التي جاءت من البعيد تتأبّطُ شهادة الدكتوراه، وتسارعُ إلى فتح عيادة في بلد معطوب بأمراض شتّى...

كان يومًا صعبًا مزّغ أرضًا كلَّ تلك الأفكار الطوباويّة التي عمّرت في الذهن، وفَتَح عينيّ على اتّساعهما على فداحة الواقع، كان يجدر أن أتّقي المصيبة... لكنَّ بعض المصائب لا يمكن بأيّ حال اتّقاؤها. حين تتقصّدك، فإنَّ هروبك منها لا يكون إلّا هروبًا إليها.

عرج على العيادة بالبزّة العسكريّة التي تضيقُ بجسده الممتلئ، قال إنّه لم يملك الوقت ليمرَّ بالبيت قبل مجيئه إليّ، قال وهو يتمدّدُ على الأريكة، إنّه رأى حلمًا يتكرّر كثيرًا: ثلج كثير، خيمة تتهاوى ورجال يهربون. قال إنّه كان يبكي في هذا الحلم، وأنَّ الدماء، دماء أشخاص، لم يستطع أن يرفعَ رأسهُ ليراهم، كانت تفترشُ بياض الثلج في لوحةٍ تخضُّ قلبَهُ وتورثُه خوفًا مبهمًا لا يهادن! قال إنّه رأى أحذية عسكريّة ثقيلة تنغرسُ في الثلج، وعربات كانت تشقُّ البياض. قال، والكلمات تخرج من بين شفتيه

المرتجفتين واهية، إنّ الثلج كان يتساقط ندفًا، ويغطّي أو يكاد الدّماء.. قلتُ إنّ الأمر مهمٌّ، ولا بدّ أنّ ذلك الربع الخالي من ذهنه، تلك السنوات الثلاثون التي سُرقت منه لم تغادره، وأنّها لا تزال قابعةً في الذهن ترسل إشاراتٍ ما عبر الأحلام..

قال إنّه يعلمُ أنّ حياتَهُ بالغة التعقيد، وإنّه لَمِنَ العبث أن ينفق دقيقةً أخرى في محاولة ترميمها. قال إنّ الآيل للخراب يرمَّم، أمّا هو فقد تهدّم. قال إنّ ما يعيدهُ إليّ هو أمر واحد لا غير، تلك التي قبل أن يمتصّها الغيبُ خلّفت في قلبه كسرًا فادحًا...! وحدّثني بعد ذلك بلغةٍ، هشّة في تلك العتمة الغامقة للغرفة، عمّا فتّتَ قلبَهُ وأشعل في أزمنته الحروب، رشقني بتاريخ محموم من الحبّ العنيف. وكلّما حاولتُ أن أعيدهُ إلى الدّوائر الفارغة التي تملأ حياتَه، استعصى عليه الكلام وعاودته رغبة في الحديث عنها. قال إنّه قبل أربع وعشرين عامًا بالضبط ارتطم بها في حادثة الحبّ اللّذيذة. طلبتُ منهُ بهذه المناسبة أن يعيد نظم ما تشتّتَ من الحكاية في أكثر من جلسة، فسحَ الكلام شجيًا!

كان دائم الوداعة...

حين يتكلّم يعرف كيف يسحبُ من أعماقه كلَّ جراحاته، يعرف كيف يُسقطُ عنه قناع مهنَتِهِ ويلبسُ بدلهُ أحزانَه.. حين تمخرُ سفينة بوحِهِ عبابَ ماضيه، فإنّها تعرف كيف تتّقي العباب، لكن يبدو كما لو أنّ القبطان في ذلك اليوم قد تخلّى عن سفينته، أو أنّ الأمواج كانت تفوقُ حنكتَهُ، أو لربّما يكون قد بدرَ منّي شرارة تافهة قدحت اللّعنات والعقد القابعة في أعماقه، كنتُ طوال زياراته السّابقة أعتقد أنّه كان السّفينة التي تعرف كيف تجلو الحقائق الكامنة في الدرك الأسفل، وتغادرُ العواصف سالمة، لكنّني اكتشفتُ إثرَ تلك التجربة المريرة أنّه كان قرشًا أبيض، لم يُحسن واقعُه ترويضه..

لا أدري على وجه التّحديد ما الأمر الذي دفع قاسم الوديع، إلى الانطفاء، إلى الانتفاء بعيدًا في دواخله. لا أدري ما الذي فسح المجال لقاسم الآخر، كنتُ أحدّثُه بحماس عن بعض ما كان يفترضُ أن يشكّل طفولتَهُ، أو يتّصل بها على نحو ما، وكانت **أصابعي تسافر في السّماء** وأنا أحدّثه بحماس. حين رنّ الهاتف، قفزتُ من مكاني لأردّ، لكنّني ما كدتُ أنتهي إليه حتى التبسَ بشخصهِ شخص آخر، لا يمكن بأيّة حال أن يكون قاسم!

درستُ هذه الحالة جيّدًا، وعَبَرت قبل ذلك بذهني قصصٌ شتى،

ورأيتُ قبل العودة إلى المغرب حالات كثيرة، ساهمتُ في علاج بعضها. لكنَّ كلَّ حالة كانت تدفعُ لك بمؤشِّرات تجعلك تعتقد أنَّ حياة صاحبها مصابةٌ بفتق ما، أمَّا هذا الرجل، على اعتلاله النفسيّ الواضح لم تكن حالته لتشيّ بأبعدَ من خللٍ في الذاكرة واكتئاب وأورام ماضويَّة تأكل حياته، لم تبح سيرتُه بتلك الشخصيَّة الثانية التي تزاحم أيّامه، أو لعلَّها باحت ولم ألتفت. تلك الأسئلة القلقة التي كنتُ أريد أن أستخلص منه أجوبتها، شغلتني عن التقاط الإشارات.. كنتُ سادرةً مثلهُ في غيّ الماضي، لم أنتبه البتَّة إلى أنه جبل الجليد، وأنَّه كان يضمرُ أضعاف ما يعلنُ..

كان في عينيه بريقٌ خاص، يشي بلؤم صريح، يمكن أن أزعم أنَّني قدَّرتُ حجم الكارثة قبل أن تقع.. انفلقت شفتاه عن ابتسامة خبيثة، فخفق قلبي داخلي مجلجلًا. وما كدتُ ألتقط الأنفاس التي كما لو أنَّ الخوف يسرقُها منّي، حتى اندفعَ كثور أهوج، لم يكن قاسم الوديع القسمات، لم يكن ذلك الرجل الخمسينيّ اليائس، الذي لا ينفكُ يغدقُ عليَّ بدعواته وينادِيني ب«ابنتي». مرَّت أمامي حالات أصابها الاغتصاب بعطب نفسيّ بالغ التعقيد. أعرف الكثير من الحكايات، لعلَّ أهمها حكاية «جاك». عرفتُه في باريس، وأحببتُه. لم أكن أقدر على تفادي منَّة الأقدار، ولم أكن لأستطيع إلَّا أن أحبَّه..

كان جاك حفنة نور بالغة الهشاشة، أفسدت حياتَه في بداياتها حادثة اغتصاب، فأنفق كلَّ السنين التي أعقبَتها في محاولات مستميتة لترميم ما تهدَّمَ منه. شابٌ بريء، منذ أن أصيبت حياتُه بفتق وروحهُ عالقة في تلك الأزمنة الشحيحة، كان جسدهُ يكبر في غفلة منه، أمَّا الرُّوح فقد كانت كحدّ سيف غائر في الماضي.. كانت توحُدُنا الكليَّة نفسها ويفرِّقنا التخصُّص، أنا وهو كنّا روحين صوّبتهما الأقدار ليلتقيا، وحين التقينا وسرى بين روحَينا الحبُّ، أيقظ هشاشاتنا الثاوية في قعر الروح. حدَّثته عن هويّتي المبتورة، وحدَّثني عن طفولته المبتورة، عن تلك التي أسلمتني لغريبين ومضت، وعزَّى هو ببوحه الأمراض النفسيَّة التي تقرض حبال روحهِ المشعَّة. كان يحتاج إلى متابعة وأدوية كثيرة، كلَما طلبتُ منه التداوي تمادى في العنت، وتوغَّل بعيدًا في العتمة الدامسة. في أخريات أيّامهِ، انبرى جسدهُ وتشظَّت روحهُ، تناوب عليه جملة من الأطباء، كلٌّ يبغي ترميم ما تهدَّم منه، ودون جدوى. في صباح بارد، شقَّ معصمَهُ اليسار وارتمى في حضن السين، قبل انتحاره بيوم، قال لي إنَّه لم يعد يطيق حياةً يزاحمهُ فيها مغتصبُه. قال إنَّه يراهُ في كلّ شيء، وإنَّ بعض

الجراحات لا تطبُبُها سوى ذبحة المنتهى.

سمعتُ قصص اغتصاب شتّى، وكنتُ أحاول ما أمكن أن أكون محايدةً، وأن أتعامل مع الأمر على أنّه حالةٌ نفسيّة يلزَمها التطبيب. لكن وأنا أقاومُ هجمة الجنرال الشرسة، فإنّ كلّ تلك الحكايات، كلّ تلك القصص الدامية، كانت كما لو أنّ الخوف يضخُّها في روعي دفعة واحدة، واستيقظَت داخلي تلك الأحاديث التي جرت بها ألسنة النّاس همسًا.. قاومتُ، قاومتُ بشراسة، لكنّه كان قويًّا كشاب في العشرين، صلدًا كجرف صلد.. رويدًا رويدًا، تراخت مقاومتي، خارت قواي دفعةً واحدة، وشرعتُ أستسلمُ لمدّهِ العاتي، ليَديهِ وهما يجرّدانني من ملابسي، كنتُ عالقةً في عرامة من التلاشي، لم يستعدني حاضري إلّا في تلك اللّحظة الواهنة التي رأيتهُ متجرّدًا من سروالهِ. كان ينهمرُ من عينيّ شلّال دمع وهو يحفّني بجسده، ويصوّبُ مسدّسهُ نحوي مهدّدًا في كلّ لحظةٍ، بصوتٍ أقربَ للهذيان، صوتٍ كأنّه لا يعنيه، كأنّه لا ينتمي له.

حشر رأسهُ في جيدي، ومرّ بلسانه على جسدي، وبيده اعتصَر نهديّ بقوّة مؤلمة. وحين أنضجَ رغباته، أو هكذا اعتقدَ، فرد شيئهُ وهمّ بي، كانت آلتهُ متغضّنةً بادية الضمور، لا شيء فيها يشي بفتح، كان فتورُ آلته يخذلُ شهوَتهُ اللّاعجة. كلّما اقترب حرّك بأطراف أصابعه آلتهُ. حين جثم على لحمي، أحسستُ آلتهُ ملتويّةً لا حياة فيها، لهثَ لدقائق ككلبٍ وهو يحرنُ في وجهي، قبل أن يعود إلى شيئه، كان أشبه بقطعة لحمٍ تالفة، بدا واضحًا تعنُّتها وعدم استجابتها لحركات يده؛ أمّا فمهُ فقد كان يكيلُ لي الشتائم، على أنّ بعض الكلمات الغائمة كانت تنتصبُ بين الشتيمة والأخرى، كلمات بالفرنسيّة، **ثلج.. دماء.. إيفان الرابع.. انتقام.. جوزفين...** كان واضحًا أنّه يقولُها مغيّبًا. واصل خضخضة الخرقة المتهدّلة التي تكاد تغيبها غابةُ العانة، دون أن يسفرَ ذلك عن انتصاب يسعفهُ على أن يقدّ لحمي...!

في لحظة مجنونة، انتصبَ واقفًا، أهملَ مسدّسهُ، تراجع للخلف بخطى وئيدة، تنزّلت على ملامحهِ سحابة حبلى بفيض من الدُّموع. كان لا يزال يلهجُ بكلمات غامضة. حين صدّهُ الجدار، هوى أرضًا على مؤخّرته العارية. جلسَ القرفصاء وطفحت بدموعهما عيناه... نشجَ كطفل صغير، حطّ رأسه بين ذراعيه، وغاب في دوّامة من البكاء الهستيريّ. كانت عيناي تسافران بين المسدّس الرابض بيننا كجثّة وبينه. كنتُ في قرارة نفسي أعرف أنّ هذا الانخذال الفاضح، لا بدّ تعقبه انتفاضة لا تُبقي ولا تذر..

كان مستسلمًا للشجن، ينزفُ دمعًا كالأطفال، ويدهُ كانت ممتدّة

لشيئهِ يعبثُ به ويحرّكهُ بيأس، لعلَّ روحًا ما تنبعثُ في رماده... كانت فرصتي، إمَّا أن أغنمها أو أهلك دونها. أعرف أنَّ الرجل الشرقيَّ في مثل هذه اللَّحظات الحالكة، حين تُبتخسُ على مرأى منه رجولتهُ، قادر على اقتراف أشنع الآثام دون أن يرفَّ له جفنٌ، فكيف إذا كان فوق هواه الشرقيّ رجلًا مصابًا بفصام حاذ، وفي داخله تقبعُ أورامُ نفسيَّة شديدة الضراوة! زحفتُ صوب المسدَّس، لم ينتبه، بدا مغيَّبًا تمامًا، حتى في تلك اللَّحظات التي دنوتُ فيها منه، لم يصدر عنه ما يشي بأنَّه منتبهٌ أو كامل الحضور. أعتقد أنَّه كان في تلك اللَّحظة واقعًا في نفسه بين شخصين، كلُّ واحد ينازع الثاني على إدارة جسده وحياته. لم يطل بي التردُّد، هويتُ بالمسدَّس الثقيل على رأسه. توقَّف نشيجه، ثمَّ مال وانكفأ على وجهه، قبل أن يسيلَ من رأسه خيطُ دمٍ قاني، ثمَّ غاب عن الوعي.. غاب تمامًا.

الرسالة (٣)

من قاسم إلى جواهر

شتاء ١٩٩٦

«من أنا بعدكِ أيَتها البهيَّةُ؟

رحلتِ كنيزكٍ ضلَّ في السَّماء طريقهُ، ووجد في قلبي مشروع صدام، فرحتي بكِ لم تدم إلَّا عمرَ الشهقة التي تسبقُ الكارثة، لم تكد يدايَ تلتصقان بعناقكِ حتَى انفجرتِ، استحلتِ فجأةً نثارًا من نور هشُّ سريع الاضمحلالِ، وخلَّفتني بعدكِ مسربلًا بدمي أرفلُ في كفن الفجيعة.

ما حدث بيننا كان قدرًا لم نكن نستطيعُ تلافيه، بعض القصص، بعض الآثام لا تكاد عيناها تقعان عليكَ حتَى تتقفَّى أثركَ، لا تكلُّ ولا تملّ إلَّا إذا هي أوقعتكَ في أتونها، وذلك الحبُّ/الخطيئةُ الذي نتأ في القلب، على ظهر تلك السَّفينة، تلك اللوثةُ.. اكتشفتُ أنَّها ليست أكثر من صدى نفسي لصرخة عشق، صدحتُ بها في زمن غابر سقط من الذاكرة. أخطرُ ما في الإنسان هو تلك الآفاتُ التي تنام عميقًا في لاوعيهِ، والذاكرة كثيرًا ما تقتادنا دون أن ندرك ذلك، صوب ما تشتهي.. وأنتِ يا أجمل حافَة كنتُ أسير صوبها، كان قدرًا أن أحبَّكِ، كان قدرًا أن أعوّض بكِ حبًا انتكسَ في القلب، وحالت دوني ودونه استحالات جمّة! لو أنَّكِ ما كنتِ وقتها جواري في تلك السَّفينة، لحذفنا قدرًا كاملًا.. لو أنَّكِ فقط لم تلوّحي بمنديلك الأبيض لحبيبكِ المنتظر، لما ناغيتِ وجعًا ينام في باطن الرُّوح!»

«لطالما كنت مصابًا بدوار الخطر، وها أنا أدفع الثمن عن جميع الذين على غراري، آمنوا بأنَّ الحياة لعبة بلا جوهر» .

من رسالة انتحار
الشاعر اليوناني
كوستاس
كاريوتاكيس

«إنَّني أبدو مثل طفل يلعب عند ساحل البحر، ويجدُ من وقت لآخر حصاة ملساء أو قوقعة جميلة، أجمل من مثيلاتها، إلَّا أنَّ الحقيقة كلَّها تمتدُّ أمامي مثل محيط واسع عظيم، لم أكتشف منه أيّ شيء بعد».

بعض مما كتب
إسحاق نيوتن قبل
موته

قاسم

١٩ ١٠ ١٩٩٤

مقهى... على حافة البحر

سلّمني الميرُ مفاتيح المدينة قبل أن يُحال على التقاعد، نلتقي أنا وهو كلَّ صباح، نشرب فنجاني قهوة، وأصيخ السَّمع إلى حشرجة قلبه الذي تضعضع في هذه المدينة، يقول إنَّه مثلي حين جاء إليها، كانت تملأ جيوب عقله تلك الأحلام الطوباويَّة. لم أقل له يومًا إنَّني أحملُ بين جدران رأسي أحلامًا طوباويَّة، لكن يبدو أنَّ حماسي الزائد دفعه إلى هذا الاستنتاج. كان لا ينفكُ يردِّدُ على نحو ببغائيّ، أنَّ هذه المدينة لا تنقادُ إلَّا غصبًا، وأنَّ فيها طينةً من البشر الأنجاس، الذين إن أنتَ أبديت بعض التراخي، نهبوا من بين يديك المدينة، وأورثوك مشاكل بعدد شعرات الرأس.. كان الصلع يكادُ ينهبُ شعره كاملًا!

لم أكن أحفل كثيرًا بكلامه. رأسي كان محشوًّا بضجيج من الخطط، أفكار شتَّى لا يلمُّ شتاتها سوى أمر واحد، قمع هذه المدينة المحنة.. كان واضحًا أنَّ المدينة قد استجلبت إليها بسبب المير وتراخيه أسرابَ المناضلين الحالمين بالثورة، أوَّل ارتطامٍ لي بهم كان حين خرجت لحصار مظاهرة خرجوا بها، كانوا ينادون بأشياء تافهة لا أتذكَّرها. حين أمرَ المير بفضِّ احتشادهم، أبدى جنوده تماطلًا واضحًا، كان من نتائجه أن شجَّت هامتي حين أمطرونا بوابل الحجارة صخرةٌ صلدة؛ أمَّا حين جرَّ الميرُ إلى الأقبية بعضهم، فقد رأيته، رأيتُ وجهه المتخشِّب، ثيابه المتعفِّرة ويديه المعروقتين، كانت تطوِّقُ جيدهُ كوفيَّة شاميَّة، هو نفسه حبيب حبيبتي التي أضعتُ في هذه المدينة... فكَّرت أن أجالسَهُ، أن أستنطق قلبَهُ لعلَّه يفضي إليَّ بما يطفئ لهفتي إليها، فكَّرت أن أجلسَهُ على زجاجة مشروب غازيّ حتى تتفجَّر مؤخِّرته. كانت تملأ رأسي أفكار كثيرة، لكنَّني سرعان ما أهملتُها، صوت ما في أعماقي يقول بأنَّ ألعاب القدر لن تعدم صدفة تدفَعُها إليَّ، والأفضل أن أتريَّث..

لم أكن أنتمي للكائن البشريّ، وربما لا أزال. في البدء، كان الإحساس حادًا مزعجًا، كنتُ كلّما أهملتُ هذه الحقيقة زمجرت داخلي، وحدها تلك الأحاسيس الدافئة التي أستشعرُها وأنا أستعيدُ ملامح تلك الفتاة تصلني بإنسانيَّتي، استعدتُ حياتي ربما كانت قد استهلَّت في زمن آخر على وجهها، فاستعصى عليَّ أن أخرجها من ردهات ذاكرة بكر لا تملأ رفوفها إلَّا شؤون عسكريَّة، لا أدري كيف أو متى انغرست شتلاتها في البياض،

اقتحمتني دون أن تدري في زمنٍ ما كنتُ فيه محصَّنًا ضدَّ الهزَّات الكبرى، كنتُ وليدًا يلتمس بإيعاز من الغريزة سبيلًا إلى حلمة، فإذا بي أرتطم بها وأتبنَّاها أمًا وحبًا وأبًا وكلَّ شيء.. لا أتعسَ ممَّن يطالب نهد الحبيب بحليب البدايات، ولا أشقى ممَّن تجدُ في طريقها من يتعلَّقُ بتلابيبها مطالبًا فوق الحبّ بالأمومة!

مربوط بها كنتُ بحبال من وهم شفافة لا تُرى، لكن حين يهربُ بها البعيد، حين تجفلُ وتديرُ لي ظهرها وأيَّامها، فإنَّ القلب لا ينفكُّ يسحبُني إثرها، ولم أكن آدميًا بما فيه الكفاية لأفهم تعقيدات العلاقات الإنسانيَّة وأفكَّ طلاسمها. في البدايات، في الطفولة الثانية، كنتُ طفلًا، لم يملك وهو يفتَحُ عينيه على دمية كبيرة كاملة البهاء سوى أن ينشُبَ فيها أصابعه، ويضربَ عليها طوقًا يستحيل بعده تخليصها منهُ دون تمزيقها..

ولم أستجد منَّة الغيب، لم أحفل بالبحث عنها، كنتُ مطمئنًا في أعماقي، إلى ظنٍّ يقضي بأنَّ القدر لا بدَّ أن يصوّبها نحوي أو يقتادنا معًا إلى كمين، ولم يطل الأمر، قبل أن يوعزَ إليَّ المير باستنطاق حبيبها، حبيبها سيمون. كانت تجأرُ بصوتها خارجَ مقرّ الشرطة، هي وبعض صويحباتها، مطالبةً بالإفراج عن المعتقلين السياسيِّين.. لم أحفل باستنطاقه بعد ذلك، أوعزتُ لغيري بالمهمَّة، والتجأتُ إلى زجاج النافذة أراقبها، كنتُ أحاولُ عبثًا أن أجلوَ الأسباب التي دفعتني إلى أحابيلها، بعد ذلك اليوم العنيف الذي استفقتُ فيه على عنفوان جمالها، انسكب حبُّها فيَّ، ملأ أوردة القلب وغمر تلافيف ذاكرة طريّة.. رأيتُ بعدها الكثير من الجميلات، بعضُهنَّ أجملُ منها، لكنَّ أمرًا ما بالغ التعقيد كان يحرِّضُني عليها.. تراه الحبُّ؟ لا أدري.. كنتُ آلةً، آلة من لحم ودم، برمَجتها يدُ آثمة على أن تؤدّيَ دورًا ما، فإذا هي يد الغيب نفسها توقظُ فيها دفء الحبّ الملتبس بالأمومة..

ما كان يجدر أن أفعل بقلبها الخرب ما فعلتُ، لكنَّها الأيَّام تحفُّنا بحتمياتها العصيَّة، ولا تترك لنا مندوحةً عن الوقوع في فخاخها. كان يمكن أن نتجنَّبَ قحط مصائرنا، لو كان الربُّ أرأف، كان يمكن ألا يزرعها أمامي في ذلك اليوم الذي أفقتُ فيه على ظهر السَّفينة، كان يمكنُ ألَّا أتورَّط فيها لو أنَّها لم تحمل بين أصابعها ذلك المنديل وتلوَّحَ به، لو أنَّ وجهها لم يلبس اللَّهفة، لو لم يصدر عنها شيء ما غامض كان يمكن ألَّا تقدح العاطفة داخلي، لكن، يبدو أنَّنا لا نسيرُ دائمًا إلى حيثُ نشتهي، الكمائن معدَّةٌ سلفًا، مثلما تزرعُ المعلِّمةُ الكلمات نقاطًا وتطلبُ من الصغار أن يتقفَّوا ما بين النقاط بحبرهم ليشكِّلوا الكلمة، كان الربُّ يخطُّ مصائرنا التي لا فكاكَ منها،

مصائرنا التي مهما بالغنا في التمرُّد عليها وجدنا أنفسنا في الأخير منقادينَ لها دون أن ندري!

كانت جميلة وهي تصدحُ بتلك الشعارات المستفِزَّة، جالت برأسي أفكار كثيرة. لكن حين اقتحمَ عليَّ المير خلوتي واستشارني في ما يجدر القيام به، وجدتُني أهديها حبيبها، التمستُ من المير أن يفرج عن «سيمون» ويعذِّب الباقين.. لا أدري لماذا التبسَ بي الخبلُ مرَّة أخرى، منذ أن دفعتني تلك الجميلة إلى الانتفاض على دوري في الحياة، وصوتُ ما في أعماقي يقرِّر نيابةً عنّي، يقرِّر دون استئذان! تراهُ الحبُّ؟ لعلّني لم آمر بإطلاق سراح حبيبها، إلّا لأنَّ شيئًا ما في أعماقي، شيئًا بالغ الشحوب، كان يودُّ لو أنَّ تلك الفتاة تختفي من حياتي ومن هذه المدينة التي جئتُها غازيًا أتأبَّطُ الضغينة. في أعماقي، كنتُ أضمرُ شرًا. كان الحبُّ داخلي نشازًا واهيًا، أشبه بأنين خافت يطمسه ضجيج الأحقاد الغامضة..

دفعتُها بعيدًا، إذ أسلمتُها ضلوع حبيبها المتداعية. راقبتُها تهرب به، كان جثَّة انتزعتُها من بين أنياب المير، منظرهُ وهو يتّكئ عليها وهما يمضيان ظلٌّ موشومًا في الذاكرة، كان يسعلُ على نحو متقطِّع، وكنتُ أتساءل إن كان سعاله يزيدُ من ثقله! لم أكن أحقدُ عليه، رغم أنَّه حبيبُها، رغم أنَّه كان يبدو أنَّها مثلَهُ تحبُّه، وأنَّ بينهما قصَّة عشق عنيفة. حيالهُ كنتُ أستشعرُ خليطًا من المشاعر المبهمة، لا مكان للحقد بينها...

لِمَ أمرتُ بإطلاق سراحه يومها؟ ! ولماذا أمرتُ بذلك مرَّات ومرَّات كلَّما رأيتُها تصدحُ باسمه مطالبةً بالإفراج عنه؟ لماذا آثرتُ أن أمنحهُ سراحًا لا يستحقُّه؟ كنتُ دون أن أدري أدفع عنّي جثَّتهُ المرَّة تلو الأخرى، وكانت الجثَّة نفسُها ترتمي برعونة على مديةٍ في يدي!! لم أشأ أن أذبحهُ بها.. لم أكن مؤهَّلًا للحبِّ ولا جديرًا به، لكنَّني كنتُ مصوَّبًا كرأس نوويّ لأدمِّرَ ما بينهما..

ورغمَ أنَّ الأقدار أنضجت لنا أكثر من موعد إلّا أنَّني أبديتُ مماطلةً، راقبتُها من بعيدٍ كمراهقٍ خجول. اعتُقِلتُ أكثر من مرَّة في المظاهرات، واحتجت أكثر من مرَّة مطالبةً بإطلاق سراح حبيبها. كان اسمُها جواهر، طار قلبي مسافات في الفضاء حين ظفرتُ باسمها، لم يخطئ اسمُها ولا من سمّاها، كانت أكثر من جوهرةٍ واحدة، كانت جواهر..

جواهر مدرِّسةُ اللُّغة الفرنسيَّة، أكبرُها بخمس سنوات وبضعة أشهر، هي واحدة من أهمّ رؤوس الفتنة في المدينة، ملفُّها الذي وقع بين يديَّ كان حافلًا بالتُّهم والاعتقالات. دخلت سجن المير كثيرًا وعُذِّبت استنتجتُ

ذلك رغم أنَّ هذا الأمر من الأشياء التي لا تفصح عنها الأوراق في سجنها الخامس، والذي تطاول أكثر ممَّا ينبغي. أضربت عن الطعام. عشرون يومًا وهي مضربةٌ عن الطعام، حين لفظتها الزنزانة تقول الصُورة التي اعتقلت وضعها وقتذاك كانت أشبه بقطّة أسقط لحمها دستة قطط صغيرة، انسحبت منها وتركتها جلدًا على عظم.. تمَّ ترحيلُها إلى فرنسا قسرًا، لأنَّها كانت على حافَّة الهلاك، ولأنَّ المير لم يكن يريد أن يهبَها شهادةً تؤرِّخُ اسمها في ما يعتقلهُ التاريخ الموازي من أحداث، هذا التاريخ الذي يسعى المير بشتَّى الطرق إلى إعدامه. بعد سنتين في المنفى، سيأذنُ لها النِّظام هي وزمرةٌ من رفاقها بالالتحاق بأرض الوطن.

سنةٌ كاملة، وأنا أماطلُ وأهملُ مواعيدها الكثيرة.. سنةٌ كاملة مرَّت ثقيلةً على إيقاع سياسة المير الرتيبة.. يتظاهرون ويعتقلهم، يحتجّون ويضربون عن الطعام ويطلقُ سراحهم، وهكذا دواليك.. أسطوانة مشروخة تعاد باستمرار، قبل أن يترجَّلَ الميرُ عن مكتبه بكى، حتى بلَّت الدُموعُ شاربَهُ المفتول، وقال لي كلامًا سيظلُّ منقوشًا في الذاكرة قال:

فقط، لو لم تكن أنتَ... هذه المدينة لا تستحقُّ أن يرميَها الربُّ بكَ، أنتَ.. لستَ آدميًا، أنتَ آلةٌ، آلةٌ باردةٌ، قفصٌ من لحم ودم، خال من أيّة روح حقيقيّة..

ثمَّ تمعَّرَ وجههُ وبدا عليه السَّخطُ الشديد، وكان ليتمادى في كلام غير مشذَّب قد يصل حدَّ السبّ لولا أنَّني نهرتُه. الغريبُ حقًّا أنَّه انتهى إلى حقيقتي، دون أن يبدرَ منّي ما يشي بكلّ ما يعتورُ ذاتي من علل، تراني أحمل الشرَّ في ملامحي؟ لست أدري.. فيما بعد، أمرتُ باعتقاله. هذا الرجل الذي عذَّب المدينة أو كان يظنُّ أنَّه عذَّب المدينة لفَّقتُ له كمشة من التُهم، وتركتُه يتخبَّط بين الجدران التي طالما دخلها جلّادًا. حاولتُ مرارًا أن أستنطق خزيهُ الفاحش وأعصابه المتهالكة، كان يفصح عن ضباب كثيف من الكلمات، لا يبينُ أصله من فصله، كان يبدو أنَّه يعرف شيئًا ما عنّي، شيئًا عميقًا لا أعرفه. أجلستُ الميرَ على زجاجة الخمر حتى انفلقَ دبرهُ بأكثر من جرح، اعتصرتُ في فيه منشفةً قضت ليلةً كاملةً في دورة المياه، ولم يعترف! وفي الأخير، تركتُه يتعفَّنُ إلى جوار برازه... كانت المدينة كلّها تتندَّر بالاندحار المأساويّ للمير، وتتوسَّمُ في جلّاده خيرًا. كان إذا أتى ذكرهُ على لسان أحدهم يردف كلامه بمثلٍ سائر:

«باش قتلتِي باش تموتْ.. يا ملاك الموت»

صرتُ بعد تقاعد المير مكشوفًا للجميلة جواهر، انهدمَ ما بين

المراهق الخجول ومحبوبته من جدران، كضمتُ لهفَتي إليها عامًا كاملًا يا ليلى. في قعر ذاتي، كانت تستلقي أمنيةٌ شاحبةٌ، أن يفرَّ بها البعيدُ أبعد من هذه المدينة الآسنة، كنتُ قطارًا مجنونًا وكانت دميةً ينام جيدها على حافَة السكة.. كنتُ أمشي في حياتي كما على شريط العرض تسيرُ عارضة أزياء في بروفا اختباريَّة؛ وأنا أمثِّلُ دوري المنوطَ بي، كنتُ أشعر أنَّ ما أعيشُه غير حقيقيٍ، أنه ليس أكثر من تدرُّبٍ مملٍّ على حياة، لا بدَّ وأن أعيشها في ما بعد..

كانت الحياةُ تدفَعُنا جميعًا إلى حلبَتها، وتطالبُنا بما لسنا نطيق: القتال... عند أوَّل حرالٍ لهم بعد تقاعد المير، خرجوا في مظاهرة سلميَّة، أرسلتُ لهم فيلقًا بدَد تجمهرهم، وعاد بجراحٍ كثيرة.. سرتُ إليهم ليلًا، التقطتُهم من منازلهم واحدًا واحدًا، وملأتُ بهم الزنازين.. على مهلٍ كنتُ أعدُّ لهم جهنَّم!

وحين قدمت هي ورفيقاتُها في الصباح يطالبنَ بالإفراج عن المعتقلين، تأمَّلتُها من نافذتي طويلًا، تصدحُ بالشعارات نفسها التي تعوَّدت أن تهبَها حبيبها؛ وحين ضاقت نفسي بضجيجهنَّ، انتقيتُها مثلما ينتقي عاشقٌ متيَّمٌ زهرةً في حديقة، وأمرتُ بسحق الأخريات..

كان قلبي يتأهَّبُ للقائها بخفقٍ مجلجل يكادُ صدري يتداعى له، رأيتهم يجرُّونها إلى موعدنا جرًّا وهي تتعنَّت، كنتُ قد تعنَّتُ قبلها عامًا كاملًا دون طائل.. لا بدَّ ممَّا ليس منه بدٌّ..

وكان اللِّقاء...

جواهر

٢٠ ٠١ ١٩٧٢

ملّاح ليكسوس

كثُر الحديثُ عن المير الجديد، كثرت التنبؤات والإشاعات التي لا ينفكُ يشحذها تواريه المتعمَّد. حبَّذ الرِّفاقُ تأجيلَ جميع الخطوات التصعيديَّة وسلكوا مسلك المهادنة، لا سيَّما بعد أن اعتقلَ سلفهُ، وأذاع بين النَّاس خبرَ تعذيبه له. التقطَ الرِّفاقُ هذه الإشارة باهتمام وهادنوا.. لكن مع مرور الأيَّام وأمام سياسة الأذن الصمّاء للمير الجديد، وإمعانه في التواري، وعدم تفاعلِه مع الملفّ المطلبيّ العمّاليّ، لا هو ولا كراكيزُ السياسة التي تتحدَّثُ باسمه، فقد قرَّر سيمون أخيرًا التحرُّك، كان لا بدَّ من جسّ نبض هذا المير الغامض، لم يكونوا يعرفون اسمَهُ ولا شكلهُ، فسمَّوهُ المير...

كلُّ من يديرُ أمن المدينة فهو ميرٌ، قال سيمون، وأضاف مبتسمًا، ليس بالإمكان أسوأ ممَّا كان. سعل سعالًا متقطِّعًا، ثمَّ قال إنَّ التنظيم كان على شفا العنف الثوريّ، لولا أنَّ المير تقاعد. أما هذا الميرُ الجديد، فواضح من خلال مواجهة اليوم أنَّه غرٌّ، لا يعرف بعد رعونة هذه المدينة. كان سيمون يتحدَّثُ بحماسٍ لا يطفئهُ سوى سعالِه المتقطِّع، يسرجُ أمانيه ويطلقُ العنانَ لأحلامه...

هو كان في تلك اللَّيلة خُشاشةَ بهاءٍ يكاد يُخمدها التعب.. وسيمًا وهو يتحدَّث عن طموحه الكبير، تسافرُ أصابعهُ في الجوّ، كأنَّه يستجلبُ بذلك أفكارًا لا أراها. كنتُ منشغلةً به عمّا يقول، وكانت عقارب السّاعة تنزلق بكسلٍ صوب الثّالثة صباحًا، اندفنتُ في حضنه كقطّة مشاغبة، وحين هممتُ بتقبيله, بالضَّبط في تلك اللَّحظة الهشَّة الكاملة البهاء، تلك اللَّحظة التي كما لو يكون القلب فيها في حالة سقوط، لحظة تلتقي الشفاه أو تكاد، انخلعَ الباب، باب الشقَّة التي نسكنها معًا، لم أفق من الدَّهشة إلَّا وهم يقلبون أثاثها رأسًا على عقب، ويسحبون سيمون خارجًا.. هكذا كان فراقنا، أنا وهو على قبلة مبتورة، كان ذلك البترُ أوَّل رسائل المير الجديد!

في الصباح، علمتُ أنَّ السَّوادَ الأعظمَ من الرفاق قد زُجَّ بهم في زنازين المير الجديد، أمّا الآخرون، فقد اختفوا كأنَّها انشقَّت ودفعتهم إلى أحشائها الأرضُ... تحرَّكتُ أنا وأخوات الفجيعة لتحرير رفاقنا، اعتصمنا كما جرت العادة أمام مقرّ الأمن، صدحنا بالشعارات، كانت الوجوه، وجوهُ رجال الشرطة الذين يحفُّوننا، يابسةً باردةً، غير تلك الوجوه التي عهدناها،

والتي كانت رغم حزم المير السابق تبدي لنا لينًا وودًا ظاهرًا، كان رجال المير الجديد أشبه بسياج بارد يطوّقنا، كلُّ شيء كان يشي بفجيعة ما، لكنّنا عنها غضضنا الطرف. وقبل أن يرسلَ الميرُ رجالَهُ لتشتيت المتظاهرات بعد أن ضاق ذرعًا بضجيجهنّ، أرسل في طلبي، طلب زبانيَتُه أن أرافقهم بودٍّ، لكنّني حين أبديتُ الممانعة، تمّ اقتيادي إليه بالقوّة. انتفضتُ، قاومتُ دون جدوى...

ودُفعتُ أخيرًا إلى مكتبه الكبير. مكتبٌ شاسعٌ بديكور عصريّ وأرائك منجّدة وثيرة، ولوحات معلّقةٍ على الجدران، شدّتني إليها لوحة تشذُّ عن النّسق الجماليّ لباقي اللوحات: لوحة **«إيفان الرهيب يقتلُ ابنه»** لإيليا ريبين (١٨٧٣)، كان يقف على مقربة منها ومن مكتبه، يواجهني ظهره إذ يتأمّلها؛ بدا مستغرقًا في التأمّل، تسرقهُ من حاضره اللّوحةُ الغريبة وصخب معزوفة **«كارمينا بورانا»** تندفعُ أنغامها من مكان ما من هذا المكتب الفخم الواسع...

كان غيرَ آبهٍ بأنّني حللتُ ضيفةً على مكتبه، انغلق الباب، وظللتُ أنتظرُ استدارتَهُ، كان قلبي يرتعدُ داخلي كأنّما هي يدٌ من وهم تعتصرُ حبالهُ، والفضولُ كان يعلنُ عليّ زغاريدَهُ. هذا هو الميرُ الجديد إذًا، رغم أنّ الموقف لم يفصح بعد عن وجهه، إلّا أنّني استنتجتُ أنّه شابٌ، كان قوامهُ وسوادُ شعره الفاحم يفصحُ عن ذلك، قال دون أن يستدير:

تفاديتُكِ عامًا كاملًا.. لكن يبدو أنّ الحياة تشاغبُني بكِ!

هزّني كلامه، وأمعنتُ في شرائط ماضيّ الصوتيّة لعلّها تسعفُ على تذكُّره. كان حديث عاشق، وسيمون عشقي الوحيد، لا سوابق لي قبلهُ، هو كلّ تاريخي، فتحتُ عليهِ قلبي وتعلّقتُ بحبّهِ. المدينة كلُّها تعرف قصّتنا، ولم يحدث أن نازعه عليّ أحد، فلماذا هذا الصوت النشاز، يقول غيرَ ما درجت المدينة على اعتباره حقيقةً، ثمّ من هو؟ ما أصلهُ؟ ولماذا يتحدّثُ بثقةِ ربٍّ يعرفُ ما يقول؟ لماذا يمعنُ في تحريض فضولي عليّ؟

أحببتُكِ قبل أن أعرف أنّ أقدارنا تضعنا على طرفيْ نقيض، وزّطني قلبي فيكِ قبل أن أعرف أيّ شيء، الآن، والأقدار تؤثّثُ لنا خشبة هذه المدينة، وترمي كلّ واحد فينا بدوره، صرتُ مطالبًا بأن أكونَ الجلّاد وتكوني الضحيّة، صرتُ مطالبًا بأن اعتصرَ داخلي كمشة لحمٍ رخوة يسمّونها القلب..

كان حديث عاشق متيّم طاعن في الخيبة، ولم تكن شفتاي تملكان

حروفًا تعالجُ نزفه. كنتُ واقفةً على بساط من دهشة، كأنَّ ما يحدثُ اقتصَّ من شرائط حياة ما لم نكن مهيَّئينِ لها بما يكفي، سرق ببوحهِ الكلمات من فمي قبل أن يهبني وجهه، اختطفَ انتصارهُ قبل أن تبدأ مباراتهُ. كنتُ أعدُّ له تشريحًا للنظام وفساده، فإذا بمشرط بوحهِ يشرّحُ على مرأى منّي وجعًا لا تصلني به صلةً.

حينَ استدار، لم أجد له في أرشيفات الذاكرة، حتى المغبرةُ منها، شبهًا. الحقيقةُ أنَّه لا يليقُ به لقبُ المير، شابٌ بادي الوسامة وإن كان في وجهه برودُ ما وحيادُ مريع، كلَّما بحلقتُ فيه وجدتُه ينكأُ ذكرى ما، كأنَّها متغلغلةً في القدم، لا أجلوها ولا أشعرُ وأنا أبحلقُ فيه بغير القلق، قلق ضاجّ، كأنّي في حضرة ملك الموت.. انفلقت شفتاهُ عن ابتسامة، ثمَّ قال بلهجةٍ صارمة:

مؤلمٌ بحقٍّ أنَّكِ لم تتذكّريني، سقطتُ من ذاكرتكِ مثلما من كيسها تسقطُ حبّة قمح..

يبدو أنَّك واهمٌ..

لا، أعرف ما أقول، ثمَّ إنّ هذا ليس موضوعنا.. الموضوع هو أنَّه يمكنُ أن أعقدَ أنا وأنتِ صفقةً..

أيّةُ صفقة؟

أن أفرجَ عن سيمون هذا وأن تغادرا المدينة، أن تبتعدا لخيركما بعيدًا. أحبُّكِ، لن أسرد عليكِ الأسباب التي وزّطتني فيكِ، لأنّني لا أعرفها، كلُّ ما أعرف أنَّ الربَّ قد قذف بشتلة حبّك في قلبي، عامٌ كاملٌ وأنا أسقيها بنظراتي، أتلصّص عليك، أطاردُكِ في خيالي، ثمَّ ألعنُ الدُّنيا وأتوارى عنكِ، بعد ما ينيفُ عن العام بقليل، صارت الشتلةُ دغلًا، وأنا.. أنا لا أريد أن تكتوي بناري. أمَيٌّ أنا في فقه المحبّة، طفلٌ أرعن لا أقبلُ بأنصاف الحلول ولا بتقسيط مشاعري، شيءٌ ما في أعماقي هو الخبث ربما، أو الحبُّ.. يقول إنّني إمّا أن أملُكَكِ أو أملّكَكِ خسارات الدُّنيا..

كان صوتُه يسيل انتحابًا بتلك الكلمات التي تنسحبُ من قلبهِ مضرَّجةً بدم لا أراه... كان يبدو صادقًا حدَّ الوجع، وكنتُ خائفةً، أكثر من خوفي، والكهرباء تقرضُ لحمي في الأقبية المظلمة، مذعورةً أكثر من ذعري وأنيابُ النِّظام تتوغّل بعيدًا في جسدي. أشعرني بكلامه أنّني على حافّة قيامة، وأنّي لن أغادرهُ إلّا إلى حفرةٍ في الأرض. كان وهو يعلن عليَّ حبَّهُ، لا يستأذنُ، يزرع مع الموسيقى التي تفاقمُ خوفي اليقينيّات أمامي،

يقول كلامًا كأنّه القدر، لم أكن مهيّأةً لكلّ الهبلِ الذي اندلقَ من فيهِ.. فكّرتُ بسيمون، فكّرتُ بتهالكِ جسده، بالسعال الذي لم يبرحهُ منذ زمنٍ بعيد، وأخيرًا فكّرتُ في عرضه.. لو لم يكن عاشقًا حقيقيًا، لما اقترح علينا أنا وسيمون الرحيل!

لا يمكن أن نُسلّمَ له المدينة ونغادر، ولو أذعنتُ، أنا لا بدَّ أنَّ سيمون لن يذعن، هو الذي أحبَّ هذه المدينة حبَّ انتماء. وحين نادت تلك السَّفينة الإسرائيليّة الضخمة بالرحيل، ثمَّ حين سرقت كلَّ أهلهِ، تشبّث بأرضها كأنّها أمّه التي أنجبتهُ! قلتُ:

من أنت؟

أنا.. لا أدري حقًّا! أنا من على ظهر السَّفينة، غرستِ نصلكِ في قلبه، وعلّقتِ على وجهكِ بسمةً قبل أن تهربي إلى عناق حبيبكِ.. أنا يا سيّدتي من أخرستهُ فرحتُهُ باكتشافكِ، فتقفّى أثركِ أنتِ وحبيبك، وهو لا ينفكُّ يلهجُ بالعبارة نفسها.. «أحبُّها». الحقيقة، أنّ قواميسي كانت جافّةً، وما ملكَ القلبُ سوى ذلك الإحساس الذي يلتصقُ بزفراتي الحرّى، فتخرجُ تلك الكلمة اليتيمة التي حرّضت عليّ حبيبكِ فأوسعني ضربًا... تذكرينَ الآن؟!

تمشّى في روعي كلامه باردًا كسيفِ الثلجِ، يمخرُ عباب الذاكرة دون أن يذوب، ناغى بكلامه تلك الذكرى التي خلتُ أنَّ النسيان في أتونهِ أسقطها، قلتُ بصوت مضطرب:

أذكرُ.. أنتَ مجنون...

وكابدتُ دوخةً غريبةً، لا هي لذّةً كاملةً ولا هي حزنٌ كاملٌ، لحظةً عامرةً بدهشة من يرى الدُّنيا لأوّل مرّة أو لآخر مرّة:

هل تنتظرُ من رجلٍ عفّرتَ كرامَتهُ غيرَ أن يوسعكَ ضربًا؟

ولذلك استسلمتُ له، لا أشتهي أن أسرُقكِ منه، لذلك أريدُكِ أن ترحلي به بعيدًا. الرجل حفنةُ عظام أنهكَهُ المير، وسرق من عينيهِ الأمل ونهبَ من قلبه الوطن والحلم. وأنا.. أنا جئتُكم بجهنّم.. لأنّي أحبكِ، أريدُكِ أن ترحلي، إن لم يلفظك هذا الباب إلى البعيد، فإنّي لن أرضى إلّا بكِ. سأسعى بدماري خلفكِ، لن آبه بمن أدميه في سعيي المهبول صوبك... ولن أرتاح إلّا حين أظفرُ بكِ، في الطريق إليكِ سأهرسُ كلَّ يدٍ تمتدُّ لتستوقفني..

كما موسى ألقى بين السحرة عصاهُ، ألقى في روعي هذا الشابُّ

كلماته، فإذا هي حيَّةٌ تلتفُّ على القلب وتعتصره، ألقى كلامه وشقَّني نصفين، نصفًا يشتهي أن يفرَّ بضلوع سيمون وسعاله بعيدًا، وآخر يتشبَّثُ بهذه الأرض التي أنتمي لها. كان صديدُه النفسيُّ صادقًا حدَّ الوجع، وفي عينيه كان يقدحُ بريق حادّ، كأنَّما هو دمعة، لكنَّها لا تشبهُ أيَّة دمعة أخرى، كان واضحًا أنَّه لا يملكُ شيئًا ليخسره، قلتُ وقد نتأ السؤال في البال فجأةً، ودون سببٍ واضح:

متى كانت آخرَ مرَّة بكيت؟

لا أتذكَّرُ أنَّني بكيت، لكن يحدثُ أن أكون قد بكيتُ في زمنٍ ما لا أذكره، الحقُّ أنَّ أشياءَ كثيرة لا أعرفها عنِّي..

قال ذلك ببلاهة طفلٍ، كان في عينيه عرامةُ طفولةٍ بالغة الغرابة، لا يليقُ بهذا الشابّ أن يكون «ميرَ» المدينة، يبدو أنَّ جنونًا ما يسكنُه، ويبدو كذلك أنَّهم لم يرسلوه إلى هذه المدينة العصيّة على الحكَّام إلَّا بعد أن تأكَّدوا أنَّه سلاحُ دمار، وقفت بي الخيبةُ وكلامه على خيط أمضى من سيف، وكلُّ جهةٍ أميلُ عليها تحتملُ خسارات جمّة.. لا مناص من أن أهبَهُ الخيار الذي لا يشتهي. رأينا أنا وسيمون الويلاتَ من أجل هذه المدينة، ومن الجبن أن نهبَهُ مفاتيحها دون قتال شريف، تعوَّدنا أنا وسيمون على مقارعة النُّظام، ما يزعجُ حقًّا هو تلك العاطفة الهوجاء التي يزعمُ أنَّه يكنُّها لي.. قلتُ بيأسٍ:

لا يمكنُ أن نرحل.. هذه المدينة تعني لنا، أنا وهو، الكثير، تعني كلَّ شيء، ولا يمكن أن نغادرها إلَّا إلى ترابها. يمكن إن كنت تجدُ في وجودنا إيلامًا أن ترحل، هذه المدينة طالما استعصت على الغزاة...

أحبُّكِ يا جواهر..

وأنا لا يمكن أن أحبُّك يا...

وارتبكتُ لا أعرف له اسمًا أسعفَ ارتباكي قائلًا:

قاسم جلال ...

لا أحبُّك يا قاسم، ولا أعتقد أنَّني سأفعلُ، ليس لأنَّني ملتزمةٌ عاطفيًا وحسب، بل لأنَّك تنتمي إلى الطرف الفاسد في هذا الصراع.. ثمَّ إنَّ ابتناء العواطف البشريَّة لا يكون تحت التهديد، تخونُك ظروف إنضاج شعور داخليّ غير الخوف.. أنتَ لا تبدو بشريًا بما يكفي، تبدو من لحم ودم، لكنَّ برودًا ما فظيعًا يلبسُ وجهك. أعرف أنَّ لقاءً بهذا القصر غيرُ كافٍ لأحكمَ

عليك، لكنَّني قلتُ ما قلتُ بتحريضٍ من شعورٍ داخليّ، شعور مبهم داخليّ.

ألا يقول لكِ الشعور ذاتهُ أنَّ قطعة الحديد أمامك تستبطنُ بقيّة دفء تقاوم الانطفاء؟ ألا يقول لكِ الشعور نفسه أنَّكِ الخيط الشفّاف الذي يصلُني بآدميّتي؟ حين رأيتُكِ أوَّل مرَّة على ظهر السَّفينة، تأكَّدَ لي أنَّني أحملُ قلبًا مارقًا لا سلطان لي عليه، أهملتُ ضجيجَهُ عامًا كاملًا، كلَّ يوم ينخُسني بميسم ذكريات باهتة وأحلام طالما منّيتُ بها نفسي.. أعرف أنَّني لستُ أكثرَ من عاشقٍ يتعلّقُ بتلابيبكِ، لكنَّكِ تعنينَ لي كلَّ شيء..

تبالغ.. كلامك شطحاتُ مجازٍ لا غير!

بل نزفٌ صادقٌ، ثمَّ إنَّني لا أسعى إلى إقناعكِ بعواطفي ولا ألزمُكِ بي، أقصى ما يرجوهُ رجلٌ مثلي يعرف عاهاتهِ النفسيَّة جيّدًا، أن أنأى بكِ عن شططِ مصير تعدّنا له الأقدار.. لي حالاتٌ سوداء، لا أكون فيها أنا تمامًا! وهذا العاشق الذي يعبثُ بجرحهِ قد يستحيل غدًا أو بعد غدٍ ماردًا، أشتهي أن ترحلي لئلّا تري المسخ الذي يربض في أعماقي..

رحيلي استحالة...

قلتُ بلهجةٍ حازمةٍ، وانتصبتُ واقفةً أهمُّ بالانسحاب، قال بيأسٍ، كان في وجهه غلالةُ حسرة حقيقيّة:

أحبُّكِ... بهبلِ الدنيا سأحاربُكِ لأظفرَ بكِ، بعض الحرائق لا بدَّ منها، هذه الأرض الآثمة أعدَّتنا للتراجيديا، قدركِ أن تتشبَّثي أنتِ وحبيبُكِ بهذه المدينة المغروسة كوتدٍ على خاصرة المحيط، وقدري أن أقتلعَ كلَّ مارق فيها وأخضعها لسلطاني.. أحبُّكِ، ما أتعسها من كلمة! تذكَّري أنَّ أبوابي مفتوحةٌ أمام توبتِكِ، وأحضاني مشرَّعةٌ لعناقكِ متى عنَّ لكِ أن تنتمي إليّ، سأكون سعيدًا لو تفعلينَ وأسعدَ لو ترحلين..!!

مجنون..

وسحبتُ الباب خلفي، فصفَّق مجلجلًا، ومضيتُ. كانت تلوبُ إلى ذهني أفكار شتّى، والقلبُ كان يطفحُ بسيلٍ هادر من المشاعر المتباينة، لعلَّ أكثرها شغبًا إحساسٌ بالإعجاب لم أستمرئهُ، لكنَّني كذلك لا أدري كيف جاس خلال قلبي، حاولتُ في الطريق إلى المنزل وأدَ هذا الإحساس دون جدوى. الحقيقة أنَّ هذه اللوثة تناسلَت داخلي منذ ذلك اليوم الذي تقمَّص فيه دور مجنون وتقفّى أثرنا أنا وسيمون، وهو لا ينفكُّ يذرفُ مرَّة تلو أخرى الكلمة نفسها. جرثومةٌ ما تقبع داخلي، غوايةٌ غذَّيتُها اليوم بنزفه الممض..

غادرتُه، لكنَّ كلماته لم تغادرني، كلَّما ابتعدتُ تورَّمت وتضخَّمت داخلي، و«**كارمينا بورانا**» كنت كما لو أنَّني لم أخلفها هناك، أو كما لو أنَّني أحمل ضجيجها داخل جدران رأسي... لا أتعَسَ ممَّن تلتقي «آلهةَ القدر» وقد حلَّت في جسدٍ بشريٍّ... آهٍ.. كان ينثرُ في حضرتي كلامًا، كأنَّه وحيٌ منزَل، ويؤثِّثُ ما يُستقبَل من أيامنا بحديث كأنَّه القدر...

الرسالة (٤)

من سيمون إلى جواهر

ربيع ١٩٦٩

«كلُّ حبّ في مدينة تحترف النميمة وتنام على تناقضات الدُنيا أجمعها هو مشروع حرب بلا هوادة. العشّاق، العشّاق في هذه المدينة ولو كانوا من ديانة واحدة منذورون للشقاء، لا يكاد ما بينهما يفقس حتى تسحقَ أحذية الواقع الخشنة أحلامهما، وتخلّفُ عواطفهما خبزًا بعد عين! مدينة أقصى ما تتمنّاه الحبُ وأكثرُ ما ترفضُه الحبّ!!

جواهر.. يا من ملّكتكِ القلب والروح، فلتغفري. سقطُ أيّامك طفلة بريئة صوب حرب طاحنة، وفاءً لتلك الأحاسيس الدّافئة التي تملأ قلبكِ. خسرتِ كلّ شيء، مقطوعةً أنتِ من شجرة هربَت بها الغربة، لا أهلَ للكِ ها هنا إلّاي. لم نهدأ حروب هذه المدينة، لم يهدأ أهلوها عن قرض سيرتنا إلّا بعد أن تمّ تجريدُنا من كلّ ما نملك. وقتها، بدل أن ألتفت بعين العطف إلى جرحك السريّ، بدل أن أمنحك فرحًا يليقُ بصبرك على الحياة والأحياء، وجدتني أستدرجك إلى حرب أخرى لا تقلُ ضراوة...

ما كان يليقُ بكِ النضال ولا بي، كان يجدر بعاشقين نفضا عنهما غبار حرب ضروس أن يترجّلا عن الطرقات الوعرة، ويمهلا القلب ريثما يستعيد انتظام خفقه، ويستهلك غنائمه التي حارب من أجلها، كان يلزم بدل أن نتورّط في حرب أخرى أن نمهل أرواحنا فرصة كنس خيباتنا، كنّا نستحقُّ فرحة وألف عرس، لكنّ الحرب لم تكد تنتهي حتى أنضجت حربًا تتخثّرُ لها الدماء في الشرايين؛ وورّطتُ نفسي وورّطتُكِ فيها، انتقالكِ الميرّ، جنرال المدينة وربّها المزّيف من بين المتظاهرين ضدّ سلطانه.. انتقالكِ كوردة في حديقة، وزجّ بكِ في أصيص زنزانته المتيبّسة، ترك روحكِ للعطش، وخلّفَ ببن قحط الجدران جسدكِ يجفّف من دمائه والأمل.

بدأ الأمر إشاعةً، وانتهى بجريمة قتل وطرد وتهجير!

لم نكن وحدنا من افترشت لهم المدينة جمرها، ودفعتنا بنادق الشائعات إلى السيرِ حفاةً، أهلي وأهلكِ مثلنا عضّت سيقانهم فخاخ الشائعات، وأربكت وقفتهم ونكّست هاماتهم بين ناس لا ينفكّون يتطلّعون إليهم بازدراء وشماتة، النّاس لا يرحمون حين يتعلّق الأمر

بقصص حبٍ آثمة ومدانة، يطيش كلامهم كرصاص عشوائيّ في كلّ اتّجاه، رصاص أخطأنا، لكنّه أصاب من نحبّ، أصابهم في مقتل.

والدكِ لم يتحمّل شائعات كأنّها حفنة دود تنهش ظهره، أعطبت حياتَهُ، وتحالفت مع حلاوة دمه الزّائدة. كان داءُ السُكريّ آفته، فسقط كسيحًا لا تكاد حلاوة دمه تقلُّ حتى ترفعها إلى السقف كلمةٌ طائشة تشيرُ إلى اعوجاج سيرة طفلَتهِ المدلّلة. إلى أن جاء اليوم المشؤوم الذي أخرست حياتَهُ الأقاويل، ثمّ شردت بعدَهُ عائلة بحالها، ساقتهم صوب تغريبة ما كانت في الحسبان درءًا لمصائب أعظم.. أمّا عائلتي، فلم تكن أفضلَ حالًا، حفّتها الشائعات المعتّقة، وكلمات التقريع واللّوم القاسية التي لم يكن يتورّعُ الحاخامات عن بذرها في كلّ اتّجاه، حين نادت سفينة الموساد بالتهجير، ومنّث بالأرض الموعودة كلَّ اليهود، لم يجد أهلي مندوحةً عن الرحيل. كانت جذورهم غائرةً في رحم هذه الأرض، لكنّهم اقتلعوها. لم يجدوا، والمعاولُ تلتمع في السّماء وتتقصّدهم، سوى أن يسحبوا جذورهم ويبحثوا لأنفسهم عن غربةٍ قد تُنعشُ ما تيبّس فيهم!»

قاسم

١٩ ٠٣ ١٩٩٥

عيادة الدكتورة ليلى

أعلمُ يا ليلى أنني أدميتُكِ، لكنَّ بعض التَّجارب لا يصعبُ تلافيها، ولي تارات أضيع فيها منّي، ويتلبَّس بي ذلك الصوت.. ذلك الصوت الجافُّ الخشن كجرف صلد، يسرق منّي بوصلة الإرادة ويُربك إدارتي لجسدي، فأجدني أنصاع لصوته مرغمًا.. لو فقط تعلمين أيَّة بشاعات دفعني إليها هذا الصوت! حياتي منقوعة بآثام لا حصر لها، ويداي.. هاتان اليدان التي لا يُسعفُهما الآن حراك.. كم عنق اعتصرتا حتى الموت، كم نهد اعتصرتا إلى حدِّ الفجيعة! كنتُ نصلًا تدبُّه الحياة، وترشق به من تختارهم من المغضوب عليهم والضَّالين..

ولم أكن أنا.. لم أكن في «أنايَ» بما يكفي، لأضمّخ يديَّ بسيل هادر من الدماء، لكنّها لوثة ما، لوثة بالغة الضراوة، أجدُ نفسي ممسوسًا بها من حين لآخر. لو فقط تعلمين كم وددتُ لو يشلُّ جسدي ترياق كهذا الذي حقنتِ بهِ أوردتي، أنتِ! **بهذا الشللِ رتَّبتِ موعدًا مع الحرِّيَة**، لأوَّل مرَّة أتخفَّفُ من هذا الجسد الذي أفقدُ زمامه.. آسف كثيرًا يا آنستي الصغيرة، يا آنستي الجميلة. أنتِ طبيبة، ولعلَّكِ تدركين أنَّ هناك مسافة بين الشخص الذي تعرفينهُ وذاك الذي هاجمكِ.. لا بدَّ أنَّكِ تستنتجين الآن أنَّني أستضمرُ فصامًا ما. «مستر هارفي» لا يتردَّدُ في مهاجمتي بهذه الكلمة التي يقول إنَّني أعيشُها...

ذكِّرني بمستر هارفي، يا قاسم..؟

مستر هارفي، هذا الشيخ الإنجليزيّ الذي يتعذَّرُ على مزيدٍ من الشيخوخة، جئنا أنا وهو إلى هذه المدينة العصيَّة، كنتُ في الثلاثين، تقول أوراقي الثبوتيَّة إنَّني كنتُ في الثلاثين من عمري، وكان رأس مستر هارفي.. كومة كبيرة من الشعر يزحف فوقها البياض يتخلَّلُها قليل من الوجه! أنف دقيق حاذ، جسدٌ يميل إلى الضمور، وطيش واضح، مثقَّفٌ جيِّدٌ لا يطلق الكلام إلَّا حكمةً، جئنا أنا وهو في السَّفينة ذاتها، فرّقنا الميناء ووحَّدتنا هذه المدينة. التصق بي بعد أن تسلَّمتُ مقاليد المدينة، قال إنَّه يعتكفُ على إنجاز بحثٍ موسَّع حول الشرق، طبعًا لم أصدّقهُ.. كان يحدِّثني دائمًا عن سهراتِه وخمريّاته وافتتانه بالجسد العربيّ الأسمر، أكثر من ربع قرن وهو يقيمُ في سهرة لا تنتهي، وكنتُ إذا سألتهُ عن بحثه يزعمُ

أنَّ هبلهُ جزء من البحث. أهملتُ سيرتَهُ، لكنَّه كان يتردَّد على مكتبي، حين تضطربُ المدينة وتشتعل حروبها، يلبثُ في مكتبي الساعات الطوال، وحين تربضُ أيّامها يغيبُ طويلًا...

مستر هارفي الوحيد الذي قال لي إنّني أكابد فصامًا لن يهادن إلّا حين يستوديني إلى الجنون.. لكن لم يحدث أن صدّقتُه، حكمتُ المدينة بقبضة من حديد، ليس لأنّني معتلٌّ نفسيًا، بل لأنَّ هذه المدينة لا يليق بها سوى الدّمار. لي حالات أغيب فيها عنّي، أكتفي بدور المتفرّج عليّ وأنا أرسل مخالبي دون رحمة في كلّ من أجدهُ في طريقي، لكن لا أعتقد أنَّ هذا يستوديني إلى الموت، مستر هارفي الذي عاش في بيئة أوروبيّة رخوة، وشحذت ذهنَه أفكار الكتب الحالمة، يحقُّ له أن يخاف الجنون، أمّا أنا فلا. دفعتني يد مجهولة في تلك السّفينة دون ماضٍ، والذين لا يملكون ماض لا يملكون أشياء ليخسروها، جانب من الحرّيّة الفجّة التي تؤهّلُ الفرد للجريمة يتحقّقُ حين لا يملك ما يخسرهُ!

وكنتُ، حتى قبل أن يفضي لي مستر هارفي بهواجسه، أعرف أنَّ علّةً ما تعتورِ شخصيّتي وتحرّضني على اقتراف أكثر الآثام دمويّة بدمٍ بارد، كنتُ أعرف أنَّ هناك إرادة ما مضادّة تنازعني على جسدي وتورّطني في ما لا أطيقُ، هي نفسها اللّوثةُ التي حرّضتني عليكِ، وقبلكِ حرّضتني على جيش من النساء... جواهر، تلك الرائعة، كانت الوحيدة الكفيلة بإقامة ما اعوجّ في شخصيّتي، لو أنَّ قلبَها لان، لكن مهلًا.. كيف يلين وهو في الأصل ليس ملكها..؟!

عذرًا يا ليلى، لقد أدميتُ قلبكِ، لكن لم يحدث أبدًا أن استدرجتُكِ، أو كنتُ، قبل أن يحدث ما حدث، أضمرُ لكِ أيَّ شرٍّ، كنتُ آنس لصمتِك مثلما آنسُ لصوتكِ، كنتُ دائم الاعتقاد أنَّكِ قادرة على تطبيبي.. لكنّني لسبب ما نفسي فقدت زمام نفسي، فكان ما كان. من حسن حظّك أنَّ رجولتي انتكست، وإلّا لمضيت بجريرتي وخلّفتُكِ مضرّجة بفضيحة، أستحقُّ هذا الشلل الذي حقنتِني به، بل وأستمرئهُ، وأشعر أنَّ مثلي جدير بأن ينفق ما تبقّى له من أيّامٍ في جبّة جسد لا يقوى على الحراك..

قالت جواهر ذات يوم بسخط، وكان ذلك بعد أيّام من هلاك حبيبها:

أنت يا قاسم.. لست بشريًا، أنت وحشٌ، بنوازع شرّيرة وقلب طيّب، عليك قبل أن تحسم حروبك مع هذه المدينة، حسمُ صراعك الداخليّ، يجب قبل أن يكون عدلك المزعوم في المدينة أن تكون أنتَ أوّلًا، يجب أن تحدّدَ أيُهما أنتَ.. الطاغية أم العاشق؟ الضحيّة أم الجلّاد..؟

كانت تلبسُ حِدادها، وتكرّرُ المرّة تلو الأخرى كلام مستر هارفي، وكنتُ منشغلًا عن كلامها بعينيها الجميلتين، أرفع رأسي وأحنيه مرارًا كدليل على مجاراتها، أذكرُ أنَّ قلبي كان يزغردُ لحظتها، لا أذكر أنَّ قلبي لم يزغرد في حضرتها.. حتى في تلك الأيّام السَّوداء التي كنتُ فيها أمعن في تعذيبها بحبيبها، كنتُ أتعشَّق بها من خلال أذيَّتها، كنتُ أعذّبها وأعذّب نفسي من خلالها.. كانت أيامًا طاعنة في البؤس، على أنّنا لم نعدم البهجة، جرى بيني وبين جواهر شيء جميل، كأنّه الفرح:

الفرح؟!

نعم يا دكتورة.. يمكن أن يؤخَذ الفرح اغتصابًا!

في كلّ نفس لوثةٌ قابعة في الأعماق، كلُّ إنسان حين تكشطُ عنه طبقة المثاليّات الزائفة والأخلاق المزعومة، هو شرٌّ خالص، شرٌّ نائم.. أرقده بسحره الربّ في أجداث أجسادنا، وحدها قبلةٌ فاسقة من فارس توغِّل بعيدًا في أتون الشرّ كفيلةٌ بأن تعرّي سوادَ الأعماق، وقد حدث يا ليلى، حدث أن عرّيتُها، حدث أن أوقعتها في شرك السَّواد..

مستر هارفي يزعم أنَّ سقوطها نزوة، نزوة عابرة، وأنا أقول إنَّه العشق، العشق الخالص، أمَّا جواهر، فتقول: هي تجربة، هي تجربة!

كانت تحملُ لوثةً، وكنتُ أملك مفاتيح تحريضها، فكانت الخطيئة، «أمرُّ الخطايا وأجملها تلك التي تستودي سفن أيّامنا صوب الجروف الناتئة، وتهبُها بتحطيمها الراحة المنشودة بعد وعثاء سفر لا ينتهي..»، تقول جواهر وتضيف وهي تشعل سيجارة من أخرى (كان التدخين آفَتها) «المجدُ للخطايا.. معلّمة البشريّة.. المجدُ لأرواح شحبت ليعمَّ الخصب الجسد.. تقبّل أيُها الشيطان توبة جسدي.. أعقدهُ في مياهك الضحلة لئلّا يموت ذُبولًا..»، وترقص بعد أن تعرك سيجارتها في المنفضة، ترقص إلى أن تسقط عنها أبجديّتُها، وأحسُ أنا بفداحة الكفر الذي هيّأتُها له. حين ترقص جواهر، فإنَّ الكون يتوقّف، يضع ساقًا على ساق ليشاهدها، حين ترقص جواهر فإنَّها تتبدّد في الفضاء، كسماءٍ تخلّت عن نجومها فجأة، حين ترقص، أستشعرُ مدى فسوقي وضآلتي وبعدي عن الإنسانِ فيّ..!

كانت جواهر في حديقة قلب سيمون زهرة غضّةً كاملة البهاء، وحين قطفتها، لم تسعفني فرحتي بها على شيء سوى تأمُّلها والخيبةُ تجفّفُها.تأمّلتُ خريفها في قلبي، لم يكن أكثر من أصيص ورد تشقّق طينهُ، ومثلما لم أكن أجيدُ الحياة تقول جواهر لم أكن أجيدُ الحبّ، وتضيف «أنتَ

قلبُ يحسُّ لكن يخونهُ التعبير، أنتَ دمية جنسيَّة لا تكلُّ، ما يغفرُ لكَ تهجُّيك في فقه المحبَّة أنَّك لا تكلُّ في الفراش، حين تضلعُني إليك لا تسلمني إلى الفراش إلَّا أضلعًا مفكَّكةً..» كانت تقول ذلك وأكثر. كانت تتفحَّشُ في الكلام، وتقول إنَّها قبل أن تسلِّمني مفاتيحها ما كانت لتفعل ذلك، كانت في لحظات صفائها، حين يجري بيننا الخمر، تقول إنَّ أكثر ما لا يروقها في غريمي مبالغتهُ في الالتزام الثقافي والسياسيّ. قالت: «وحدها لحظات الجنس تسلمُ من مثاليّاته السياسة، وحتَّى حين يميلُ إلى جسدي، يفعل ذلك بعجلة؛ وعلى مائدة جسد خصيب يهرقُ ماءه سريعًا ليعود إلى كتبه وأفكاره..» أذكر أنَّها قالت هذا الكلام، أو كلامًا يشبههُ، وأذكرُ كذلك أنَّها استدركت بحزن، أذكرُ أنَّ السيجارة كانت ترقص بين أصابعها رقصة صوفيّ عضَّهُ الحبّ في قلبه، أذكرُ أنَّ رماد السيجارة سقط على ثوبها الأبيض، وهي تقولُ: «لكنَّني أحبُّه..». أذكرُ أنَّ خاطرة غريبة هضبت بها نفسي وأنا أتأمَّل رماد السيجارة، قلت في سرّي يومها، أنا السيجارة وهو الانتشاء، تستهلكني لتنتشيَ به. أنا الماديُّ، أنا المضرُّ بصحَّتها، وأنا الرماد..

إلى زوالٍ أنا

وله الخلود...!

وكنتُ قد أودعتُهُ في زنزانتي، وكان يمكن أن أسحقَهُ، كان يمكنُ أن أشُقَّ أضلعهُ، وأودعَ داخلها لغمَ خيانتها، وأراقبَه من بعيد والدِّماء تندلق من فمهِ وهو يكابدُ نزفًا داخليًا، لكنَّني لم أفعل! كان النزفُ قائمًا وجسدهُ كان يتآكلُ، وكانت تعوزني شجاعة أن أضمَخَ يديَّ بدماء حبيبها، أو لعلّي فعلت... على نحو أكثر التواءً.

سيمون هذا رجلٌ خلق للعشق والنضال، ولأنَّ الربَّ لا يهبُ الكمال لعباده، فقد أهمل في جسده بذرة وهنٍ وتركهُ يسقيها برعونَته وأفعاله الطائشة... مذ فتح عينيه على الدُّنيا وهو يتعثَّرُ بحبِّها.. كان ينتمي إلى الطائفة اليهوديَّةِ التي لم يبقَ اليوم منها سوى نفر محدود من اليهود يكابد خطر الانقراض حين رآها أهملَ دينَهُ ودنياه، وأقسم ألَّا يترك الأيَّام تبدِّدُ خطاها في زخم الحياة، مثلَهُ التقت به مثلما يلتقي المرء بقدره، كانت المدينة خاسئة تحاربُ العشَّاق، باسم الفضيلة، باسم الأخلاق، باسم الدين، باسم الربّ.. تحاربُ عشَّاقها وإن كانوا ينتمون إلى دين واحد، أمَّا إذا كان العاشقان ينتميان إلى دينين مختلفين، فإنَّ القيامة لا بدَّ تُعلنُ عليهما.. يشحذُ النَّاس ألسنتهم، ولا يتحرَّجونَ في قول أيّ شيء، تتحوَّلُ المدينة إلى مطبخ كبير ينضج ما لذَّ وطاب من الشائعات..

قيل إنَّ أباها قد مات كمدًا وحزنًا، حين لم يستطع أن يحول دونها ودونهُ. قيل أنهكتهُ الشائعاتُ كلَّ يوم تلوكُ سيرتها، وقيل أنهى أجلَهُ مرض غامض، عفّرت جواهر سيرة عائلتها ومرّغت أنوفهم في التراب، فلم تملك العائلة بعد أن أرقدت أباها في قبره سوى أن تنأى بعيدًا عن تلك المدينة وسيرة جواهر الشائنة، ولم تكن عائلَتهُ بأفضل حالًا، فتلغيمُ الأحياء بالنمائم وتفخيخُ الكلام بالشائعات، لم يكن حكرًا على المسلمين دون اليهود، والعلقمُ الذي تجرَّعتهُ عائلتها لم تسلم منه عائلتهُ، وكاد يستودي أباه إلى الجنون، لولا أنَّ المنظَّمات الصهيونيَّة كانَت تملأ السفن بالحالمين بالأرض الموعودة، هكذا أسعفَ فضيحتَهم الحلم.. رحل أهلها دونها، ودونهُ رحل أهلهُ، وظلّا وحيدين دون أهل ولا دين، رصيدهما مأساة كبرى وحبٌّ أكبر.

بعد أن تخفَّفا من عائلتيهما ومن ديانتيهما، اعتنقا الحبَّ دينًا، وكانت الماركسيَّة عائلتهما المشتركة.. كان سيمون في عنفوان علاقته بجواهر شابًا كاملًا: روح عاشقة، عقل ثاقب، جيب مثقل بثروة خلَّفها أهله، وجسد صلب قويّ، جسد كان أوَّل المتخاذلينَ، تقول جواهر إنَّه «لم يقتصد على جسده، يدخّنُ في العادة علبتين من السجائر، وحين يغضبُ، لا تبرحُ السجائرُ فمه، لكنَّ المير استنزفَهُ أيضًا...» وتضيفُ بحسرة مثُهمةً «و أنتَ تستنزفهُ الآن أكثر!!»

تمنَّيتُ أن يحول دوني ودونه شللٌ كهذا الذي زرعتِ في أوردتي يا ليلى، شلل لا يستوقفُ جموح جسدي، بل يسقطُ عن فمي الكلام ويسقطُ عينيَّ في ظلام سرمديّ، أنا أشتهي العدم..

حين كنتُ أنزل بجسده العذاب، حين أمعنتُ في تعذيبها نفسيًا. حين حاولتُ اغتصابكِ، وحين قتلتُ من قتلتُ واغتصبتُ من اغتصبتُ، كنتُ واقعًا في حالة عصيَّة عن الفهم، كانت حشاشةُ الرُّوح واقعة في منطقة هي بين الامتعاض والاشتهاء.. لم أكن أنا أو لربّما كنتُ أنا، إلى أبعد الحدود، يقولُ مستر هارفي «إنَّها السكيزوفرينيا» لم أكن أعبأ بتلك الكلمات الفجَّة التي يستقيها من كتبه..

أعرفُ أنَّ لي حالات أقعُ فيها تحت سطوة ذلك الصوت الجافّ، الذي يطلبُ منّي ما لا أطيق/ أو ما أشتهي ولا أطيقُ، وهي حالاتٌ غائمةٌ، لا أشعرُ فيها أنّني حقيقيّ بما يكفي، أقعُ في شَرَكِ حالةٍ هي أقربُ إلى الحلم، وكم يكون الاستيقاظ منها بالغ الإيلام!

كان سيمون، قبل أن يتبدَّدَ كرذاذ النور في سماء تلك المدينة، رجلًا

حقيقيًا لا أملكُ إلَّا أن أحسدهُ، كان مؤمنًا قويًا بما يحملُ في رأسه من أفكار، ولم أكن مثله، كان يضربُ جذوره في هذه المدينة وينتمي إلى ترابها.. أمَّا أنا، فقد أخذتُها اغتصابًا. كان يحمل ذاكرة ويعرف ماضيه رغم خيباته، وكان ماضيّ فقيرًا، كنتُ فرعونَ المدينة وكان جنودي سحرتَها؛ أمَا هو، فقد كان موسى، لكنَّ ربَّهُ خذلهُ وخانتهُ عصاه!

في الأخير، كلٌّ يشيّدُ بأمانيه وهمًا ينطحُ السحاب، ولا يعبأ بأحلام الآخرين.. سيمون وجواهر ورفاقهما ممن نذروا حياتهم للنضال ليسوا بأفضل من زبانيةِ الظلام الذين جاؤوا بعدهم، وليسوا أفضل من النظام الذي أمثّلهُ. كلُّ فريق يشيّدُ من أوهامهِ صنمًا، يستقطب له مريدين وأتباعًا قبل أن ينشد تكريس صنمه كربٌ أوحد ويمحق ما عداه.

إذن أنتَ ترى بأنَّ أيًا من تلك الأصنام لا يليقُ نظامًا.

بل وأعتقدُ أنَّ النظام نفسه لا يليقُ بالبشريّة، كان الإنسان ليكون بخير لو تمسّك بالطبيعة وجعلها أمّه وكلَّ شرائعه، كان رغم توحُّشه سيتملّصُ من أردان الضغينة التي راكمتها المدنيّةُ فيه... سيكون هناك قتلٌ، قتلٌ ضروريّ، لكنّهُ لن يبلغ ما بلغتهُ آلةُ الحرب المدنيّة والديكتاتوريّات الحضاريّة، قتل عبثيٌ باسم العرق والدّين واللُّغة والجغرافيا...

ما البديل؟

يا ليلى.. حين ترجّلنا عن قطار الطبيعة، لا بديل سوى العدم.. أن ندفع أيّامنا إلى منتهاها، لا يلوحُ في الأفق أنَّ البشريّة ستُبرَأ من مرضها، وسيمون كان يؤمن بحلم أنيق نقيّ، لكنّه مجهضٌ؛ واقعهُ يخونهُ من ناحية، وهو ورفاقه كانوا يؤلّهون هذا الحلم من ناحية أخرى، ولعلَّ هذا ما استجلبَ إليهم لعنات الدُّنيا...

سيمون كان رجلًا وديعًا لا يستأهلُ ما ألحقتُ بحياتهِ من عطب، كان مثلها، مثل حبيبتهِ الصغيرة: يضعُ على السكّة الباردة جيدهُ وحقائبَ أيّامه، وكنتُ قطارًا مدفوعًا بيد الغيب صوب أحلامه.. كان تدميره هو الهدف، وكان دمارُ المدينة ضررًا جانبيًا..

سيمون

١٠٢ ٠١ ١٩٧٣

الزنزانة ٠٩

قالتها جواهر منذ زمن بعيد، أمّا أنا، فقد كنتُ دائم الاعتقاد بأنَّهُ ليس هناك أسوأ من المير حتى رمانا الربُّ بهذا المخلوق، جينكزخان الزمن الرَّديء.. ما كان يجدر أن نتمحَّك بهِ ونحن عزَّلٌ، وهو يقودُ جيشًا مدجَّجًا بعتاده، قلتُ لهم إنَّ العنف الثوريّ وحدهُ كفيلٌ بالتغيير، قلتُ لهم إنَّ الخِرَق البيضاء التي يلوِّحون بها كلَّما خرجوا في مظاهرة لن ترتقَ الفتوقَ التي سيفترعها زبانيةُ المير... قلتُ كلامًا كهذا، وقلتُ كلامًا كثيرًا. مهادنةُ الرجعيَّة لا تستجلبُ إلَّا مزيدًا من الهزائم..

كلَّما حرَّضتهم على حمل السِّلاح، أبدوا امتعاضًا وتراخيًا، ورموني بالتأثُّر بالتجربة الكوبيَّة، وقالوا إنَّ جيفارا ورفاقه أفسدوا عقلي. الحقُّ، أنَّ السبيل إلى تحقيق المطالب لا يكون بتملُّقِ الرجعيَّة بل بحمل السِّلاح، وكنتُ لأدعوَ إلى ذلك، سواء هنا أو في كوبا أو في المزيخ...!

لم أشتهِ لهم قحطَ هذا المصير، لكنَّهم اختاروهُ على أيَّة حال. وها هم يدفعون ثمن اختياراتهم، وها أنا أدفعُ معهم ثمن اختياراتهم، السلميَّة، السلميَّة المزعومة التي يمنُّون بها النَّفسَ ليست أكثر من شعار تافه، يملأ خيالات الكتب. حين تدكُّ عظامك آلةُ القمع، لن تحولَ دونَك ودونها الشعارات، حين يرسلُ الجلَّاد أنيابهُ في لحمك، لن تدفعَ عنكَ سلميَّتُكَ العذابات.

كان الميزُ الجديد حاسمًا في كلِّ شيء، وكان يجدرُ بنا أن نُعدَّ للأيَّام العجاف منذُ أن فعل بسلَفهِ ما فعل، قيل إنَّه أجلسهُ على زجاجة خمر إلى أن تشقَّقَ دبرهُ ومات نزفًا، لكن بدل أن نلتفتَ إلى الحقيقة المرَّة: أنَّه رجل هارب من جهنَّم. صفَّقنا لجنونه وتشفَّينا من المير العجوز.. كان يستمهلنا ريثما نعلنُ عصياننا، وحتى عندما فعلنا، أمهلنا ريثما نأنسُ لضعفه وقوَّتنا.. وحين اختبأنا خلف الجدران وتلفَّعنا بوشاح اللَّيل، حين تبدَّد شملنا، أرسل إثرنا كلابهُ المسعورة، التقطنا واحدًا واحدًا... أمَّا ما أعدَّ لنا من عذاب، فإنَّ الكلام ليعجزُ عن الإحاطة به، كأنَّه شيء يجدر أن يُحسَّ ولا يقال، كلُّ الرفاق الذين تلظَّوا بناره حنُّوا للمير القديم، كان سجنهُ فندقًا، وعذاباته دغدغة مقارنة بعذابات هذا الوحش الذي لا أحد يعلم أيَّ قدر ضرير سلَّطهُ على المدينة.

في هذه الزنزانة الدبقة التي تضمُّ رفاة أكثر من عشرين رجلًا على حافَّة التحوُّل الأخير.. لا قيمة للحياة، ولا تجاربها.. للواقفين على حافَّة الموت مشاريع أمل أخير.. وهذا على وجه التَّحديد الخيطُ الرفيع الذي يشدُّهم للحياة، قبل أزيد من عام كنّا أربعين معتقلًا، نقضي يومنا واقفينَ، وفي اللَّيل نتكوَّمُ عراةً بعضُنا فوق بعض، نتناوبُ على آلة التعذيب. كلّ يوم يخرجُ عشرةٌ منّا لينحت أرواحهم العذاب، وفي المساء، يعودون مستنزفينَ تمامًا: جراحٌ مستطيلةٌ فجَّةٌ، كدماتٌ وندوبٌ ودموعٌ تشهدُ على رجولة منخورة. حين جاء دوري، فهمتُ سرَّ الدموع التي عاد بها من سبقني، جلوتُ أسباب انكفائهم على ذواتهم، وتأكَّدتُ أنَّ الميرَ الجديد قد نخل رجولتهم بطلقات قاتلة.. أليس الاغتصاب قتلًا، سمًّا يسير على مهلٍ في الأوردة، ويمهلك من الأيَّام قدرَ إرادتك..؟

كنّا، قبل عام، أربعين رجلًا في زنزانة صغيرة، نقفُ نهارًا، وفي اللَّيل يهوي بعضُنا فوق بعض، والأرض كانت تجري بدم طريّ تجفِّفهُ أقدامنا الحافية التي نحرّكها بين الفينة والأخرى حين تتكلَّس... كنتُ في الأيَّام الأولى، أعالجُ تهالك إرادتهم بكلمات.. أذكّر حينًا بالمبادئ، وأسردُ عليكم نتفًا مما عشتُ في كوبا... لكنَّ الفتقَ النفسيّ والجسديّ الذي أورثهم زبانية الميرِ، دفعهم إلى التشرنق على ذواتهم. كانوا حيوات لا تشتهي الحياة، ولا تشتهي الموت.. أخرست الفجيعة في وجوههم ثرثرتي. كنت مثلهم مفجوعًا بكلّ شيء، ومثلهم دخلتُ متاهة التلاشي الأمرّ، لكنَّني أكابرُ لئلّا أنخذلَ أمام الرِّجال الذين وزَّطتهم بمعسول الكلام في ما لا طاقة لهم به.

كنّا أربعين معتقلًا في الزنزانة ٠٩ قبل سنةٍ، والآن لم يتبقَّ سوى عشرين جثَّةً معلَّبة في انتظار حفرة تأويها، مات على عتبة أمل يتيم عشرون مناضلًا شريفًا، أغلبهم ماتوا بين يديَّ، ماتوا وهم يكابدون شهقة الموت الأخيرة. تعدَّدت الأسباب التي استودتهم للموت، لكنَّهم في الأخير يشهقون الشهقة نفسها، وتنكفئ رؤوسهم الانكفاء نفسه.. وترتخي بين يديَّ أجسادهم، وتتطلَّعُ إليّ العيون في ما يشبه الإدانة. توفِّي أوَّل المعتقلين خوفًا! كان يهذي كثيرًا، قال إنَّه رأى الرفيق لينين يعذِّبهُ، قال إنَّ أمَّه رأتهُم وهم يولجون فيه ذلك الشيء الذي لم يسمحوا له برؤيته، ولأنَّه كان طالبًا متخصِّصًا في علم النفس، فقد قال إنَّهم أدخلوا في مؤخَّرته جرذًا، قلت له إنَّ ذلك غير موجود. قلت له بعد أن تذكّرتُ إنَّ مثل هذه الحكاية موجودة في كتاب لسيغموند فرويد، لكنَّه كان أبعد من أن تدركهُ كلماتي.. قال إنَّ الجرذ يتحرَّك في أمعائه، وإنَّه يستعصي عليه التبرُّز، قال إنَّ الجرذ يحول

دون ذلك.. وما عاد سليمانُ يأكل، خاف أن يتفاقم البراز في أمعائه، وقال في قمَّة هذيانه إنَّ البراز سيخرج من أفواهنا، وإنَّ في أمعائنا جميعًا جرذانًا. قال إنَّه يكرهنا ويحنُّ لأمِّه.. وتلظَّى بالحمّى والهواجس المقيتة قبل أن يلفظَ أنفاسه..

حين مال رأسه، كنتُ أفكِّر في جواهر. لم يمرَّ يوم دون أن أفكِّر في جواهر، لم تمرَّ ساعة أو دقيقة دون أفعل.. كنتُ أشتهي أن ترحل بعيدًا عن هذه المدينة الآسنة، أن تعود إلى فرنسا، لو حدث وأذِنوا لها بزيارتي لن أتردَّد في حملها على الرحيل.

مات سليمان، وبعدهُ مات أحمد. قيل مات اختناقًا، وقيل إنَّ الزحام قتله.. وبعدهما مات الحسنُ، كان يشكو من ألم في جنبه، قال إنَّ ركلة أورثتهُ ذلك العذاب، تدحرج بألمه زمنًا قبل أن يقتلهُ.. وبعده عبد الله، سرقَه نزف من منخاريه؛ وبعده البشير، تهامس السجناء بأنَّه أوعزَ لصديقه بأن يجهزَ عليه، لم يستسغ الرَّجل أن يتمَّ اغتصابه.. وسقط بعد هؤلاء آخرون، وظللتُ الوتد المغروس في الركن، المشجب الوحيد التي تُعلَّقُ عليه نظرات الاتِّهام، يعرفون جيِّدًا أنَني بالكلام المنمَّق أسقطتهم في شَرَك حلمٍ جميل، لا يليق ببشاعة الواقع. يعرفون أنَّني تاجر الأحلام الورديّة، أنَّني من بسحره أظهر لهم على المقابر مرجًا من الأزهار الجميلة..

لكن، كان الأمر ليكون أفضل لو اخترنا بدل السلميَّة السمجة العنف الثوريّ. لا مناص من الهزيمة، لكنَّ العنف الثوريّ يهبك موتًا سريعًا، ويهبُ من يأتي بعدكَ درسًا مهمًّا في فقه الخسارات... كلُّ شهيد يسقطُ في هذه الزنزانة يترك نصلَ خيبتهِ المدبَّبَ في قلبي ويمضي، كلُّ من يمضي إلى منتهاه يكلِّفُ قلبي ما لا يطيق..

وأنا مطعون قبل نصالهم بخيبات جمَّة، أحمل في قلبي أكثر من جرح فجٍّ.. وجسدي قبل أن يأتي رسولُ جهنَّمَ هذا استهلكهُ المير بحروبه، قلبي يوجعني لأنَّه قد يستنزفني شططُ السجَّان قبل أن أهبَ جواهر الحياة التي تستحقّ، منذ اندلع في قلبينا الحبُّ وأنا أتدحرج بها في المسارب الموحلة دون أن أمنحها يومًا أبيض يفرِحها، نبت حبُّنا في هذه المدينة الزبل، نبت كزهرة زلّت بها الأقدار ووزَّطتها في البدايات الآسنة، كنَّا شمعة يسعى أهل المدينة بأنفاسهم المحمومة النتنة إلى إخمادها، لم نظفر بلذَّة البدايات، اعتنقنا الحبّ فشقَّهُ الراء نصفين، فكانت الحربُ، كأنَّنا أوَّل أو آخر العشَّاق.. لم نكد نخرسُ الأفواه الوالغة في سيرتنا حتى اندلعت حربُنا مع المير، سرقني منها سفر فجائيّ إلى كوبا، ثمَّ عدت

لأستأنف الحرب، قبل أن تسرقها منّي سنتان في فرنسا... وما كدنا نهنأ بالتحام ما تفرَّق، حتى حشرني المير الجديد في هذا القبو اللَّزب.

جواهر..

يا ربَّةَ أفراحي اليتيمة.. لا أملكُ في وحشة هذه الزنزانة، وأنا أواجه الرؤوس الحسيرة التي تنكفئ على جراحاتها إلَّا أن أعتذر مزيدًا من الاعتذار، كنتِ أنأى ما يكون عن هذا الشظف المرير الذي أغمدتُ فيه قلبكِ، لو أنَّني أهملتُ ضجيج قلبي حين رآكِ، هي نظرة عجلى وحبلى بمشاريع حبّ كبيرٍ، لم يكن واقعنا ليُؤهِّلنا له..

اقترفتُكِ أروع خطيئة، وما كان يجدر بفتى مثلي تعدُّه السَّماء للخطايا أن يتورَّط في خطيئة إضافيَّة. أحببتُكِ صادقًا، أحببتُكِ، وكنتِ أوَّلَ مبهم يخبط جدران القلب، وآخر كمشة من بهاء تتدثَّرُ بها نياطه.. ما كان يجدر أن أسرِقَكِ من واقعكِ ومن مصيرٍ كان قد أُعدَّ لك سلفًا، وأحشُرَكِ في حياة ما كانت تليق بكِ، وأحشوَ رأسكِ بكثافة من أفكار وأحلام زائفة، التي يعرف النِّظام كيف يدفعها إلى حافَّة التلاشي..

القلبُ حين يعشقُ يخرج عن طوره.. يجرجرُ صاحبَهُ في الدروب المنحنية ولا يهنأ، لا يكتفي بواجبه اليومي حتى ينتهي إلى الحبيب المنشود.. ولعلّي لم أسلم من أعذب آفات البشريَّة وأكذبها، لكنَّني طالما كنتُ أنشدُ الملاءمة بين حلم داخليّ يغلي، وبين قلبٍ يملي عليّ الحياة التي يجدر أن أعيشها..

أحببتُها ولا أملكُ إلَّا أن أحبَّها، لكن لو أنَّ الربَّ شاء أن يهبَني فرصةً لإدارة ماضيّ، فلا شكَّ أنَّني سأتفاداها، سأهملُ قلبي وضجيجَه، في ذلك اليوم الجميل، ذلك اليوم الذي كما لو أنَّه جزءٌ من النعيم الموعود، سأنام بدل أن أنقاد للأقدار وهي تجرُّ صوبَها أيّامي. لخيرها، كنتُ سأتنازل عنها، لأنَّي أحبُّها لن أشتهيَ لها سوى أن تعيش حياة أفضل، مع شخص يحبُّها، وتحبُّه، يهبُها الأمان الذي طالما اشتهتهُ، ولا يجرجرُ قلبها بين السجون والمستشفيات، يتوَّجُ حبَّهما بعرس متواضع ويهبُها من صُلبِهِ طفلًا وطفلةً مثلما تمنَت دائمًا...

معطوب بقدري وجنوني وبالمعرفة.. وبهذا الوعي الشقيّ، والحياة ما كان يجدر أن نأخذها بهذا التعصُّب، وننفق أيَّامها في مستنقع من لزوجة كأنَّما هي مخاطُ أسود لا نملكُ منه فكاكًا. كان ينبغي قبل أن أتورَّط في أيّ شيء أن أهتدي أوَّلًا إلى سبيلٍ أفكُّ به طلاسمَ أيّامي، وأختار إن

كان يجب أن أكون سيمون العاشق أم سيمون المناضل... كنتُ أعي بشكل مبكر أنَّ حياتي لا تستقيم إلَّا بالتنازل عن أحد أمرين: هي أو النضال.. لكنَّني ببلادة حالم طاعن في الرومانسيَّة، تشبثتُ بخيط أمل كاذب، وقلتُ بعدها؛ وأنا أمعنُ في البلادة إن أنا دفعتُها إلى إدمان ما أدمنُ، فلا بدَّ أنَّ العشقَ والنضال سيتعايشان ولو في كنف البؤس..

ما جدوى أن تعشقَ بهبلٍ وتدفعَ بمن تحبُ إلى الهاوية؟ ما جدوى حبّك يا سيمون وأنتَ تدسُ في قلبها أيّامًا موحشة، لا تنفكُ تتفاقم وحشَتُها يومًا بعد آخر..؟ قبضتُك المضمومة واهية لا تفلُّ حديد النُظام، وكان الحبُ أولى بأن يعاش. قلبُها كان موعدًا مع دنيا طافحة بسعاداتها، وجسدُها الخصيب كان الحياة، وقد تركت حماقاتها جانبًا وتعرَّت لتستحمَّ في إناء.

رغم علقم ما جرَّعتكما المدينة، كانت الدُنيا تُفرد ذراعيها لتنتشلَ يأسكما المدقع بعناق ووعد بحياة سعيدة، لكنَّك أشحتَ عنها بوجهك وتقفَّيت أحلامًا لا توجدُ إلَّا في تلك الكتب الحمراء التي أدمنتها مبكِّرًا، قلتَها منذ وقت، تمشَت في ذهنك العبارة كشفرة حادَّة «عليَّ حمل السِلاح قبل أن أحمل قلبي مضرَّجًا بدمائه..» قلتَها في سرّك، قبل عامين أو ثلاثة.. لا أدري! قُلتَها وكان يجدر أن تتبنّاها أو تطلّقَ اليسار دونها...

لو حدث وأذِنَ لها الميزُ الجديد بزيارتي سأخجلُ، من نظراتها، ولا بدَّ أن أتردَّد طويلًا قبل أن أهبَّ إلى لقائها، لكنَّني حين أفعل، لا بدّ وأن أحملَها على الرحيل، لا بدَّ أن أمعن في الخيبة وأهبَها من زنزانة هذا الحبّ الفقير سراحًا يرمِّمُ ما تهالكَ من أيّامها، يلزمُ أن أطبِّبَ وجعها بمزيد من الوجع. كان لا بدَّ من بترٍ يمزّقُ نياطَ قلبينا، لكنَّني كنتُ دائم المماطلة والتأجيل. الآن فقط، أدركتُ البؤس الذي كنتُ أنضجهُ لكلينا.. ويلزمُ لكي أستوقف نزف خساراتكِ أن أمرَّ بمديةِ الخيبة المثلومة على ما بيننا من حبال النور.تضعضعَ القلبُ، والجسد ما عاد يحملُني أو يسعفُ رحلة حياتي، والميزُ الجديد لا بدَّ أنَّه يفكِّر في أن يستبقينا هنا، ويخلطَ أيّامنا بجحيمه إلى أن تتفسَّخ أجسادنا وتطلبَ أجداثها.. وحتى وإن لَفَظنا الجلّاد، لا بدَّ أنَّه لن يتركنا إلَّا كما يتركُ الفقيرُ سيجارته مستنزفةً حدَّ قطنها، ومسحوقةً تحت الحذاء المغبرِّ المثقوب..

لا تليقُ بكِ روحي المنخورة سجينًا، ولا يليقُ بكِ جسدي المدحورُ طليقًا..

فحتام المماطلة يا جواهر.. والدُنيا بيني وبينك تفترشُ جحيمها؟

وعلامَ هذه المكابرةُ وبيننا يقيمُ الربُّ استحالاته..؟ أضأتِ بحبّكِ، بكرمكِ المناجم التي افترعها اليأس داخلي، لكن بدل اليأس نتأ داخلي دونَكِ ألف يأس، والطوفان الذي طالما حذّرتهم منه، وأنا أستحثّهم على ابتناء السدود، قد جاء أخيرًا، لم يمهلنا فرصة استراق الشهقة الأخيرة، سرقنا من واقعنا ودفعنا في هذه الأقبية التي تقوم قبورًا مؤقّتةً، ريثما يوضَّبُ لنا الموت قبورنا.

جواهر... جسدي يبسَ وتشقَّقَ كإناء الحبق. سرق الجلّاد اللّحمَ منه. حفنة من عظام أنا، أردُّ عنّي ضربات النّظام وبطشهُ بصبر واه وجسد بشّعتهُ آلةُ التعذيب، أحاولُ أن أطبقَ عليه جفنيّ لئلّا يخزني اليأس، ويستوديني إلى الهاوية.. أوّلُ الموت يأس. الموتُ مثل الحبّ العذريّ أوّله اعتراف وآخره استسلامُ جسد. وأنا لا أخاف الموت، لكنّني أريدُ أن أتصرّف في احتضاراتي مثلما أشتهي.. أريدُ أن أهبكِ حرّيّتكِ منّي والأنفاس الأخيرة، أفضّلُ أن تحمليني في قلبكِ ذكرى فرحٍ مجهض على أن تحمّليني غصّةً في جوفكِ، وتوقفي أيّامكِ على انتظاري...

الحياة جميلة، لكنّني لم أعشها. غضضتُ عن مفاتنها البصر، وأنا أتأمّلُ الكادحين والفقراء والقحط والأيّام المجدبة تدهكُ أجسادهم الناحلة وأيّامهم البور.. ثمّ أحشرُ بعد ذلك أنفي في الكتب إلى أن يفيضَ بي الغضب، فإذا جهرتُ لهم بما تهجسُ به نفسي، وفتحتُ عيونهم على الحقيقة، قالوا إنّا معكم. وإذا جدّ الجدُّ تراجعوا، وتركوا للنّظام فرصة أن يفترعَ في أجسادنا جراحات لا تفحي..

أهملتُ نداءات الحياة، لأنّني انشغلتُ بأسئلة مستعصية نهبت كلَّ أيّامي، وأفرغت أرصدتي من أفراح كان يمكن أن أعيشها، لو أنّني تخفّفتُ من جبّةِ الماركسيّ من حين لآخر، وسرقتُ أنا والبهيّةُ جواهر من رحم الشطط بهجتنا التي نستحقّ..

السجّانُ يخبطُ بعصاه على الباب، يفعلُ في العادة ذلك قبل أن يفتحهُ. يصرُّ المفتاحُ في رحم القفل مستفزًّا. ينكمشُ السجناءُ ويندسُّ بعضهم خلف بعض، يعلمون أنّه بعد انفتاح الباب، لا بدّ أن تدهس عريَهم الأحذية العسكريّة الثقيلة، أو تبلّ أجسادهم خراطيمُ المياه الباردة، لكنّ شيئًا من ذلك لم يحدث.. تضاءلَ خوفي حين لم تُقتَحم الزنزانة، جأرَ السّجّان باسمي، رفعتُ يدي، فسحبَني من ياقة قميصي المهترئ خارج الزنزانة، عالقًا كنتُ في سعال لا ينقطع، كأنّي ابتلعتُ نصل سنّارة. حين هادنني السُّعال، همسَ الجلّادُ وهو لا ينفكُّ يدفعني محرّضًا على الإسراع:

محظوظ أنتَ يا ابن الكلب.. تنتظرك حسناء..

وزفرَ زفرات متقطّعة, قبل أن يقول، وكأنّه يحدّثُ نفسه:

حسناء كوبيّة!

الرسالة (٥)

من جواهر إلى سيمون

خريف ١٩٦٩

«سيمون يا كمشة من نور ملوَّن وجيشَ فراشات، أحبُّك. تعلمُ أنَّني لا أقبلُ سواك عزاءً في هذه الدُّنيا، قاتلتُ الجميع لكي أنالكَ، تكبَّدتُ أفدحَ الخسارات ولا أريد بعد شطبِ العمر أن أخسركَ، لا أريد أن تضيعَ الحياة سدًى، قضاءُ الربِّ لم يكن كريمًا معي منذ البدء.. تعرف القصَّة وتاريخ النزفِ كان دائمًا في متناول يدكَ، تعرف أنَّ تلك اليد، تلك الأصابع الآثمة التي جثمت على جسد الصبيَّة التي كنتُها سُرقت مع الأرجوان الذي سال الحياة كاملةً. تدري أنَّني أحملُ ألغازًا فوق ما أحتمل، وأنَّني لا أنشدُ سوى حياة بسيطة ترمِّمُ الشعاب الفجَّة التي دشَنها في الرُّوح مدُّ المحن، وقليل من الفرح يباركُ صبري على حياة الويل هذه.

دعكَ من الوجع يا حبيبي، «اللّي فيك يكفيك».

أيَّام العمر قصيرة جدًّا، وأنا أخاف، أخافُ أن يفرَّ بيَ العمر دون أن أعيش مباهج الدُّنيا، لا أريد أن أعبر بين العدمين شاحبة داوية، دون أن تكلَّلَ ملامحي بسمةٌ صادقة، ودون أن أغنمَ نكايةً في كلِّ الخسارات ليلة حبٍّ هانئة. أنا، أيُّها الحبيبُ متعبة جدًّا، جسدي سيتماثلُ للشفاء، لكنَّ مقامي في أقبية المير والخيبات الجمَّة التي سبقته، أورثت روحي سقمًا بالغًا، وحدهُ أنتَ تقدرُ على تطبيبه.

أحبُّكَ... لو فقط تدري أنَّني أحبَّكِ بكلِّ ما فيَّ من جوارح، وأنَّني أعدكَ بديكتاتوريَّة أعنفَ من ديكتاتوريَّة المير، حين تضيقُ بي ذرعًا المنافي لا بدَّ وأن أعود إليكَ عاصفة من عواطف ساخنة، ولا بدَّ أن أسجنكَ بين أضلُعي، لا فكاكَ منِّي. حين يأذنُ لي الجلّادُ بالرجوع، لا بدَّ وأن تضع حربُكَ الخبيثة أوزارها، ولا بدَّ لنا من حربٍ يا حبيبي، حرب حميدة... نكون أنا وأنتَ طرفاها، ويكون بيتٌ صغيرٌ وسريرٌ أصغرُ مسرحها..»

قاسم

٢٠ ٠٤ ١٩٩٥

كورنيش المدينة

وكان يعوزني الكثير...

لم أكن أفهمُ جسدي ولا حاجاتِهِ بما يكفي، أوَّل مرَّة التفتُّ إلى طنينه كان بعد أن أبرحني سيمون ضربًا، كان في النَّفس اشتهاءٌ طافحٌ، وكانت آلتي تتضخَّمُ شيئًا فشيئًا، لا أدري على وجه التَّحديد ما أثارني وقتها، الضرب أم عجيزتها المكوّرة الجميلة وهي تنسحبُ رفقةَ حبيبها؟ لا أدري، لكنَّ الذكرى ظلّت قابعةً في منابتِ الذاكرة الجديدة، مرَّت السَّنة الأولى وأنا أتهجَّى الحياة، وفي السَّنة الثانية، أشعلت حروب الدُّنيا، ولم أعبأ بتلك الآلة التي تتوسَّطُ فخذيَّ، تتضخَّمُ صباحًا، توقظني في منتصف اللَّيل على بلل. لم تكن تراودني أحلام جنسيَّة، لكنَّني كنتُ أبلُّ ملابسي كثيرًا، وأشهقُ أكثر بتلك اللَّذة التي طالما باغتتْ الجند وهم يتحدَّثون عنها ويتنذَّرونَ بما رأوهُ من جنون «الهيبيّين» على الشاطئ! لكن كثيرًا ما أهملتُ الأمر، ولم يحدث أبدًا أن عرَّيتُ جواهرَ في الخيال.. كنتُ في كثير من الأحيان أعتقد أنَّ ما بين فخذيَّ مجرَّد أنبوبٍ يُخرجُ البولَ لا غير!

ولم أكتشف حلاوة ذاك الشيء إلَّا مع إزميرالدا، معها أدركتُ بأسف اللَّذةَ التي فاتتني. كان يتقاطرُ على المدينة صنفٌ من السُّيّاح المجانين يسمّون «الهيبيز»، حركة شبابيَّة مناهضة للفكر الرأسماليّ، تنتفضُ على القيم الماديَّة واستهلاكيَّة العصر الجديد، وتنشدُ انعتاقًا بالارتماء في أحضان الطبيعة ونبذ الحياة المدنيَّة، يرتدون ثيابًا مهلهلةً تفيضُ عن أجسادهم الضامرة في الغالب، ويسبلونَ شعورهم ذكورًا وإناثًا الحرِّيَّة والجنس والمخدّرات هي مداراتُ عوالمهم الغريبة.. وهذا الشاطئ لو أنَّه يتكلَّمُ لحدَّثكِ يا ليلى عن الفسوق الذي عبرَ من هنا، وعن المجانين الذي استوطنوهُ ذات يوم، يتمدَّدون عراةً على الشاطئ، عراةً كما ولدتهم أمّهاتهم، يستهلكون الحشيش، ويطارحُ بعضهم بعضًا الغرام متى عضَّت الشهوة، ويرقصون على إيقاعات الروك.. ويتقمَّصون هبلَ الدُّنيا. كانت التعليمات أن ندعهم وشأنهم!

إزميرلدا واحدة منهم.. كانوا خليطًا من جنسيَّات شتَّى، أغلبهم أوروبيُّون، لكنَّ إزميرلدا كانت كوبيَّة.. كوبيَّة جميلة باذخة الحسن فارعة القوام، حين دخلت مكتبي ترتدي حديقة ألوان مغبرة، وتسبلُ على ظهرها

شلّالًا وتضع في كلّ أصبع خاتمًا، كانت تفوحُ منها روائح الحشيش، ورائحةٌ أخرى عصيّة على الكلام، رائحة أنوثة طازجة. لم أسأل، اكتفيتُ بتأمُّل جسد الغجريّة البرونزيّ، لم أكن أجيدُ الإسبانيّة، وكانت تتهجّى نتفًا من الفرنسيّة. شفتاها شهيّتان منتصبتان، كانت جميلة، ربما أجمل من جواهر، لكنّني لم أحبُّها ولا علقتُ بشراكها. كان الأمر مجرّد اشتهاء، اشتهاء طارئ على جسدي، وكان جسدها طافرًا بالخصب، الثوب الفضفاض يفصحُ عن نهدين خجولين، وعيناها الواسعتان تقدحان شهوة، وأهدابها المنتصبةُ كانت رماحًا مدبّبةً تنغرس في الصرّة.. لا أدري لماذا هجستْ بهذه الخاطرة الغريبة، لكن هكذا أحسستُ...

جرى بيننا كلامٌ مضطربٌ، ودخّنّا معًا أكثر من سيجارة. قالت إنّها تنتمي إلى قرية معلّقةٍ على جبال سييرا مايسترا الكوبيّة، قالت إنّها تعرف شخصًا عزيزًا كان يجمع بينها وبينه الغرام، وحّدتهما دورة تدريبيّة نظّمها الحزب الشيوعيّ الكوبيّ، وفرّقتهما بعد ذلك الجغرافيا. قالت إنّها تدينُ له بشوق كبير، وتحمل في قلبها ذكرياتهما المشتركة. قالت إنّه يهوديّ مغربيّ، وقبل أن تلفظ اسمهُ، سألتُها إن كان اسمه سيمون، هزّت رأسها بالإيجاب!

كانت جميلة على نحو معذّب، وكنتُ حديث عهد بالجسد، كلّما تلصّصتُ على تفّاحتيّ صدرها اهتزّت داخلي رغبات لاعجةٌ، تذكّيها تلك القصصُ الغريبة التي يتندّرُ بها الجنود وهم يتحدّثون بحماس عن الهيبيز. كنتُ قطعة ثلج باردة أدركها في حضرة اللافا المتدفّقة من جبال سييرا مايسترا الغليان، محمومًا كنتُ بما لستُ أعرف، وكانت تعرف السبيل إلى وصالِ حبيبِها. كنتُ أعتقد أنّه مثل جواهر يحبُّ بصدق ولا يخون.. لكنّه خان، وأصبح في ملكي على حين غرّة ورقةٌ حمراءُ كنتُ لأشهرها في وجه البريئة جواهر، علّ ذلك يجتثُّ من قلبها حبّهُ... لكنّني لم أفعل.

إزميرلدا شهيّة باسقة الطول دانيةُ القطاف، كأنّما لم يخلقها الربُّ من صلصال كالفخّار!... لا تشتهي هي سوى لقاء مسروقٍ مع الذاكرة، ولا أشتهي أنا سوى أن أداهمها بكامل طيشي، لا أدري ماذا سيحدثُ بعدها، لكن لا بدّ أنّ الغريزة ستقودني، هكذا فكّرت وأنا أبرحُ الكرسيّ الوثير، سرتُ صوبها. كانت تذرفُ كلامًا لا يصلني منه سوى النزر القليل، حطّت أصابعي على كتفها وملتُ عليها، كادَ يلتصقُ أنفي بجيدها. امتلأت خياشيمي بروائح أنوثتها، وتلصّصتُ على زوج الحمام في صدرها، لم تجفل ولا نذّ عنها ما يشي بتذمُّر. واصلت بفرنسيّتها المضطربة كلام الشوق والحنين، بينما كنتُ أبحثُ عن بوصلةٍ تسعفُ تيهي في غابات

السييرا مايسترا، كان قلبي يرقص على إيقاعات السون والسالسا والمامبو، ويفتح أحشائي للحمم المتدفِّقة من جسدها القمحيّ المحنّى، استوى تحت شمس هذه المدينة الآثمة وتعمَّد ببحرها الخبيث..

إزميرالدا تقول إنَّها يمكن أن تهبني جسدها دون اشتهاء، مقابل أن ترى سيمون.. إزميرالدا تشتري بجسدها تذكرة زيارة للماضي، وأنا أمَيٌّ في مطارحة الغرام، جسدي يتلَظى بناره، لكنَّني لا أجدُ إليها سبيلًا.. انتصبتُ واقفةً كشجرة، ودون أن تُعالجَ جوعي إلى كلامها شرعت تخلع ملابسها... كانت ملامحها تتَّشحُ بالحزن، لكنَّها تفتعِلُ ابتسامة هشَّة، تلبَستني الغواية، لكنَّ جسدي تسمَّر في مكانه. إزميرالدا تتَّجهُ نحوي بحرائق كوبا كاملة، إزميرالدا صيف حارٌ على حوافِّ الكاريبي.. وأنا انتصبتُ كاملًا، كتلة من رغبات لاهبة كنتُ تحت ضغط الحمم اللاتينيَّة. اقتربت فنزٌ جبيني عرقًا، كانت أوَّل مرَّة أرى فيها جسدًا كامل العريّ، جسد قمحيّ يطفح بخصبه، ضغطت بنهديها المتصلِّبينِ على صدري، وأخذت شفتيّ في قبلةٍ رائقة. وقفتُ مشدوهًا أتأمَّلُ سفني وهي تتحطَّمُ، ويتبدَّدُ خشبُها بين الخلجان الكوبيَّة..

لكنَّ ما حدث بعد تلك البدايات الشفَافة كان جنونًا، جنونًا ما كنّا نعدُّ له حسابًا، كانت اللوثةُ قابعةً في الدرك الأسفل من الذات، وما كنتُ أحسبُ أنَّها تنتظرُ شرارةً لتنفلت من عقالها، شيءٌ ما منسيٌّ ضارب في الأعماق تلبَّسني في معترك الدَّهشة العارمة؛ وبدل أن أذعن للغرق في أتونها، قرَرتُ أن أواصل سباحة إلى مرافئ الإثم، وشواطئ الخطايا. كانت بأصابعها الرقيقة تفكُّ أزرار البذلة العسكريَّة، ولسانها كان يبحرُ في فمي، ويستقرُّ على لساني مذاقهُ الحزيف... أصابعها تقشَرني رويدًا رويدًا، وأنا مسمَّرٌ كوتدٍ لا يدري أيّ ربٍّ دقَّه في خاصرة الأزمنة الموحشة!

ما تلا هبلها وهي تدرعُ جسدي بأصابعها ولسانها، كان جنونًا اندفع فجأةً من فجواتِ أشرعتها فيّ الدهشة، فنفضْتُ خلجانها الوديعة، وأعلنتُ على أرخبيلها التسونامي. عاريان أنا وهي، حين انفجر في عرض محيطها بركاني. أخذتها بالقوَّة، كان يجدر بعد تلك الهزَّة العنيفة ثمَّ الطريقة التي ألصقتُ بها وجهها بالمرآة المقابلة للمكتب، أن تدركَ أنَّها أرقدت في ظهر الثور سيوفها، وأنَّها عاريةٌ لا تملكُ وشاحًا أحمرَ تروّضُ به عنفوانه...

التصقت أصابعي بلحمها البضّ، ثمَّ اعتصرت يدايَ نهديها الصقيلين. أدبرتُها.. التصق صدري ببلاطة ظهرها، وألصقت هي **بالمرآة** المواجهة للمكتب. أرى جَزَعها وأنا أشدُّ شعرها بعنف، خوفها وأنا أعتصر بعنف

مضاعف نهديها، كانت وديعةً وخائفةً في آن، تلتصقُ أصابعها بلحم المرآة، كأنّها تودُّ أن تلتحم بها، كأنّها تشتهي أن تلتحم بنفسها. في تلك اللّحظة التي التحمتُ بها، كنتُ أخبطُ المرآة برأسها، تشقّقت أوّلَ الأمر دون أن يستوقفني ذلك عن هتكِ أسوار لحمها، و**رأيتُني في المرآة أكثر من «أنا»**، فتماديتُ في قصف جسدها. طفرَ الدم وملأ الوجه الأنيق بعد أن شجَّ الزجاجُ هامتها، ثمَّ أخذتُ شفتيها ومصصتُ لسانها المضرَّجَ بدمها.. . وأنا لا أنفكُ أتطلّعُ إلى آثامي في المرآة، أرى في نسخي العديدة، نسخي التي لا تشبهني من فرط ما تقترب من حقيقتي، فيها أرى (أنايَ) كثيفة...

ولم أبرح جسدها إلّا وأنا أتصبَّبُ على السّواحل الكوبيّة حممًا، خلّفتُها مجندلةً على الأرضيّة بساقين منفرجين ووجه مضرَّج بدمائه، وخارطة رضوض تراوحُ بين الخضرة والزرقة تفترشُ جسدها. كانت عيناها الجميلتان تفيضان بالدموع، وفي وجهها وداعةُ طفلة تستيقظ من نومها على كارثة. كنتُ مثلها أستيقظ على الكارثة التي دُفعتُ إليها، وكان ما اقترفتُ يلوح في الذاكرة شاحبًا كأنّما مرّت عليه سنوات.. التجأتُ إلى البزّة العسكريّة، ومثلي سعت إلى فستانها الفضفاض الكثير الألوان..

حين اقتربتُ من إزميرالدا جفلت.. فتحتُ لها باب الحمام، فاغتسلت قبل أن أضع بين يديها ضمّادات وبعض الأدوية لتطبّبَ الجرح الذي افترعتُهُ في رأسها لحظة شبقٍ. كانت اللّوثةُ تربضُ في الأعماق وإزميرلدا الفتنةُ هدهدت القمقمَ المغبرّ، فاندفعَ منه ماردٌ جبّار.. أرقدت في ظهري نصالَ فتنتها، كنتُ ثورًا يتصبَّبُ شهوةً وينفثُ من منخاريه حممهُ، وخانتها هي حنكةُ الماتادور... لم تترك على جسدها قطعة لونٍ تموّهُ به غضبي وتروّضُ مدّي الهائج.

إزميرالدا ابتسمت وأنا أضع على جرحها الضمّادة، ثمَّ لم تنفكّ ابتسامتُها أن انقلبت إلى ضحكة، ضحكة ضاجّة فاجرة، حتى خلتُ أنّها قد أصيبت بحمق. بعد ذلك بأيّام، قالت لي وهي تسير عارية في غرفة نومي.. كنتُ أكاد لا أراها وقد نهض بيننا ضباب الحشيش، قالت إنّ ذاكرتها مصابة بحوادث بغيضة، وإنّ أكثر من نصلٍ يرقدُ في أعماقها، كانت على شفا جرح غائر تسيرُ دون أن تعلنَ عنه أو تسكتَ دون ذلك. قالت إنّ ما فعلتُ بها كان يرمّمُ الصدعَ في أعماقها ويرفو قلبها المثقوب.. قالت إنّها لا تدري كيف، لكنّها في حضرة الطوفان الذي أعلنتُ عليها تخفّفت من صخرة ماضيها، وأنّني كشحتُ طبقات القيح الذي لا تنفكُ تراكمهُ فوقها الذاكرةُ. قالت بفرنسيّتها الركيكة إنّها تشتهي اغتصابًا آخر لا يقلُّ دمويّة، وإنّها ما عادت

تشتهي الجنس إلّا اغتصابًا.. لا أدري إن كانت قد ربَّت فيَّ أيّامها اعوجاجًا، أم أنَّ اعوجاجي كان قائمًا، ولم تفعل شيئًا سوى أنَّها أماطت عن وجهه المسخ اللّئام.. لا أدري!

يقول مستر هارفي كلارك إنَّني مسخٌ، وإنَّني أكذوبة، وإنَّ الجزء الذي أضعتُ من ذاكرتي هو مفتاح كلّ مستغلقات حياتي، لكن لا سبيل إلى استرداد ما ضاع. وكثيرًا ما أمعنتُ في الثقوب السّوداء التي تملأ الذاكرة علَّها تُفصحُ.. لكن دون جدوى. حينَ أدخّنُ الحشيش ذاك الحشيش الذي وحدها إزميرالدا تعرفُ أسراره، تخلطُ المحلّي منهُ بأعشابها اللاتينيّة فإنَّه تبرقُ في الذهن صور عجلى سرعان ما تضمحلُّ، هي نفسها تلك التي تقضُّ مضجعي كلّما باغتتني في حلم كئيب.. أحدية عسكريَّة ثقيلة، دم يفترش الثلج، دموع تندلق ساخنة، عويل وأشياء أخرى، أكاد أجزم أنَّني أرى أكثر من هذه الأشياء، لكنَّ النسيان يدركها قبل أن تدركها ذاكرتي الكسولة.

وأذنتُ لها بأن ترى سيمون، وراقبتُ من فوق اللّقاءَ.. كان ظلَّ جسد، سرقت منه الأيّام السّوداء كسوة اللّحم، وأبقته جلدًا يابسًا على هيكل عظميّ.. وحدها نظراتُه الحادَّة لم تكسرها الأيّام العجافُ، وتلك البسمة التي لا أدري أيَّ ربٍّ كريم أسعفهُ عليها، ولم أكن أكرهه، كنتُ أحسدُه بشدَّة، أخذت ما له اغتصابًا (إزميرالدا)، وطاردت الجميلة جواهر إلى أن أتعبتُ خطاها وأسقطتُها في شَرَك الرذيلة، ولم يحدث أن شعرت نحوه بالكره. في الأقبية السرِّيَّة، كنت أعاملُه مثلما أعامل بقيّة السجناء، والعذاب الذي يحيقُ به هو نفسه الذي يحيق بهم، مع فارق طفيف؛ كان الوحيد الذي لم أكن أشرف على عمليّات تعذيبه.. لم يرَ وجهي، ولم أكن لأخاف من نظرات المغلوب في عينيه، لكنَّني لم أشأ أن يعرف أنَّ الشخص الذي طارد جوهرته وتحرّش بها هو نفسه من زجَّ به في الزنزانة ليستفردَ بحبيبته، لم أشأ أن ألغّمَ قلبَهُ...

لم يحدث أن ربَّيت في قلبي ضغينة على أحد، حتى أولئك السجناء الذين كنتُ أستودي أيّامهم صوب الإفلاس، كنتُ أفعل ذلك بمنطق ما يمليه الواجب لا غير. كان رأسي محشوًّا بأفكار جاهزة وصنوف من التعذيب، كانوا يتذرَّعون بمنطق، وكنتُ أشهر في وجوههم منطقًا مضادًا، لكن لم يحدث أن ربَّيتُ في قلبي ضغينة على أحد، ومستر هارفي يقول بأنَني بآثامي أربّي ضغائن مضادَّة في قلوب الآخرين.

ولم أكن معنيًا بقلوب الآخرين ولا آلامهم... بارد كنتُ كشتاء في القطب الشماليّ، وحده حبُّ جواهر حزَّك الصخرة النائمة يسار الصدر،

ووحدهُ جسد إزميرالدا لفت انتباهي إلى مناخاتي الاستوائيّة، اشترت رؤية حبيبها بحفلة جنس وبعض الرضوض والكدمات، بعدها ما عادت تطلبُ أن تراه. تُسلمُني جسدها دون مقابل، قبل أن تستقدم حلقةً من «الهيبيّات» الحسناوات، جئن بأجسادهنَّ اللّدنة التي تفور رغبات، ليخُضن تجربة الاغتصاب، نكاية في الرأسماليّة والعولمة والتمدُّن.. لم أكن أدري كيف يكون ذلك، لكنّني استسلمتُ للعريّ المتعدّد الجنسيّات: أوروبيّات، أميركيّات، برازيليّات ومغربيّات أثّثنَ بعريّهنَّ منزلي، وأغرقنهُ في ضباب الحشيش.. وأنا كنتُ بينهنَّ أحمل معولي، وأخبطُه في أكثر من جدار.

أستوديهنَّ وهنَّ يكابدن دوار الخمر والحشيش صوب المزالق القاسية، آخذهنَّ مثنى وثلاثًا، وأدشُّنُ في كلّ جسد شعابًا وذكريات آثمة، بيتي ماخور كبير، والآلة، آلةُ التعذيب تركتُها تحفر في اللُّحوم المتفسّخة هناك في الأقبية، وانشغلتُ أنا بفتوحاتي: كلَّ ساعة تئنُّ تحتي قطّة هاربة من آفات واقعها، لا أبرحها إلّا لتعالج ارتضاض جسدها، أسيرُ بينهنَّ الذكر الوحيد، في يدي مدية مدبّبة تسافر بين الشفاه والنهود المنحوتة والأرداف المترجرجة..

الهيبيّاتُ غجريّاتُ الزمن الجديد، عُجُنُ صلصال دفعتها رياح الشمال إلى منزلي، فكنتُ المطالبَ بأن أخلطَ طينهنَّ المجدب بمياهي قبل أن أعيد تشكيلهنَّ من جديد، كلَّ واحدة تُحاول بي أن تتطهّر من ماض ثقيل ينوءُ به ظهرها؛ وبهنَّ كنتُ أربّي في أعماقي **وحشًا، وحشًا ضاريًا بعدهنَّ لن يعشق الجسد إلّا اغتصابًا**. قضيتُ رفقتهنَّ سنةً بحالها. لا ترحلُ مجنونة إلّا لتحلَّ مكانها أخرى، وأنا وإزميرالدا ثابتان.. حين تقتحمُ ضبابنا المغشّي للأبصار ضحيّةٌ، نعقدُ جسدها في إناء من خمر، نفركُ جسدها معًا قبل اغتصابها. كانت أوّل الأمر تكتفي بمساعدتي على ضبط الضحايا، تلتصقُ بهنَّ وتُشرع أمامي بعنف أبوابهنَّ، لكنّها ما فتئت تستعذبُ الأمر.. تتمخّكُ بالضحيّة أكثر، وتدفعُ أصابعها أبعد ممّا ينبغي، تمصُّ الألسنة المعطّرة بحلاوة نبتة استجلَبتها من أعماق الأدغالِ البوليفيّة، وتتركُ نهديها في حوار مع نهدين آخرين، وأنا كنت أزدادُ انتصابًا، أزدادُ اغتصابًا كلّما التحمت بغيرها، وأسافر بفيضي بين حقلين مجدبين.. لا أملُّ ولا تكلُّ رغباتي اللّاعجة، شهورٌ من الفسوق لا أذكر أنّني برحتُ حربًا إلّا لأفترع أخرى، شهورٌ بحالها وأنا لا أكفُّ أبحلقُ في ضباب أدخنة الحشيش، وأمعن في صخب فرقة البيتلز, وأنغام جوان بايز وجون لينون محاولًا سبر ذاتي ومعميّاتها... أخذتُهنَّ اغتصاباً، فأعدتُ تشكيل هلام أرواحهنَّ المتعبة بما

حفلها الآخرون من كدمات وأوجاع...

«لا يطبّبُ الوجعَ الكبير إلّا وجعٌ أكبر..»

ظللتُ أكرّر العبارة دونما ملل وأنا أحرس مساء البحر الذي يتمدّد رويدًا رويدًا. وحين قدمت الدكتورة ليلى لموعدنا، وبعد حديث مطوّل، وجدتُني أردّد العبارة في سياق آخر، تلقّفتها هي كما لو أنّها كانت تنتظرها، وردّت مبتسمةً:

وهذا على وجه التّحديد ما كنتُ أنوي مفاتحتك فيه..

ماذا تقصدين يا ليلى..؟

لا يطبّبُ الوجعَ الكبير سوى وجع أكبر، وأنتَ تعاني من فصام خطير وتلفٍ في الذاكرة، ولعلّ مفاتيح العلاج علاج الفصام تكمنُ في الضفّة الأخرى المنسيّة من ذاكرتك، كلّ العطب النفسي الذي تخبّطتَ فيه ولا تزال، هو بسبب البتر الذي لحق ذاكرتَك. الحلُّ الذي ربّما سيُفضي إلى صلح مع الذّات أن تستردَّ الجزء المنسي، السنوات الثلاثون المسروقة منك يمكن استردادها، لكنَّ الطريق إلى ذلك ليست يسيرةً. الطبّ النفسي وحلولهُ تكاد تكون فقيرةً في هذا الباب، في رأسي فكرة لا أدري إن كان يجدر بي أن أقترحها عليك..

بل يجدر بكِ ذلك.. على كلّ حالٍ، أنتِ الطبيبةُ وأنا معتلٌّ، مختلّ ويعنيني استرداد ما أضعتُ، بي توق لمعرفة ما يضمرهُ وشاح النسيان من أسرار، بي فضول لاستكناه الحقيقة!

حسنًا.. أعتقد أنَّ الصدمات الكهربائيّة، على قسوتِها، قد تكون الأمر الوحيد الكفيل بإنعاش ذاكرتك الأولى...!

سافرت في الذهن كلماتها ثقيلةً ينوء بها القلب, كان سربٌ من النوارس يحطُّ على مقربة من الشاطئ، تتحرّك هذه الطيور بأرجلها الدقيقة المسلولة فوق الرمل ثمَّ تعاود التحليق، رياح خفيفةٌ أسدلت على ملامح ليلى الطفوليّة شعرها الكستنائي، وبي كانت تفزُّ ذاكرتي, ذاكرتي المنقوصة عبر ردهات تحت الثكنة العسكريّة إلى غرف التعذيب، لتباغتني الوجوه الداوية التي تكاد من هول الكهرباء الساري في الأجساد تتشقّقُ، لا أكاد أكبس زرّ الكهرباء كي يهادن تعبهم حتى تميل الرؤوس كلّ الميل إلى الأمام، ويقف أصحابها على أشفاء الموت، قلتُ على نحو حاسم:

إذا كان في الأمر أملٌ ولو ضئيلٌ في استرداد ما أسقطه النسيان،

فأنا موافق!

ليلى

٢٥ ٠٥ ١٩٩٥

قبو العيادة

جئتُ إلى هذه المدينة مدجَّجةً بقلقي الأبديّ، أتأبطُ حزمة من الأسئلة المتيبِّسة. عمرٌ كامل و أنا أجفِّفُ أخضرها، دون أن تفضي بي إلى أجوبة ترمِّمُ خلاء الهويّة. قبل أن تلفظ أنفاسها، تركت لالّة يامنة رصاصة في القلب. كنتُ في الثانية عشرة من عمري، وردة تتفتَّحُ رويدًا رويدًا في ذلك البيت الفسيح، وتتدثَّرُ بحنان يهبُه أبوان أنيقان في مدينة ليل الفرنسيَّة، هي كانت من ليكسوس وكان هو قسنطينيًا، وحَّدتهما قسنطينة، وتبنَّت حبَّهما قبل أن تلفظهما دونَه، زعمت أنَّها كانت تحملني في بطنها إبَّان ما عرفَ ب «المسيرة الكحلاء» حيث ثمَّ تهجيرُ الكثير من سكَّان الغرب إبَان أزمة ديبلوماسيَّة! فرّقتهما قسنطينة بعد أن وحَّدتهما، ولمَّت الغربة شتاتهما أخيرًا...

أعرف أنَّني وُلدت في هذه البلاد السبخة، بلاد العُربِ... لكن لا أذكرُ أنَّني كنتُ في مكان غير «لِيلْ».. نبتُ بينهما غصينًا ضعيفًا ألصق بتراب حبَّهما، وتمسّك بفرصته في الحياة. الغصن الصغير الذي كنتُهُ ما كان يعلم قبل احتضارات لالّة يامنة أنَّه من جذع آخر انتزع، وأنَّه لا ينتمي لثرابها.. قالت لالّة يامنة وهي تقاوم النزع الأخير إنَّها عقيمٌ، قذفت كرة اللَّهب المبهمة في أذنيّ، ثمَّ تمهَّلت ريثما تستردُّ أنفاسها المسروقة، وتركت الأرض تميدُ بي والسَّماوات تنهار، أكاد أجزمُ أنَّ ما استدرجها بسهولة إلى الموت هي فجيعتها بي.. قالت إنَّها لا تعرف تلك المرأة التي تخلَّت عن طفلتها، لكن قيل لها إنَّها تشكو من عَطَب نفسيٍّ بالغ، يستحيل معه أن تقوم بواجبات أمومتها. كانت تشكو من حمق، وكان واضحًا أنَّها قاب قوسين أو أدنى من كرسيّ الانتحار.. قالت كلامًا كثيرًا فائضًا عن حاجتي، ثرثرة لا تسدُّ الثقب الكبير الذي دشّنتهُ في القلب رصاصة بوحها الأخير، ولا الخلاء المترامي الأطراف الذي أصابت به الرُّوح.. انطفأتْ بعد أن أرغثَ وأزبدتْ، انتهتْ وفي عينيها حسرة غامضة. في ما بعد، حين كشح مدُّ الزمان غلالة الألم العميق استفقت على وخز الأسئلة المسنَّنة: مَنْ أكون؟ مَنْ أبي ومَنْ أمي؟ وغيرُها كثيرٌ ممَّا كنتُ أقلقُ به راحة (عمّي أحمد) هكذا صرت أناديه بعد خريف أبوّته الزائفة لكن ما كنتُ أعود من عنده بما يرقّعُ أسئلتي الملغَّزة..

كبرتُ وكبرتْ معي الأسئلة الضارية، تكوَّرتُ في منعرجات الحياة

ككرة من الثلج لا تنفكُ الأيّام والأسئلة القلقة تزيدها كبرًا، ربّيتُ في أعماقي أوهامًا عذبة عن هذه الأمّ التي تخلّت عنّي بسبب اعتلالها النفسيّ، وحين بلغتُ سنَّ الرشد، انفصلتُ عن عمّي أحمد. سعيتُ إلى باريس، كانت في النَّفس رغبة عارمة في دراسة ما يرمّمُ هذه النَّفس المكلومة التي خانها حليبُ البدايات، في قلبي كان يرقدُ أملٌ شاحب، أن أدركَها حيَّة، وأطبّبَ وجعها النَّفسيّ. كان الأمر في البدايات مجرَّد أمنية تافهة، تلوبُ بخاطري حينًا، وتدفعُها في كثير من الأحيان همومي اليوميَّة، لم أدرس الطبَّ النَّفسيّ إلَّا لأنَّني كنتُ آملُ في تطبيب نفسي أوَّلًا، ثمَّ تطبيب تلك المرأة التي لا أعرفُها، تلك التي جاءت بي إلى الدُّنيا، كنتُ لا أنفكُ أهجس بالفكرة ذاتها سنوات؛ سأعود، لا بدَّ أن أعود، لا بدَّ أن أسعفَ اعتوارَ نفسها قبل فوات الأوان.. أفكار وأمنيات كهذه كانت تهضبُ بها نفسي بين الفينة والأخرى.. قبل أن أركن بعدها إلى اليأس.

كنتُ أعلم أنَّني لا أملك من المعلومات ما يكفي لأهتديَ إليها، أعرفُ اسم المدينة، لكنَّني لا أعرف اسمها أو لقبَها، لا أعرف أيَّ شيء عنها سوى اعتلالها النَّفسيّ، وهذه الأقراط الأمازيغيَّة الموغلة في التاريخ، قالت لالَّة يامنة وهي تدفئُهما في يدي، إنّهما كلُّ إرثي من أمّي البيولوجيَّة! ولم تبرح أذنيّ إلَّا لمامًا.. كنتُ بهما أبالغ في تربية الوهم، كانت الأقراطُ تذكيرًا دائمًا بأنَّني مطالبةٌ بالنبش في حفريات ماضيّ، والوصول إلى ما أعالجُ به قروح الهويَّة.

وحين حصلت على الدكتوراه، كان عقلي يضجُّ بفكرة واحدة، العودة إلى تلك المدينة. عمّي أحمد الوديعُ دائمًا قد ترك في حسابي وديعة مهمَّة، تسعفُ على تدشين عيادة في إحدى ضواحي باريس، لكنَّني آثرتُ أن أنتعل الجنون، وأركب أوّل سفينة تتّجه إلى الجنوب، قرّرت أن تكون عيادتي في هذه المدينة لأنَّني أنتمي إليها، ولأنَّه من المحتمل أن يكون والديّ فيها على قيد الحياة، و أنا أشتهي استدراجهما إلى حادثة قدر، وأمّي تلك التي تركتني بعد اعتلال نفسيّ، لا بدَّ أن أهبَها بما تعلّمتُ من أجلي وأجلها سلامًا مع الذَّات، مهما استفحش فيها المرض، لا بدَّ أن تجد عندي البرء المنشود.

لكن، حين انتهيت إلى هذه المدينة، اكتشفت بهتان الوهم الذي نبتَ منذ وقت مبكر في دواخل الطفلة الجريحة التي كنتها، أوَّاه.. لا أتعس ممَّن يربّي في قلبه وهمًا، وهمًا تسقيهِ السّنوات، إلى أن يجيء يوم يلتهم فيه صاحبه! كنتُ كلّما طرقت بابًا انغلق، دون أن يمنحني خيطًا يقودني

صوبها. هذه المدينة تاريخ من الخوف، والناس ما إن تسألهم عن شيء، أيّ شيء مهما بدا تافهًا حتى تجدهم يتطلّعون إليك بنظرات مريبة، كأنّك مخبرٌ ستشي بهم، أو لكأنّ ما سيفضون به إليك سيدينهم، كانوا خائفين جدًا، رغم أنّ النّظام لا يبدرُ منه أيُّ عنف يذكرُ. انتبهت فيما بعد أنّهم يحملون في أعماقهم تاريخًا من العنف، يرخي بظلاله الغامقة على حاضرهم..

لم أظفر من ألسنتهم التي تسبحُ في لزوجةٍ من خوف بجواب أو دليل، تقاذفتني حكاياتهم من عائلة إلى أخرى، ومن قبر إلى آخر، دون أن تنتهي بي إلى يقين راسخ. مع مرور الأيّام، فهمتُ أنّ أسرار المدينة معلّقة إلى جوار مفاتيحها على خاصرة سجّانها... لم أسمع عنه منذ حللتُ بهذه المدينة ما يسرُّ، يسمّونه السيّد جهازًا، رسميًا هو الجنرال. وحين يتهامسون يطلقون عليه لقب «الميرـ»، لم أتقدّم صوبَهُ، وأغلبُ نساء المدينة الطيّبات نصحنني بأن أتجنّب الرجل. سيرتهُ شائنة عفّرتها حروب الماضي، وشذوذ في الطّباع.

لكنّ الأيّام كانت كفيلةً بأن تسحبَني صوب دوائره، لم يكن بذلك السوء الذي تحدّث عنه النّاس في المدينة، كان حصانًا أتعبَتهُ حروب زمن غابر، وكنت أتأبّط حزمة من الأسئلة المتيبّسة، أتحيّنُ الفرصة المناسبة لأدفنها بين ذراعيه، وأطالبَهُ بعد ذلك بأنّ يجلوَ لي كلّ الأسرار، لكن كانت تخرمُ روحهُ عاهات نفسيّة شتى، وتنغلُ في وجدانه المعتلّ مثل كمشة من الديدان أو أكثر. كان يجدر بي قبل أن أستدرجَهُ إلى ماضيّ أن أصيخ السّمع إلى ماضيه، أن أظفر بصداقته، تلك التي ستكون مفتاح كلّ الأسئلة العصيّة. هو فرعونُ المدينة، ولا بدّ إن أراد الحقيقة أن يُسيّرَ خلفها جيش سَحَرته..

انشغلتُ عن أسئلتي بتطبيب قاسم جلال، كانت تعتور شخصيّتَهُ أمراض لا حصر لها، وكان يلزمُ أن أظهر له كفاءتي وأن أنتزع ثقتَهُ انتزاعًا.شخصيّتُه تتبرقعُ خلف آلاف الغلائل وتتلوّن بأكثر من لون، كان يرزَحُ تحت وطأة فصام مرير، فصام كاد يعلنُ عليّ فضائح الدنيا.. الاغتصاب؛ تجربة مريرة كان عليّ أن أنسحب إثرها بعيدًا عن هذه المدينة الآسنة، لكنّني قرّرت التمادي. لم أشأ أن أرحل بألغازي، وهذا الفتقُ في روحي لا بدّ أنّ عودتي دون أجوبة لن تزيدهُ إلّا اتّساعًا، ثمّ إنّني أعتقد أنّ علاج حاكم المدينة قد يفضي إلى مصالحتِه معها، ولعلّ هذا سيُغيّر الكثير مستقبلِها.

ما عدت أستقبلُه في العيادة إلَّا بعد أن يمدَّ ساعدهُ لحقنة تشلُّ جسده، كان **يأنسُ لعجزه** المؤقَّت، وكنتُ أتَّقي بذلك نوبات فصامه... كان يعتقد جازمًا أنَّ آفةَ حياته هو البترُ الذي طال ماضيه، وكنتُ أعتقد أنَّ آفة المدينة هي فصامُهُ، ضاقت بي الحلول الممكنة في علاجه، كان يجد في كلمة «فصام» غضاضة وانتقاصًا من هيبَتِه، بل أعتقد في كثير من الأحيان أنَّه لا يعبأ بالعلاج، يهمُّه الجزء الذي سقط من ذاكرتِهِ، لكن لا أعتقد أنَّه يعبأ بتطبيبي، ما يعنيه أكثر أن يبوح.. أن يجد أذنًا تصغي إلى أوجاعه باحترام.

وكنتُ أعلم أنَّ أكثر ما يغريه بعيادتي هو احتمال أن يتعثَّر بذاكرته القديمة، ويجلوَ أسرارها الغامضة التي ترخي بظلالها على أحلامه، وعلى اللَّحظات تلك التي ينفلتُ فيها من عقال وعيه. كان يجدر لكي أطبِّبَ بالشحنات الكهربائيَّة فصامَهُ أن أغريَهُ بأنِّني بصدد تنشيط ذاكرته المطمورة، كان يلزمُ أن أمنِّيه بأنَّ الصدمات الكهربائيَّة قد تُنشِّطُ هذا الجزء المطموس! بهذه الكذبة الصغيرة استطعتُ أن أستدرجَهُ للقبو البارد، استطعتُ أن أحزم جسدهُ إلى السَّرير الخشبيِّ... قال لي إنَّه يعرفُ التداوي بالصدمات الكهربائيَّة، عالجَ مصائر سُجنائه بهذه الشحنات، منهم من قوَّم اعوجاجَ شخصيَّته، ومنهم من اقتادهُ صوب الحفرة المعتَّمة. في الحصص الأولى، أبدى رباطة جأشٍ لا تليقُ بمن هم في سنِّه، لكنَّه انخذل فيما بعد، تشظَّت روحهُ مزيدًا من التَّشظِّي دون أن يلوح في الأفق ما يشي بتعافيه، أستلمُ جسده خمس مرَّات في الأسبوع، يأتيني صباحًا، وتظلُّ الآلةُ تهدر في جسده، قبل أن تلفظَهُ مكدودًا في المساء..

في البدء، كان لا ينفكُّ يجهش باسمها، تلك التي شغفتهُ حبًّا.. حين تلتبس بجسده الصعقة يطبقُ عينيه بحزم، لا يصرخ، ولا تدمع عيناه. وحين ترتخي أعضاؤه يذرفُ الكلام مدرارًا، يتحدَّث عنها كأنَّها بأصابعها الأنيقة يقول تمرُّ على جبينه الذي ينزُّ عرقًا.. فيما بعد، حين توغَّل التعذيب بعيدًا في لحمه، اعتورَ نسق حديثِهِ كثير من الغموض، كان يتحدَّث عن أشياء غريبة، لا تقعُ ضمن نطاق ما سلف الحديث عنه. لحظتها فقط، بدأتُ أتأكَّد أنَّ الرجل يتحرَّش بالجدران الهشَّة التي تفصلهُ عن تلك المدائن المهجورة التي تشكِّلُ كلَّ ذاكرَتِهِ المنسيَّة، ولم يحدث ما يؤكِّد أنَّه شفيَ من فصامه ولا ما ينفي ذلك.. ولأنَّ العلاج تأسَّس على أكذوبة، فلا يجدر أن أسألهُ خارج نطاق موضوع تداويه، وعليَّ وحدي أن أكتشف بالملاحظة البصريَّة، بالمتابعة وبأسئلة فيها من المواربة الكثير مدى تحسُّن حالَتِهِ..

لكن لا يبدو أنَّ الصعقات الكهربائيَة قد آتت أكلَها، الرجل له تارات يقفُ فيها على حوافُ الدَّهشة مشدوهًا مبهوتًا، له أويقاتٌ يثورُ فيها على الأحزمة التي تلصقهُ إلى خشب السَّرير، في عينيه كنتُ أرى الوحش الذي حاول أن يغتصبَني، لولا عنانة طارئة حالت دون ذلك. الفرق بين الرجل الذي يثورُ وتتوهَّجُ عيناه بشرر متطاير وتلجمهُ الأحزمة، وذاك الذي سعى إلى جسدي وطرحهُ على الأريكة عاريًا هو الانتصاب. حين ظفر بعريّيَ خانهُ حصانه، وتهجَّى فوق جسدي كصبيٍ يوقّعُ خربشاته على جدار.. أمَّا الآن، فيبدو من ارتفاع سرواله أنَّه هائج، ويبدو أنَّ **الصعقات الكهربائيَة تحرِّض فيه شبقًا ما** مبهمًا...

قال لي وهو يستعيدُ بتعب الاندحار المأساويّ للمير السابق:

كان النَّاس في المدينة أيَّامًا بعد أن أمسكتُ زمامَها يتندَّرون بمآلِ المير، وكان لا ينفكُ يقول بعضهم لبعض «باش قتلتِ باش تموت يا ملك الموت»، بمعنى أنَّ القاتل لا بدَّ يُدرك المآل المأساويّ للقتيل.كان ذلك المثلُ يعنيني ويعني القتلة أجمعين. كما قُتلتُ سأقتلُ، وأنا على هذه الخشبة الباردة، أستعيد جميع الأجساد العطنة التي سرى الكهرباء في رمادها، ونثرها قبل أن يوحِّدها الكفن.. أشعر بمرارة أسفل اللّهاة، لا ندمًا، بل لأنَّني لم أكن حاسمًا، فبعض الأجساد، لا سيَّما تلك التي كانت معدَّةً للموت.. بعد أن أفرغت من أسرارها، كان يجدر بي أن أهبَها موتًا سريعًا حاسمًا، بدل تعذيبها تعذيبًا لا معلومةَ تُنتظَرُ من ورائه.

كان واضحًا أنَّ الصعقات التي تستنزفهُ تسرقُ منه خرائط حاضره، وتفرض عليه إقامة جبريَّة في الماضي، حيث الحروب الطاحنة والمآسي والفتوحات.. يسبح في أكثر من عشرين سنة غائمة، لا يتجاوز غلالتها من جهة الحاضر، ولا يبحر أبعد منها صوب الذكريَّات الموغلة في القدم..

لم أكذب حين قلتُ له بثقةٍ إنَّ الأقدارَ أودعت مفاتيح فصامه في مستودع السَّنوات المسروقة منه، لم أكذب حين قلتُ إنَّ طفولة المرء وحدها تحدِّد من يكون، وأنَّ ارتباكهُ في إدارة شؤونه الحياتيَة لا يُفسّرهُ سوى أمر واحد، أنَّه لا يعرف أصلًا من يكون، وأنَّ طفولتهُ مسروقة منه. لذلك تجدهُ طيلة حياته يتخبَّطُ في تجارب شتَّى هو في غنى عنها، يفعل ذلك لعلّهُ يفكُ طلاسمَه النفسيَّة البالغة الغموض..

كانت الكهرباء تسري من جسده إلى روحه، ويحارب فيه ذلك الصوت النشاز الذي يسرقُ منه مقود جسده ويدفعهُ إلى الآثام، مثلما إلى المقصلة يُدفع محكوم بالإعدام، لكنَّ الكهرباء تنقطع قبل أن تبدأ المعركة،

مع توالي الجلسات المفلسة، بدأت أركن إلى ظنٍّ قاس: قتلُ هذا الرجل وحدهُ الذي سيقتلُ النشازَ فيه!

حالته مستعصية جدًا تتطلّب جيشًا من الأطبّاء النفسيّين المتمرّسين، المرض استشرى في روحه، ومنصبُه ونفوذُه في هذه المدينة ساهم في تربية الوحش فيه. أودُّ لو أساعده حقًّا. في البدء فعلتُ ذلك، لأنّني كنتُ مطالبة بكسب صداقته قبل أن أفضيَ له بمحنتي، لكن حين توغّلتُ بعيدًا في مداراته، وجدتُ فيه رجلًا معطوبًا بأقداره العصيّة، ووجدتُه عطب المدينة الأكبر. هو الآن بعد صعقة تطاولت أكثر ممّا ينبغي واقفٌ بكلّ ثقله على بحيرة جامدة، بحيرة رقّ جليدها.. يتشقّق من حوله مثلما قبله تشقّق قلبُه ومصيره.على هشاشته ينام ويتوسّدُ تعب الدُّنيا، لا حضورهُ كامل ولا هو يُسلمُ للغياب جسده المتهالك.. صعقةٌ قرّرتُ أن أنهيَ بها هذا الهبل. أطفأتهُ، لكن لا بدَّ أن يفيق..

هذا الرجل الذي جاء إلى هذه المدينة يحملُ في كهوف قلبه أقدارها الملعونة لا يموت. يغيبُ، لكنّه بخفّة العنقاء يلملمُ شتاتَهُ، ومن رماده ينتفضُ... مرّت ساعة على انطفائه، أنعشتُ أنفاسه المسروقة وكمّمتُ بالأكسجين فمه، جسستُ نبضهُ، فإذا هو معتدلٌ، عيناهُ تقفان بين انفتاح وانطباق.. هذه آخر مرّة أفعلُ به هذا، مرضهُ استشرى في أعماقه، وإلى أعماقه سحبَهُ الثقب الأسود، لا سبيل لكي يواصل إلّا بتأبُّط علبة الأدوية، ولا بدَّ أن يستنكف عن ذلك..

تململت أصابعُه أخيرًا.. ثلاث ساعات مرّت وأنا أستحثُّه على الاستيقاظ، لم أكن خائفة من أن يسرقَهُ الموت، لكنَّ مثل هذا الانتظار مثارُ قلق، ثمَّ إنَّ خروجَهُ من العيادة في مثل هذا الوقت، لا بدَّ أن يشحذَ الألسنة ويحرّضها على النمائم، لا يجرؤ أحدهم على التصريح بشيء، لكنَّ العيون تَفضحُ ما تضمرهُ القلوب.. تململت أصابعهُ، كأنَّ الدم تمشّى فيها بعد جفاف مئات السنين، واهتزّت أهدابُه، كان في عينيه اللتين تطلّعتا إليَّ ببلاهة واضحة شيء غريبٌ، التعبُ فيهما لا يزال قائمًا، لكنَّ فيهما شيء أفدح من التعب.. لم ينبس ببنت شفة، ظلَّ يتطلّع إليَّ مشدوهًا، كأنَّه يمعنُ في البحلقة في أعماقه أكثر ممّا يبحلقُ فيّ، كانت تشي به عيناه، وتقول إنَّ الصعقة التي آثرتُ أن أتوّجَ بها فشل دورة العلاج قد كسرت فيه شيئًا ما عميقًا وأنَّ الرجل قد نحتت أعماقَه الصدمة، ولا بدَّ أنَّها أربكت فيه الكثير.ولم يتحدَّث، رغم أنّني بادرتُه بأكثر من سؤال، وخفتُ أن أكون قد سرقتُ من مير المدينة وجنرالها الأعظم الكلام..

كانت نفسي تهضبُ بآلاف الهواجس كلَّما تطلَّعتُ إلى البلاهة في نظراته.. أقلبُ داخلي مئات الكتب، وأستعيدُ المحاضرات والخرجات التدريبيَّة التي كنَّا نخرج فيها إلى المستشفيات لمعاينة المرضى، استجديتُ الذاكرة أن تهبني مفاتيح هذه الحالة التي يرزحُ تحت وطأتها الرجل، لكن دون جدوى! أمَا ما حدث بعد زهاء ساعة من النظرات المبهوتة التي لا تقول شيئًا، فقد كان أمرًا غريبًا جدًّا، أشياء منهوبة من بعدٍ آخر وزمن آخر، ما كان يجدر أن نتلصَّص من كوَّة شخصيَّته القلقة عليه. بعد ساعة، كان فيها قاسم يمعنُ في استرداد أشياء ضائعة داخلهُ، طفحت عيناهُ بدموعهما، أرخيتُ الأحزمة التي كانت تشدُّهُ إلى السَّرير الخشبيّ، فترجَّل عنه، وسار خطوات إلى الأمام قبل أن يخرَّ أرضًا. كان يبكي بكاء الطفل حين يفارقُ أمَّهُ فراق المنتهى، ولم أكن أمام فداحة الموقف أملكُ من الكلمات ما أسعفُ به انخذالهُ. سعيتُ إليهِ أوَّلَ الأمر بكلمات عجلى مضطربة، ولم أملك في ما بعد سوى أن أعالجَ ساعدهُ بحقنةٍ هدهدت جَزَعهُ، وفتحت للبوح بابًا.

الرسالة (٦)

من قاسم إلى جواهر

خريف ١٩٩٥

«كان يمكن لقدر كامل أن يلغى لو أنكِ ألغيتِ حركة وحيدة قدحتِ بها شرارة حريق يضمرهُ فقدان الذاكرة، كان للوجع أن يكون أخفَّ، والحياة لا بدَّ أنَّها كانت لتكون أفضل، لولا أنَّكِ آثرتِ أن تحرّكي بسخطِ ذكرى وجع لم أكن وقتها أعلمهُ، لكنَّه كان، كان في الأعماق السَّحيقة جرحًا مفتوحًا ينتظرُ أصابعكِ الرقيقةِ لتنكأه، وتدفعني لألتصقَ بك على نحو أعمى.

أحببتُكِ عن سبق الإصرار، وأنا أعلم أنَّك ملَّكتِ القلب غيري، في تلك اللَّحظة التي نهض فيها حبّكِ داخلي انتصبت أمامي حقيقة موازية، أنَّكِ ملك غيري، وكان يجدر أن أنثنيَ، كان يجدر أن أفهم أنَّ ما بيننا، أو ما يمكن أن يكون بيننا، محكوم بالفشل الذريع، لكنَّ القلب لا يفاوض صاحبه. حين يشتهي لا يملك صاحبه إلَّا أن يذعنَ.

هو الحبّ، لا يكاد يستحكم بتلافيف القلب حتَّى يجفِّفَ أرصدة الإرادة، وقبل أن تبدأ حرب الإنسان الداخليّة، يجد نفسه صريعًا، لا سلطان له على ما اندفع من القلب مارِدًا. حبٌّ.. وحدها يدُ الحبيب تقدر على استدراجه إلى القلب وردّه عن غيّه.. لكن يا سيّدةَ الغوايات، كان يمكن أن نتحاشى كمينَ القدر، كان يمكن ببساطة أن نتمرَّدَ على مخطوطة أعدّها لنا ربُّ الخطايا.. كان يمكن حين أنا خيَّرتُكِ، أن تختاري حبيبكِ، وتتنازلي أنتِ وهو عن المدينة، وتهربا إلى حيث لا تدرككما خطاي، وكان يمكن أن أهملَ عضّة الحبّ العضال، وأتمرَّدَ على نصٍّ كنت أعرف جيّدًا منتهاه. كان يمكن أن نغضَّ الطرف معًا عن لوثة الجسد وخلاء السَّواد في أعماقنا، لكن يا سيّدتي، حين تجدلُ الأقدارُ مصائرنا في الدُّنيا تعرف كيف تفعل ذلك، تلك لعبتُها الأثيرة، تحاصرنا بحتميّاتها، وتسدُّ أيّة ثغرةٍ يُحتملُ أن نتسلّل منها، وحين توقعنا في شَرَكها ترتجُّ السَّماوات لضحكها، وهي تتأمَّلُنا ونحنُ نتخبَّطُ في مزالقها».

أشباح الفرح،
أضغاث الذاكرة

«أعلم أنَّك أتيت لقتلي. هيا، اقتلني يا جبان. لن تقتل سوى رجل».

جيفارا موجِّهًا
حديثه للرجل الذي
سوف يُعدمه

«شيئان يحزّكان روحي: التحديق في الشمس، وفي الموت.. أريد أن أسافر في النجوم، وهذا البائس جسدي يعيقني! متى سنمضي، نحن أبناء الأرض، حاملين مناديلنا المدماة.؟».

من رسالة انتحار
فان غوخ لأخيه

«البقاء لفرنسا.. والجيش.. وجوزفين»!!

آخر ما قاله
نابليون قبل موته

قاسم

٢٦ ٠٥ ١٩٩٥

كورنيش المدينة

كنتُ أعرف، بعد أن تطاولت الصعقة الكهربائيّة أكثر ممّا ينبغي، أنّها خدشت الجدار الذي تحتمي وراءَهُ ذاكرتي المنسيّة، تطاولت الصعقة حتى رأيتُ الموت رؤية العين، استنزفت قواي. وفي تلك اللّحظة الشفّافة التي هتكتُ فيها غشاء السرّ، وخطوتُ خطواتي الأولى في ذلك الحقل الملغوم الذي يُشكّل كلّ ذاكرتي المسروقة، وجدتُ جسدي ينطفئ رويدًا رويدًا. حاولتُ أن أعتقل من تلك العوالم الغامضة القليل، لكنّني انطفأتُ، غبتُ ولا شيء أرجوه سوى أن أفيقَ وتلك العوالم عالقة في الذاكرة. فيما بعد، وأقصد حين صحوت وأدركت أنّها لا تزال قابعة هناك، تمنّيت لو أنّني لم أنطفئ على تلك الأمنية السخيفة، كان ما وجدتُه في تلك المنطقة التي كانت قبل الصعقة محظورة عليّ، أكبر ممّا يطيقُه العقل، تشظّت نفسي بعنف، وبعد ثوان من الوعي المرير، وجدتُني أتخبّطُ في دوّامة ذلك الماضي الذي كان من الغباء أن أكسرَ السدّ العالي الذي روّض طوفانهُ..

بكيتُ بحرقة، لأنّني أحسستُ لأوّل مرّة بأنّني مستنزف وضعيف، قزم أمام الذكريات العملاقة التي تدهسني أو تكاد.. وريقةٌ صفراء يابسة تدور في عين عاصفة مدمّرة، بقيّة إنسان أمام ألوف الأحجار التي تندفع فجأة من السماء وتطمرُ الجسد الواهي... ما كان يجدر أن أتحرّش بعواصف كان يُضمِرها فانوس تافه، وكان يجدر أن أستنتجَ بعد ردهٍ من الشّقاء والبؤس، أنّ الحياة بنتُ كلبٍ لن تضمر لي خلف ذلك الوشاح المعتّم سوى ألم لا يطاق..

لطالما اعتقدتُ أنّني ثريٌّ بما لست أعرف من ماضيّ، وحين انتهيتُ إلى ثرائيَ المزعوم أفلست حياتي دفعة واحدة، بحلقتُ طويلًا في أعماقي السحيقة وأنا أتأمّل الذّكريات المنسيّة من حياتي وهي تكرُ وتفرُ. كانت ذاكرتي سبّورةً سوداء، انكتبَ فيها فجأة كلُّ ما كُتب ومُحيَ لسنوات، كتابات فوق كتابات، ونسخ ونسخٌ مضادّ، وأنا وسط كلّ ذلك الضجيج، وسط السّيل، أقف مشدوهًا غيرَ مصدّقٍ بأنّ كلّ تلك الذّكريات المشعّة التي تبرقُ في سماء الذاكرة تعنيني حقًّا، وأنّ ذلك الوجه اليابس الجافّ هو أنا، وأنّ تلك الصُّور التي فهمتُ للتوّ تعالقاتها المبهمَة مع أحلامي تشكّلُ كلّ ذاكرتي المبتورة...

نخستني تلك الذّكريات القاسية في أعماقي، وحرّضت عليّ الدموع.. ذكرياتٌ يتمنّى من يحمل مثلها على عاتقيه أن يتخلّص منها بفقدان الذاكرة، وأنا.. أنا الذي كنتُ أرفل في حرير النسيان، كيف عنَّ لي أن أضرب حول خاصرتي حزامًا ناسفًا، وأتأمّل أشلائي وهي تتطايرُ في السّماء؟! أيُّ هبلٍ ألحّ عليّ لكي أمرّ دون أن أدري على أوردة عنقي بسكين متثلّمة؟

رأيتُ في منابتِ الطفولة ذلك الطفل الذي كنته يكاد وجهه يتشقّق من فرط البرد القارس.. رأيتُ الثلج، خلاء مترامي الأطراف من البياض، وقطيعًا من الخراف تكسو ظهورها ندف الثلج، رأيتُ أبي، يااااه... شابٌّ فارعُ القامة يدندنُ لحن أغنية أمازيغيّة، يربتُ على شعر رأسي الأشيب الغزير من حين لآخر، ويحاصرُ القطيع بالحجارة، يسحبُها من تحت الثلوج ويرسلها في كلّ الجهات لكي تحاصرَ شتاتَ القطيع. كان والدي راعيًا، وكنّا فوق جبال الأطلس، في تلك القمم الشمّاء القريبة من السّماء، نعيش في خيام سوداء.أمّي وديعةُ الملامح دائمًا، حين نعود أنا وأبي للخيام، نراها تحمل فوق ظهرها هضبةً من الحطب، بها تدفئ شتاءنا القارس. أبي يستعذبُ عيشة الفجر التي امتهنها أهله منذ غابر الأزمان، وأمّي دائمة التذمُّر، لا تقول كلمة إلّا وتبطّنُها بالشكوى، لكنّها تحبُّه. يتعبُها شظفُ الشّتاء، لكن حين يهلُّ الرّبيع، فإنّها تلبسُ حدائق ألوان مزركشة، تسبلُ شعرها، وعلى وجهها العذب تخضرُّ الأوشامُ أكثر..

أمّا حين يأتي الصيف ويلتمُّ شتاتُ الفجر فوق قفة عالية، فإنّهم يعلنون أفراح الدُّنيا، تُنحرُ كلَّ ليلة أكثر من شاة، ويولمون الولائم تباعًا، كأنَّ لا شيء يعنيهم غير الفرح. أمّا أيّام البؤس التي تكبّدوها شتاءً، والتي تسرقُ منهم في كثير من الأحيان بعض أقاربهم، فإنّها لتضمُرُ في أرواحهم وتتقعّرُ ولا ترشحُ سوى الأيّام اللّذيذة، حتى ليكاد يتهيّأ للدخلاء، الذين تسوقهم الصدفةُ وحرُّ السنوات العجاف إلى ظلال كرمهم، أنّهم قومٌ لا شغلَ لهم سوى النعماء.

لكنّني لم أكن أستعيدُ كلَّ ذلك الفرح المشاع إلّا من نافذة المأساة التي تلته، كان هناك قلقٌ يسبق العاصفة، لكن لم يكن هناك من مندوحة عنها، قبل أن يدركنا ذلك اليوم البغيض، ذلك اليوم الذي كما لو اجتُزئ من الجحيم، كانت ألسنةُ الرعاةِ تلهجُ بالويل القادم، سمعتهم يتحدّثون عن جيش وعن حروب ولعنات، سمعتُ أشياء كهذه.. ودار مثل هذا الحديث بين أمّي وأبي، وهو ينفضُ الغبار عن البندقيّة التي تقادَمَ عهدُها، كان

محمومًا بالأمر حتى قبل أن تصلَ إليه أيدي العدوّ.

الاستعمار كان قد تفشّى في ربوع البلاد منذ زمن بعيد، لكن ما كان يعنيه أمرهم، ما دام لا ينازعهُ على الجبل أحد، ثمَّ إنَّه لا يؤمنُ ببؤس الانتماء إلى وطن، وما حلّهُ وترحالهُ إلَّا دليل صارمٌ على أنَّه غيرُ معنيّ بحروبهم، الدُنيا بخير ما دام الغزاةُ يعدمون السُبُل إلى بلوغه في القمم الشمّاء، وحين يصلون، لا بدَّ أن يقاتلَ اليد التي تمتدُّ له بالشرّ، لا بدَّ أن يبترها أو يموت دون ذلك، كان يقول في لحظات صفائه وهو يربتُ على غرَّة حصانه الوحيد آسيد (أي الضوء بالأمازيغيَّة)، إنَّ كلَّ غزو لا بدَّ أن ينكصَ على عقبيه، وأنَّ البقاء كلَّ البقاء للسَّلام، يقول كأنَّه يلقي في روعي تعاليمَهُ لا أرضَ نملكها لتملكَنا، أرضُ اللّه جميعها أرضُنا، ومن المشين أن يلتصق المرء ببقعة واحدة ويتعلَّق بتلابيبها، ثمَّ يردف بحزم: من جال عاش أكثر، ومن تشبَّثَ بأرض واحدة مرَّ بخجلٍ في حواشي الدُنيا دون أن يغنمَ فرصة الغيب الوحيدة.

كان كثيرًا ما يتحدَّث بحبورٍ عن حكمة الأسلاف، تلك التي يملأ بها تجاويفَ قلبه، لكنَّ الشهور التي سبقت ذلك اليوم الداكن كانت مريرةً بحقّ، كان لا يُسقطُ عن (آسيد) السرجَ إلَّا ليُسرجَهُ مرَّة أخرى، لا يبتعد عن الخيام كثيرًا، في النهار يربطُ البندقيّة إلى السَّرج، سرج آسيد، وفي اللَّيل يتأبَّطها، ويوقدُ النَّار خارجًا، وأمّي كانت لا تنفكُ في تلك الليالي الغامقة تسحَبني إليها، تقصُّ عليّ سيرَ الأقدمينَ؛ وفي أسوء الأحوال، حين لا يسمح مزاجها بالحكي، تذرفُ كلامًا حزينًا وتناجي نفسها بصوت مسموع، بعربيَّة دارجة؛ كانت لا تحدّثني إلَّا بالدارجة، وكان أبي أمازيغيًا أبًا عن جدّ! تتحدَّث عن أهلها الذين هجرتهم كرهًا، حين لم يأذنوا لها بزواج الغجريّ الأمازيغي، لا تنفكُ تأسف على حال أمّها، تلك التي أدمت قلبَها بفضيحة، ووالدها الذي عفّرت وجهه وأنكست هامَتهُ بين هامات الرجال..

وزوجُها، يبيتُ اللَّيل وهو يتوفَّزُ لحرب أكبر منه، حتّى إذا بلغ الهزيع الأخير من اللَّيل لاذَ بجسدها، لم يكن يقول أيَّ شيء، كنتُ أستفيق على وقع خطاه، ثمَّ تشتعلُ بعد ذلك تأوُّهاتُها، تلك التي لا تقدر على كتمها أبدًا...

قبل أن يزجَّ بنا الربُّ في قيامتنا المشتركة بأيَّام، قالت لي إنَّها تحمل في أحشائها أخًا لي، سيؤنسُ وحدتي في هذا الخلاء الذي اختارهُ لنا والدي.كان الثلج يتساقط ندفًا، وينذر بشتاء قارس، وكانت تلبسُ في وجهها غيمة، تحملُ الفأس إلى أن يطاولَ السَّماء الحالكة ثمَّ تهوي به ليفلقَ

قطعة الخشب إلى نصفين، بين كلّ قطعة وقطعة تتوقّف، تحرّك يدها فوق بطنها وتتطلّعُ إلى الأفق البعيد، هناك حيث أبي الممسوسُ بأطياف وخيالات حرب استهلّت بين جدران جمجُمتهِ قبل أن تصلنا رحاها..

قال إنَّ الأخبار التي تأتيه من بعض الرُعاة مشوَّشةٌ وغير مفهومة، ثمَّ قال فيما بعد إنَّه ما عاد يلتقي في خرجاتِهِ بأحد، والأرجح أنَّهم نزحوا بعيدًا، هؤلاء الأجانب يقول الذين يسرقون هذا الوطن لا يعنونَهُ في شيء.. فالوطن الذي يحمل في قلبه، الوطن الذي هو مستعدٌ للموت في سبيله، يختزلُهُ في طريق غربته بين الشِّتاء والصيف، لا يشعرُ أنَّه يملك أرضًا ليخسرها، لا يأبهُ به أحدٌ إذا جاع، وحين تأتي الثلوج الثقيلة وتهدمُ خيمتهُ، لا يجدُ يدًا تسعفُهُ على نصبها من جديد، ولا يدَ تمتدُّ له بثوب يكسو جسده البارد. هو لا ينتمي لأحد، علَّمهُ والده وقبلهُ جدَّه أنَّه من البؤس أن ننتمي لأيّ أحد أو أيّ مكان، وأنَّ المرء حين تضيقُ به الدُنيا، لن يجد أمامه إلَّا من يزيدُها ضيقًا... لم يرِث عن والده وأجداده هذه الخيام المنسوجة بوبر الإبل ونباتات الدوم وصوف الغنم فقط، بل ورثَ منهم البندقية وحكمة جيل بعد جيل، امتدَّ حبلُها من منابت التاريخ ليصلَ إليه..

لكنَّ ما حدث في ذلك اليوم كان غريبًا كلَّ الغرابة عن تلك الحكمة التي أهملها في أعماقه الأسلاف. سمِعَ كلامًا كثيرًا عن الجيش الفرنسيّ، وسفَّهَ حامليهِ، وحتى حين استعبدوا أبناء عمومته وزجّوا بهم في الخنادق المتاخمة للجيش النازيّ، لم يكن ليحفلَ ببطشهم ولا قواهم الخارقة، كان يتأبَّطُ بندقيَّتهُ ويدمدمُ بكلام غاضب، لم تكن حكمةٌ أن يأنسَ لبندقيّته الصدئة، ويقزُر بها حربًا أكبر منه، حين رأى في الأفق البعيد خضرةً تزحفُ وكان القرن وقتها قد انتصفَ أو كاد لم يفزَّ، لم يفكَّ الخيامَ المكلّلةَ بالبياض ويصعد الجبال، قال: كنتُ هنا، وها هنا أبقى، ثمَّ قال: الهروبُ استعمار وعبوديَّة، وكانت رقعةُ الخضرة تزحفُ رويدًا رويدًا، بكت أمّي ونهرها والدي بشدَّة.

وحين أدرك خوفنا الجنود، كان واقفًا قرب الخيمة، وكنّا أنا وأمّي نتلصَّصُ على ما يحدث من ثقوبها العديدة، طلبوا منه أن يتنازلَ عن قطيع الغنم فلم يوافق، وحين هدَّدوهُ برصاص غزير تنسحبُ بعده الدّماء من أسفل الخيمة، تنازل لهم عن النصف، لكنَّهم أصرّوا على المبالغة في إذلاله، قبل أن تفلقَ غلالةَ الصمت رصاصةٌ طائشةٌ، ويندلعَ بعدها الرصاص، أسقطت رصاصتهُ واحدًا منهم وأسقطهُ رصاصهم الغزير، كان واقفًا يستقبلُ بصدره الرصاص كلوح التدريبات الحديديّ، ولم تخطئهُ رصاصة!

أمّا الجنون الذي أعقبَ هلاكهُ، فقد كان فصلًا من الجحيم، فصلًا يودُّ المرء لو أنّه يموت ألف مرّة دون أن يجرّبهُ، ما حدث هو كلُّ ما يتمنّى المرءُ ألا يعيشَ بعضه، حاول بعض الجنود أن يُسعفوا صاحبَهم الذي يلفظُ أنفاسه، بينما اتَّجهَ بعضهم إلى أبي. كان رأسه يهتزُّ، والدمُ كان يندفع من فمه شاخبًا، بصقوا عليه، ركلوهُ، داسوا على وجهه، وقبل أن أندفعَ من الخيمة باكيًا كانوا قد عزّوهُ تمامًا.. ينام عاريًا على بساط من ثلج، يتمدّد فيه فيضُ الأرجوان.. حاصرتني الأيادي، قبل أن تردِيَني أرضًا ضربة في الرأس بكعب بندقيّة، سقطَتْ قربَهُ، رأيت نظراته الجريحة، وقبل أن تمتدَّ الأيادي الخشنة إلى الخيمة كان قد غاب، من حسنِ حظّه أنَّ الموت لم يمهلهُ، ليفجَع قلبَهُ بالخيبة الكبرى.. من حسنِ حظّه!

شقَّت السّماءُ وبيداءَ الثلج وشغاف القلب صرختُها، دوَّت كطلقة ناريّة في يوم غائم، كان الحذاء العسكريّ الثقيل يغرسُ رأس الطفل الذي كنتُهُ في الثلج، وكانت صرخاتها تعلو وتخرمُ قلبي من الداخل، تعلو وتذبحُ أعماقي بسيوف صدئة.. فيما بعد، حين بُحَّ صراخها وانقلبَ إلى أنين، رأيتُ أصابعها النحيفة تمتدُّ من تحت الخيمة، تتلوّى وتعتصرُ الثلج، ورأيتهم لا ينفكُّ يخرج أحدهم وهو يزرُرُ بنطاله حتى يدخل عليها غيره، تناوبَها الكثير من الجنود، وأذبتُ بدموعيَ الحرّى الثلج أسفل رأسي. وحين أهمل رأسيَ الحذاء ليستجيبَ صاحبهُ لحفلة الجنس، سعيت إليها لولا كعب البندقية أرقدني إلى جوار أصابعها الصفراء المتيبّسة..

حين فرغوا منها، سحبوها خارج الخيمة نصف عارية، قبل أن يمرَّ أحدهم بمديَّتهِ على جيدها، كانت ذبحة حاسمة من الأذن إلى الأذن. رأيتها تجفِّفُ من دمها. أوقفوا نحرها على فم والدي، وتركوا نزفها يفتضُّ فمه، كانوا بذلك يدينونهُ...كأنّه هو من نهلَ من دمها!

أسقطوها فوق جسده العاري الذي يفترش دماءهما جثّةً هامدةً، لسعتني الوحشةُ وأنا أراقبُ فرحهم المشاع وهم يضحكون، ثمَّ وهم يُخرجون من جيوبهم قواريرَ صغيرة يشربون منها. امتدّت يد أحدهم إلى عضو والدي الذكريّ، كان منكمشًا ضئيلًا كأنّما الفجيعة سحبته إلى بطنه، حرّكهُ بمديَتهِ ذات اليمين وذات الشمال. تبادل مع رفاقه كلامًا لم أفهمه، قبل أن يجزَّهُ من جذوره ويحشوَ به فم أمّي الفاغر.. لم أكن بعيدًا، رأيتهُ يضع ذلك الشيء في فمها، ويحرّك ذقنها، كأنّها تمضغُ. رأيتهم يضحكون ويضحكون... ورأيت بعض الأوردة الصغيرة في عنقِها المفتوح المضمَّخِ بدمه يهتزُّ متمسّكًا برمق الحياة الأخير، كان ذلك سببًا عجّل بغيابي، تمنّيتُ

لو أنّني أموت، لكنّني لم أمت.. كان الربُّ يوفّرُ لي المزيد من الخيبة.

ولا أدري كم لبثت في غياهب ذاتي الأشدّ عتمة! لكنّني أفقتُ على واقع قميء.. كانت تنام في راحة يدي أقراطُ أمّي الجميلة، المضمّخة بدمها، تمسّكتُ بها كمن يتمسّك بجمرة، وأجهشتُ بالبكاء في تلك العربة التي تتمايل يمينًا وشمالًا، ولم تستوقف دموعي تلك الوجوه الواجمة التي تزمجرُ في وجهي وترغي وتزبدُ بشتائم لا أفهمها؛ أمّا ما تلا ذلك، فقد كان جنونًا، إذ أستعيدهُ بمنظار ما رأيت بعده، غيّبني حذاءٌ هوى على رأسي في تلك العربة، وأفقتُ مرّةً ثانية في غرفة بيضاء على سرير أبيض وتحت ملاءة بيضاء..

كنتُ لا أزال أشدُّ على الأقراط، أقراط أمّي التي أودعتها يدٌ مجهولةٌ في يدي.. أقراطها المضمّخة بدمها, حين دخل عليّ وجهان لهما سندٌ قويٌّ في أرشيفات ذاكرة ما بعد فقدان الذاكرة... وجهان نغزا بشبههما مواضع في ذاكرتي الجديدة، استطعتُ بخفّة أن أعرفهما، وأنضّدَ حبّات عقد الذاكرة بعد انفراطها. كان الأوّل يرتدي وزرةً بيضاء، وكان الثاني يرتدي بزّةً عسكريّةً متآكلةً مكمّمةً، كان أقصى ما أتوقّعهُ أن أتعثّرَ في الحقول المنسيّة بهما، لم يكن شعرُ الأوّل قد ابيضّ تمامًا بعد، ولم يكن الصلعُ قد حثّ رأس الثاني...!

أنا أو بالأحرى الطفل الذي كنتهُ والمستر هارفي وميرُ المدينة السابق في غرفة واحدة. كان واضحًا أنّ المستر هارفي هو السيّد، والمير عبدهُ.. وأنا من أنا؟ لم أنتظر طويلًا لأعرف موقعي من الإعراب.. ألبسوني تلك الوزرة المقلوبة التي تجمعُ يداي معًا إلى الخلف، كمّموا فمي ليتملّصوا من ضجيجي، وأهملوني في تلك الغرفة، أطلُّ من نافدتها على الثكنة، أتأمّلُ الجنود ببزّاتهم الخضراء يذهبون ويجيئون ويدهكون الأرض بتلك الآلاتِ الحربيّة الثقيلة، تزورني ممرّضةٌ شقراء، بعينين زرقاوين، جميلةٌ، اسمها جوزفين، مرّتين في اليوم. تحشو فمي بالأكل وتدلق فيه الماء ، تقتادني إلى المرحاض وتخلعُ ملابسي، تقعِدني على دورة المياه في الزيارة الأولى، وفي اللّيل أكتفي بالتبوُّل.

بعد ما ينيف عن العام، في تلك اللّيلة المقمرة، حدث ذلك أوّل مرّة، فكّت أزرار السروال، وكان من عادتها أن تشدّ آلتي وتوجّهها إلى دورة المياه، لكن في تلك اللّيلة المخبولة التي كانت فاتحة جنون آخر، لم تعد مديتي إلى قرابها، تركتْ أصابعها الدقيقة تدعك آلتي برفق، وفي غفلة منّي اقتحمني عرقُ إبطها النفّاذ، عجبتُ كيف لم أنتبه لروائح أنوثتها من

قبل! رأيتُ آلتي تتمدّدُ رويدًا رويدًا، وحين بلغت ذروةَ انتصابها، شرعت بالأصابع نفسها التي أجّجت حرائقها **الكامنة** تضربها إلى أن تغضّنت وضمرت، وفي اللّيل، وأنا أستلقي على حافّة غفوةٍ، عاودتني روائحُ عرقها، ورأيتُ في ما يرى النائم الجنود ينسحبون من خيمة أمّي وهم يزرّرون سراويلهم العسكريّة، وسمعتُ حشرجتها وأنينها وأفقتُ على بللٍ، هكذا دُفعتُ إلى الحلم دفعًا... فيما بعد، تكرّر الأمر كلّ ليلةٍ، تسندني من خلف بنهدين من عاج، وتنضجُ بأصابعها شهوتي، حتى إذا استوت **بترت** فيّ تلك الشهقة الحرّى بالأصابع نفسها..

كان المير والمستر هارفي يتردّدان على الغرفة على فترات متباعدة، يقفُ الأوّل بيننا مترجمًا أسئلة الثاني، ويظلُّ الثاني طيلة الوقت منكفئًا على تلك الأوراق، يكتبُ أشياء.. ربّما تخصُّ الأجوبة التي أمدُّ بها المير.

لم يكن عدلًا أن تحفّني لعناتُ الربّ وحدي دون العالمين، ولا كان عدلًا أن أجد نفسي هناك، في تلك الأرض السبخة، أدفعُ إلى قدري دفعًا.. فهمتُ فيما بعد أنّ المستر هارفي طبيبٌ، وأنّ جوزفين ممرّضةٌ، وأنّ الميرَ خائنٌ جنّدهُ الاستعمار!

جواهر

٠٥ ٠٤ ١٩٧٣

ليكسوس

لم تكن حكمةً يا سيمون أن أشقَّ ظهرك بطعنة غادرة، وأنساك هناك في غياهب السجن تكابدُ شططَ ما اخترتَ وما وزّطتُك فيه من مآسٍ.. لم تكن حكمةً أن أركن قلبي في أصيص، وأهمل يانعَ حبّك تشربُ ماءه الصحراءُ التي وجدتُني مدفوعة إليها.. لم تكن حكمة أن أسفك دمك وأرقصَ على جثّتك رقصة الممسوس بما لا يعرف، لكنّها اللوثةُ يا حبيبي، اللوثةُ التي أودعها الربُّ في أعماقنا ونحن نطفُ. المحظوظون هم من يسيرون في المسارب المنيرة، لا يطلبون من الحياة أكثر ممَّا تعطي، يعيشون الحياة كما شاءت لهم حتميّاتها؛ وحين يطرق الموت أبوابهم لا يُماطلون، وفي الدروب الزلقة لا يرسلُ الربُّ من عُلاه من يذكّرهم بأنّهم يحملون البذرة الشرّيرة، ولا أحد يلفتُ انتباههم إلى الغوايات الكامنة في جبِّ الوجدان المعتّم، والتعساء هم من تغرسُ الأقدار في طريقهم من يستدرجهم إلى اللّعنة ويحيطهم علمًا بجاذبيّة السّواد.

لم أكن قبل أن يخبطَ الربُّ عربة أيّامي بالجدار الصلدِ للمير الجديد أعرف أنَّ كلَّ هذا الضلال يسكنني، وأنَّ عريَّ العالم بأسره يرشح بالخطايا. قبلهُ، قبل قاسم جلال عذراء كانت حياتي، لربَّما اقترفتُ عشق سيمون، لكن كان الأمر بالنسبة لعاشقة مثلي حادثة نورٍ أبعد ما يكون عن الثقوب السّوداء، التي فتحَ عينيّ عليهما هذا الرجل الذي جاء من بعدٍ آخر ومن زمنٍ خارج الزمن، جاء يتأبّطُ جنون الدُّنيا وكلَّ الحماقات التي لا تخطرُ على البال...

لم يخطر ببالي يومًا أن أصاحب الشيطان، وأن أقع تحت سطوة سواده. لم أفكّر يومًا بأنّه بسيوفٍ من خطيئة سينكشُ القلبَ ويقشّرُ غلالتَهُ الشفّافة التي كانت تجمع حبَّ سيمون وحده، لم أتصوَّر أن يجيء يوم ينزُّ القلب فيه بعشقه الكبير، ويسيل منّي شيئًا فشيئًا، الحياة كانت تعدُّني من حيث لا أدري لأخرج من النور إلى الظلمات، وأحومَ ككوكب غاوٍ في مدارات الثقب الأسود، قبل أن أنقادَ لغواية ذلك المجهول وتلك الفضاءات الأشدّ عتمة.

«لا يفلحُ العاشقُ حيثُ أتى»!

زجَّ الميرُ الجديد بسيمون ورفاقه في السجن ونسيَهم، وزجَّ بعدهم

بكلّ من سوّلت له نفسهُ أن يتظاهرَ أو يُطالبَ بإطلاق سراحهم، كان سجنهُ الذي قيل إنّه قام بتوسعته وبحفر أقبية إضافيّة غائرة في الأرض لا ينفكُ يدفع إلى معدتهِ القاسية الرجال، ولا يطرحهم في فضلاته إلّا جثثًا في مقابر جماعيّة... زجّ بسيمون في قيامته الدنيويّة لكنّه لم يستغوني قطُّ، ظلّ يطاردني وهو يحملُ قلبه النازف، كان يلبس في وجهه طفولة متأخّرة وكان يتهجّى الحبّ. اجتذبتني دوامتُه أوّلًا من فرط وداعته وهو يعلنُ عليّ المرّة تلو الأخرى ذلك الحبّ الذي يزعمُ أنّه السّبب الوحيد الذي يصلُهُ بإنسانيّتهِ، وأنّه الحالة الوحيدة التي ينسى فيها أنّه آلةٌ، آلةٌ حربيّةٌ صدئة.. كان يقول كلامًا كثيرًا، حين تتلبّسُ بأبجديّتهِ تلك العواطف المتدفّقة التي كنتُ أجد فيها طرافة من نوع ما!

مرّغ في الوحل وجوه المناضلين الذين أفنوا زهرة شبابهم في النضال، وتفرّغ لي وحدي، يطاردني من مكان لمكان دون أن يطالبني صراحةً بأكثر من أن أتأمّل خيوط قلبه وهي تتوتّر وتتمزّق خيطًا تلو خيط، لم يكن يطالبني بأن أكون له، لكنّهُ يفعل كلّ ما يوحي بذلك، في كلامه براءةٌ طافحةٌ ما كانت تليقُ بمن هو مثله، يجهشُ بكلام الحبّ كمراهق أنفق الساعات الطوال في رتق الكلمات وطلائها قبل حفظها واستظهارها.. ولم يحدث أن حاول استدراجي، كان يكتفي بنشر غسيله النّفسيّ على مسمعي، ثمّ يرحلُ من حضرتي وفي عينيه بريقُ من فاز بقلب من يحبُّ...

وكنتُ مسكونةً بالغواية، خلف قشرة الفضيلة التي لا أنفكُ أعلنها عليه، وأضمّدُ بها نزفهُ؛ كانت تقبعُ اللوثة، تلك التي ظلّت لصيقة البشريّة منذ ملايين السّنين، تلك التي حرّضت قابيل على أخيه هابيل، وقبله حرّضت حواء وآدم على تفاحة الخطايا.. كلُّ روح مهما أظهرت الطيبة تضمرُ بقعةً سوداء، تنفلتُ من عقال الخير والمحبّة والوئام، وكلّ تلك المثل التي تلوكها الأخلاق والديانات... كان يتبعني لا استغواءً، كان يتقفّى خطايَ ككلب لا يريد منك سوى أن تتبنّاه... لم يكن ملحًا في طلبي، قال مرارًا إنّ بيننا قدرًا سنبتنيه إن عاجلا أم آجلًا، كان ينزف كلامًا كأنّه الوحي المقدّس: «خطّانا في الدُّنيا متقاطعان، فإمّا أن نأتلفَ في خط واحد أو نواصل تيهنا في الدُّنيا بين اتّصال وانفصال»، قال هذا، أو قال كلامًا آخر يشبههُ، وأنا أقفُ مشدوهةً، أمام هذا الرجل الذي يحكمُ مدينة بحالها ويهزمهُ تمرُّد قلبِهِ عليه، يقرأ الأقدار من ألواح تقفرت في أغوار ذاته الأشدّ حلكة...

لم يكن في حاجة إلى استدراجي إلى فخاخه، ولا كان مضطرًا إلى نصب الفخاخ أصلًا، الفخ كان بيد اللّهِ منصوبًا في ذواتنا، ينتظرُ حوادث العاطفة، حين تصابُ الرُّوحُ بعطبٍ لينطبق على نياط القلب ويمزِّقها، الغوايةُ كانت قائمةً في الجسد، لكنَّ أرواحنا تبالغُ في تحقيرها، والنَّاس، وما ابتنوهُ في وعيهم وفي لا وعيهم من أصنام ومثاليّات بليدة، تسعى دائمًا إلى تكفين اللوثة، تلك التي كانت سببًا في نفيِنا من الجنَّة، متناسينَ أنَّها هي نفسها كانت المخاضَ العسيرَ الذي سبق ميلاد البشريَّة!

محكومون بالخطيئة، محكومون بأن نمتدح البياض ونتخبَّط بفرح في السواد، محكومون بأن نفتح أعيننا على الأبيض المشعّ الذي يمنّينا به الربُّ، ونتحسَّسَ بعد ذلك بعصا الخطيئة مسالكنا في السَّواد.

الخيرُ استثناءُ الوديعينَ والشرُّ فطرة...

السَّوادُ حيٌّ والبياضُ فكرة..!

لستُ أجهشُ بهذا الكلام لأذرَهُ على جرح سيمون، ولا لأبرِّر خيانتي. أقول هذا، لأنَّه صار كلَّ قناعاتي بعد سيمون، لا جدوى من الحياة، تصل من الرتابة حدَّ الإملالِ حين نرفلُ في ثوب الملائكة. جميلةٌ بقدر زيفها حين نتبرقعُ في جبّة الشيطان القمينة.. والأفضل، حين لا يصيرُ للحياة من معنى، أن نعاقبها باقتراف كلّ الخطايا. أصابتني اختياراتهُ الرعناء باليأس وضيق الأفق، أحسستُ أنَّني أستصعبُ الحياة أكثر ممَّا هي صعبةٌ، فقرَرتُ أن آخذها من حيث خفَّت، كان الأمر أمارةً ماحقةً بأنِّي أهوي في جبّ لا قرار له، لم أملك حظَّ يوسف ليسعف الربُّ ورطتي بسيّارة، لم أجد في الهوّة السحيقة سوى قاسم يشرعُ لي ذراعيه، ويأخذني في عناقٍ يكسرُ العظام!

كلُّ ساعة يغيبُها سيمون كانت تدفع بحبّه إلى الضمور، وتفسحُ للسَّواد مساحةً يتمدَّد فيها ويتهدّد كلَّ أرصدة الذكرى. كلُّ يوم اعتقال هو مناسبةٌ للحريّة، كلُّ لحظةٍ أعي فيها بأنَّه سجينٌ أصابُ بدوخة هبلٍ، وتتحرَّكُ بوصلةُ أفكاري في كلِّ اتِّجاه، إلى أن جاء ذلك اليوم المشهود، الذي زلَّت فيه قدمي، فعالجتُ نزفَ قاسم بفرصة وحيدة، فرصة واحدة فقط كانت كفيلةً بأن تجعلني أستنتج أنَّه شئي وأنَّني طبقته!

حدث ذلك في مكتبه، درجتُ على زيارته من حين لآخر علَّ قلبَهُ يلين، ويسلِّمني أضلعَ سيمون، حدث ذلك ولم يكن ممكنًا بأيّة حالٍ تلافيه.قال إنَّنا موجَّهانِ بيد الغيب صوب بعضنا بعضًا، نيزكان ضربت لهما

الأقدار موعدًا دقيقًا لانفجار سيكون ميلاد الخصب والحياة.. حدث ذلك بعد أن أنضجتنا اللقاءات المتكرّرة وذلك الدفقُ الهادئ من الكلام العذب، يسيلُ من فمه فيسرحُ بي بعيدًا. أحببتُ سيمون، لكنّه كان بخيلًا في كلّ شيء، أحببتُهُ لأنّني لم أكن أملكُ إلّا أن أحبّهُ، كانت عواصفُه قادمةً من بعيدٍ، من آلاف الحروب والغزوات، كان ذلك الغرامُ، الذي لم نخترهُ على أيّة حالٍ، انقلابًا ناعمًا على تاريخ من الصراع.. أمّا قاسم هذا الرجل الذي أجدني عاجزةً على توصيف ما نبتَ بيني وبينهُ على نحو دقيق فقد اقترفتُ كلّ الشغف الذي وحّدنا عن سبق الإصرار والترصُّد، كنتُ وأنا أنزلقُ في فوّهة البركان واعيةً تمام الوعي بأنّني أتّجهُ إلى احتراق، وأنّ مياه العواطف المبهمة التي بادرتُه بها لا بدّ أن تنقلب فجأة إلى حالة غليان...

كانت النيّة في البدء سليمةً، لكن خانتها الوسيلة. تطاول سجنهُ، وكان تولّهُ الشيطان بي ورقة رابحةً، فكّرتُ أنّها قد تستوقفُ عذابات سيمون في سجنه الذي تطاول أكثر مما ينبغي، أو على أقلّ تقدير: تزفُّه للمنفى.في البدء، كانت النيّةُ سليمةً وإن خانت الوسيلة. لكن تُرى أهذه الفكرة الهشّة هي التي جرّتني إلى مدارات قاسم جلال؟! ربّما لم تكن أكثر من ذريعة أختبئ خلفها لئلّا يفدحني الندم. السّائرون إلى الخطايا يعرفون أيسرَ السبلِ إلى تنويم ضمائرهم والتخفيف من وخز الندم!

نضجت في أعماقي شهوة غامضة تجاهه، شهوة تعهّدتها بالرعاية لقاءاتُنا المتتالية، نستهلُّها بسيمون ونعوجُ بعد الاستهلال المقتضب صوب ما نبغي من حديث. تربّت داخلي تلك الرّغباتُ الآثمةُ بعد شهور مجدبة، لم تلفظ سيمون ليقلبَ أرضه المتيبّسة، بعد ساعات أدمنتُ فيها النظر إلى شفاه قاسم المكتنزة الشهيّة وهي تسيلُ بعذب الكلام. أمّا كيف حدث ذلك، فإنّ الذاكرة واللُّغة معًا كانتا في غمرة الدوخة المنهكة كليلتين لا تقويان على تقفّي أثر تلك اللّحظات الهاربة، أذكرُ جيّدًا أنّني كنتُ **أتأمّلُ مرآتَهُ**، تلك التي تواجهُ المكتب الفخم، وأذكرُ أنّني كنتُ أسأل نفسي وأنا أتأمّلُ جسدي، إن كنتُ قد أهملتُ ضجيجهُ أكثرَ ممّا ينبغي، وكان حديثه عن الجسد، لا أدري كيف حدث الأمرُ على وجه الدقّة، لكن يبدو كما لو أنّنا كنّا تواطأنا على تلك القبلةِ التي انحلّت لها أطرافي، ووجدتُني أسلّمهُ بعدها زمامي، وأندغمُ فيه...

بسبب خجل البدايات، لم نتنازل عن ملابسنا، افترعت فيها الشهوةُ نوافذ لإغاثة اللّهفة وشعابًا يسيل منها دفقُ الرّغبة، لم نكن بلّورًا مشعًّا في السّماوات الأثيريّة ولا زخمًا من نور، كنّا لحمًا يلتحمُ بلحم.. وثمّة آلةٌ

تخترق الأرض البور وتغدقُ عليها من فيضٍ بعد جفافٍ طويلٍ، شفاهٌ تنطبقُ وألسنةٌ تمصُ الرضاب، يدان تشتبكان بنهدين جائعين وفخذان يفترقان ليلتصقا في خبطٍ مستمرّ، وعجيزةٌ تصفعُ لحم المرآة.

لا أدري كم دام ذاك الجنون.. لكنّنا، في الأخير، افترقنا على أساس أن نستأنفهُ في قصره، قال إنّني أوّلُ امرأة يأخذُها طوعًا، وأنّه درجَ على أخذ النّساء اغتصابًا، قال إنّهنّ يشتهين ذلك، وقال إنّه يسلّمُ أجسادهنّ للسرير متداعيةً تفترشُ الجراح والكدمات. سألتهُ إن كنّ من المدينة، فقال إنهنّ «هيبيّات»... كان للكلمة سحرٌ ما، «هيبيّات».. وتهتُ في نفسي، تخيّلتُ أجساد نساء عارية يتعرّشُ بعضُها فوق بعض... نهود تتمحكُ ببعضها، وألسنةٌ تتوغّلُ في تخوم اللّذة. كانت تلك الذكرى تنتصبُ شاحبةً في قعر الذاكرة, ذاكرة الطفلة التي كنتُها، وذلك اللّحمُ الطريُّ الذي كان يشتبكُ ببعضه بعضًا, ذلك اللّسانُ الذي يتعلّقُ بحلمةٍ نافرة, وتلك الأظافر تتوغلُ في اللّحم، وتستجلبُ معها تأوُّهات مكتومة وأنينًا خافتًا, ما كان يجدرُأن أتلصّصَ من كوّة الباب على مراهقتين تلتفتان إلى ثورة الجسد دون حاجة لذكرا!

انتشلني من دوّامة الإثمِ الذي يجوسُ في ذهني حين سأل إن كنتُ أودُّ أن أصرفهنّ ليختليَ بي، أطرقتُ أفكّرُ لحظاتٍ، قبل أن يجيبَهُ على نحوٍ حاسمٍ صوتٌ تلبّسَ بي فجأةً:

من الجميل أن أتعرّفَ على ثقافتهنّ...

في كلّ نفس فيضٌ من الآثام المشتهاة، والمرء حين يفترعُ في السدّ الذي يلجمُ جموحها ثقبًا، فلا بدّ أنّه خطّط لانهيار السدّ ، والأمر مسألة وقت لا أكثر. جسدُ العالم يمحَ بالخطايا الجسام، فكيف يريدونني أن أكون استثناءً؟ والفضيلةُ غير موجودةٍ إلّا في أذهان الحالمين، يبذّرون أيّامهم وأحلامهم في إنضاج وهم، وحين يشيخون، حين تسقطُ الأيّام أوراقهم كاملةً، تجدهم يرحلون عن الدنيا وفي أسفل لهواتهم غصّةُ من لم ير الحياة إلّا من كوّة بابٍ!

وُجدنا في هذه الحياة لكي نعيشها، الحياة إمّا أن تؤخذَ كاملةً أو تتركَ كاملةً، لا مجال للتلفيق والحلّ الوسطُ خيار الجبناء، هذه اللوثةُ كانت رابضةً في جنوب الرُّوح تنتظرُ كفاشةَ قاسم، لتغادر صندوقها المتآكلَ وتتسلّقَ شغاف القلب، اللوثةُ كانت مذ اقترفَ الربُّ الخطيئة واستلّ من ضلع آدمَ أنثاه، لكنّ حبّهُ، حبّ سيمون، ألهاني عمّا سواه، حين اندلعَ بهاؤهُ داخلي، ثمّ حين استبدّت بي سكراتهُ المغشيّةُ للبصر...

وطرقتُ بابه بعدَ أن انتصف اللّيلُ أو كاد، باب قصره الكبير المتاخم للثكنة العسكريّة، فاندفعت في الأنفِ روائحُ الحشيش، ورأيتُ قبل أن أخطوَ الخطوة الثانية في درب الخطيئة سحائبَ الدُخان، كانت الإضاءةُ ضعيفةً ضعفًا متعمّدًا يخدّرُ الحواس، الأثاثُ كان عصريًا أنيقًا تشتهيهِ كلُ أنثى، وكان واضحًا أنّه صرف كلَ الخدم. سعلتُ حين اندفعت روائحُ الحشيش إلى جوفي سعالًا متقطّعًا، درجتُ على التدخين رفقةَ سيمون، لكن هذه الرّوائحَ كانت أقوى وأكثرَ حدّة، تندفعُ من الأنف رأسًا إلى الأوردة، تربكُ إدارة المرء لمشاعره وتصيبهُ بالغرابة.

وأصابتني الدّهشةُ حين دفعني إلى تلك الغرفة الواسعة، كنَّ سبعَ نساء عاريات يفترشنَ الأرض، وتسبحُ أرواحهنَّ المخدّرةُ في الدُخان، كان يفترش الطاولة نصفُ كبش مشويّ، والكثير من الأطباق، علاوة على طاولة فخمة تُتوّجُ فوقها صنوف من الخمور، لكن أكثرَ ما اجتذبني، تلك الأجسادُ الأنيقةُ، تتبّعتُ بشبقٍ ملغزٍ الأردافَ المنحوتةَ والنهودَ الصقيلة والشفاه الطازجة، كانت تضجُ داخلي نداءاتُ شهوةٍ مبهمةٍ، لم يحدث أن داهمتني قبل انجراف تربتي في هوّة هذا الرجلِ، الذي يجمعُ وداعةَ الدُنيا وفسوقها معًا! في كلّ امرأةٍ فسيلةُ شذوذ، والمحظوظاتُ من لا يجدنَ في الدروب الزلقة ماءً يسقيها... قلتُ في السرّ، وأنا أستعيدُ تلك اللّحظات الدامسة التي تنامُ في أرشيفات الطفولة، ثمَّ وأنا أتذكّرُ بمرارة تلك اليدُ، تلك اليدُ الناعمةُ تفتّقُ اللّحم، لحمَ الطفلة التي كنتُها. طفولتُنا هي حقيقتُنا الوحيدةُ التي لا تموت، والخدش إن اعتورَ مرآتها فلا بدّ أن المعجزات وحدها كفيلة بإرجاعها إلى سابق عهدها، أعتى الأورام النّفسيّة تلك التي في أرشيفات طفولتنا تنام، لأنّها كلّما تقدّم بنا العمرُ أكلت من حيواتنا، وجزّت أيّامنا صوبَ ما لا نشتهي!

أشحتُ عن ملذّاته ببصري إليه، فسحبني بيد ناعمة صوب غرفة نومه، كانت عيناهُ تطفحان بجنونٍ لا حدود له، أمّا غرفةُ نومه، فقد كانت حيطانها الأربعةُ مرايا، وكان سقفُها مرآةً كبيرةً ، غرفةٌ ما إن تدخُلها حتّى تمتلأ بنفسِك على نحو غريب، ترى نفسك أكثر من مرّة في مرايا الجدران، وحتى حين تشيحُ عنها البصر إلى السقف ترى نفسك وأنتَ تتلصّصُ على نفسك من علِ...

لماذا كلّ هذه المرايا...؟

لأكون أنا أنا حين أمتلئ بي، حياتي عطبٌ كبيرٌ، وفي كثير من الأحيان أشعرُ كما لو أنّني أتقمّصُ هذا الجسد، وفي أحايينَ أخرى، أشعرُ

أنَّه لم يصمِّم على مقاسات هذه الرُّوح الضامرة التي تتلفَّعُ به... حين آخذهنَّ اغتصابًا أشتهي أن أراني وأنا أستحيلُ إلى وحشٍ.

غريب!

لم أجد غير هذه الكلمة اليتيمة في فمي أرمُمُ بها بوحهُ المتداعي، وصرفتُهُ عن شقائه بقبلة على شفتيه. ابتسمَ وانشغلت عيناهُ بعد ذلك بالمرآةِ المقابلة، والتمعت التماعًا غريبًا، قبل أن يقول بصوتٍ متحشرج:

ما رأيكِ أن تغتسلي في إناءِ خمر؟!

اهتزَّ قلبي بين جدران القفص الصدريّ، ثمَّ التصق بجوفي وسرق أنفاسي. لم أخف، لكنَّ الأمر كان كما لو أقحمني في حلم ساحر لا طاقة لقلبي به، ألم عذب ينحتُ زجاج الرُّوح، أسعفتني كلمة وحيدة كأنَّما هي «أنا» ثانية تفرج عنها :

لِمَ لا؟

وحدي أم بمساعدة إزميرالدا؟

أصاب ذلك الاسم أعماقي بتلف، إزميرالدا، لا بدَّ أنَّها واحدةٌ من الجميلات الممدَّدات هناك في تلك الغرفة، جأرت في نفسي رغبةٌ آثمةٌ في أن أسلمَ لها جسدي، لكنَّ خجلي حال دون ذلك، عالجتُ اضطرابي حين تركتُ له أن يختار ما يراهُ مناسبًا.. أقحمني الحمَّام حيث الإناءُ الخشبيُّ الذي سأستحمُّ فيه، سكبَ فيه جرار خمر وغاب.. وما هي إلَّا لحظات حتَّى اقتحمت عليَّ خلوتي الخجولة إزميرالدا، الهيبيَّة الكوبيَّة، هكذا قدَّمت نفسها بفرنسيَّة طفل يتهجَّى!، كانت جسدًا برونزيًّا عاريًا صقيلًا، أطولُ منِّي قليلًا، وكانت جميلة، ذلك النوع من الجمال القاسي المعذِّب، لم يحدث أن اشتهيتُ بناتَ جنسي، لكنَّ هذا الجسد اشتهيتُه، وأنا أكابدُ دوارَ ذكريات ذلك الحدث الشائن، حين قطفت يدٌ وريقة التوت... أو أستعيد ذلك الحدث الدامس وتلك العناقات الآثمة!

كنتُ، وهي منشغلةٌ بتجريدي من ملابسي، منشغلةٌ بتتبعِ تفاصيل جسدها. كنتُ، وهي تمرُّ بأصابعها على جسدي، أسكبُ نظري على جسدها.. كانت باحتراف ضليعة في الشهوة، تجرّدني من ملابسي، وكنتُ ببراءة حديثة عهدٍ بالمجون أتهجَّى أوَّل سطور الانحراف، وبلغتُ طور الغليان حين اقتحم الغرفة عاريًا إلَّا مما يسترُ عورتَهُ؛ وبين زغب صدره ونهديها يسندان بلاطة ظهري وقعتُ، وحفَّني عناقهما، التصقتُ بعناقه، تشمَّمتُ روائحهُ الغريبة في ذهول، والتصقتْ بي إزميرالدا من خلفٍ، وسرت في

جسدي كهرباء غامضة، اندلعت في الحمَّام سحائبُ البخور والندّ كان قد أوقدها قبل أن يلتحمَ بي، وقبل أن يلتحمَ جسدي بإناء الخمر، أشعلت إزميرلدا لفافة حشيش، ووضعتها في فمي. كان لسانهُ يمضُ بشبقٍ حلمة النهد اليسار، وكان لسانها يداعبُ حلمةَ النهد اليمين، وكنتُ مخمورة جدًا بنشوةٍ سحريّةٍ، ترفعُ قلبي كالألعاب النارية بعيدًا في السماء، قبل أن يتفجَّر بألوان زاهية تتبدَّدُ، ثمَّ تلتمُّ داخلي لتشكّلُ قلبًا تشعلهُ النشوةُ من جديد قبل أن ترسلهُ في بريدِ السَّماء.

غشيتني ظلالٌ وأنا أفتقُ السَّماءَ تلوَ السَّماء، وأتسلَّقُ معراجَ الآثام، بين كلّ نَفَسٍ وآخر من ذلك السحرِ الذي كنتُ أملأ به رئتيّ، كنتُ أتغلغل كحدّ نصلٍ في رحم الكون. كان ميلادُ جواهر الثانية بعد مخاض نفسيّ عسير، وعمليّةٍ قيصريّة. وبين انفتاح عينيّ وانطباقهما إمعانًا في اللَّذة، كنتُ أراهما يدعكان في إناء الخمر جسدي كآلهتين تُليّنان بالخمر صلصالي من أجل تكوينٍ آخر، وكنتُ بينهما خفيفةً كريشةٍ تقلُّها النسائمُ الهاربة، قلقةً كنيزكٍ يبتلعهُ ثقبٌ أسود، ساخنة كبركانٍ طفحَ بحممه، ورخوةً كطينٍ في يدِ ناسكٍ يشكّلُ صمته!

الرسالة (٧)

من سيمون إلى جواهر

صيف ١٩٧٤

«ما كان يجدر أن أبارك انتظارك بسكّين يشقُّ ظهرك في عزّ العناق، جرجرتُ قلبكِ في درب الشوك كثيرًا، وآن أن أصلح بأعظم الخطايا ما أفسدت يداي. حزينٌ لأنّي، يا كلَّ العمرِ، لم أكن جديرًا بحبّكِ، حزينٌ لأنّني سأدفعُ لكِ بسببٍ آخر يؤكّدُ ذلك.

آن لي بعد عمرٍ من التيه أن أعترف، أحبّكِ القلبُ صادقًا، لكنّني كنتُ أنانيًا مريضًا بالماركسيّة، نسيتُ في غمرة الحربِ أن أهبك ما تستحقّين من عناية، فاتني أن أكافئَ صبركِ على كلّ الخسارات. حزينٌ بحقّ، لأنّني أنا الواقفُ فوق أرصفة القيامة لا أجد في جعبتي من ذكريات جميلة، يمكن أن يعضّكِ الحنين إليها كلّما سرت في جسدِك رعشةُ الذكرى... سأرحلُ عن دنياك وفي الجوف مرارةً لا أجدُ وسيلةً إلى إخمادها.. حبُّنا كان كبيرًا، لكن خانتهُ أيّامنا، كان ثورةً ضدَّ كلّ شيء، حربًا استنزفت جهدنا، وأنستنا أن نعيش.. دافعنا ربما عن فكرة الحبّ أكثرَ ممّا عشناه.

لا يليقُ أن نبقى معًا، ولا أن أدفعكِ بعيدًا عنّي، لذلك قرّرتُ أن أندفعَ بعيدًا عنكِ. لم تعد في اليدِ حيلةٌ غيرها لبترِ ما تشتّت بيننا من عاطفة، طالما تمنّيتُكِ عشقًا كاملًا، طالما كنتُ في نظركِ ذلك الفارس الذي قاتل الدُّنيا ليظفرَ بحبيبةٍ تقفُ بينه وبينها الحروب.. أحببتِ فيَّ التحدّي والفروسيّة والمخاطرة، أحببتِ فيَّ جانبِ القوّة. الآن أعتقدُ أنَّ صَلَف النظام ويدَ بطشهِ جرّدتني من كلّ شيء، وبالغت في إذلالي، جسدي، هذا الجسدُ الرخو كسرير أفرغ من لبده، نحتتهُ تغريبةُ الزنزانةِ، وجرى في لحمهِ إزميلُ الجلّاد ونخرتهُ كالسوس أمراض شتّى، هذا الجسدُ ما عاد يسعفُ وقفتي، ما عاد يسعفُ أنفاسي المتعبة على ازدراد الهواء النقي، لا أكادُ أعبُّ نَفَسًا حتّى تغشاني السُدَف، تأسّنت رئتاي وتخثّرَ فيهما الدمُ، ما عادتا تقبلان سوى الهواء الفاسد، كيف تسألينني الحبَّ وأنا في جبّةٍ أضيقَ ممّا أحسُّ به؟ كيف تطالبينني بعاطفةٍ لا يُسعفها فعلٌ؟ انشغلتُ عن سعادتك بحربي الزائفةِ، وها هو جسدي الذي تكبّدَ ضريبة أفعالي لا يصلح لشيء.. حين أفَلت الحربُ على انتكاستي أبقت لي جسدًا خُردة، لن يقوى على تدبير ليلة حبٍّ دون عثرات».

قاسم

١٣ ٠٧ ١٩٩٥

أوراق قاسم

كان جسدها طافرًا باللَّذة، أنفاسها المحمومةُ كانت حفلة جنس، العرق الذي ينزُّ به جسدها في أيّام القيظِ كانت تلتقطهُ حاسةُ شمّي، كأنّه دعوة غريزة. لكنّها كانت عصيّةً، تحفظُ جسدها بعيدًا عن متناول الأطفال!

لا تكاد تنفرط من عمر صبايَ ليلةٌ دون أن توقفني جوزفين على حوافِّ الشهوة، بأصابعها الزجاجيّة وأنفاسها المحمومة، تنفث في أذني تأوُّهاتها وتحرّضُ عليّ دفقَ الحمم، حتى إذا أنضجتني قمعت فيّ تلك الرغبة بضرب قاس، تضمرُ له آلتي سريعًا، ومعها تضمرُ الرغبة...

فهمتُ من المير الذي كان أيّامها خادمًا ذليلًا يتحكّك كقطٍّ خانع بقدمي سيّده، أنّني مجرّد فأر تجارب بين يدي مستر هارفي، وأنَّ الأخير يجري تجارب نفسيّة، وأنّه بعد أن يفرغ منّي لا بدّ وأن يدفع بذاكرتي إلى نسيان كلّ الألم الذي رأيتُ، وأنّني سأغدو إنسانًا سويًّا لا يشكو ماضيه من عطب، كان يمنّيني بالنسيان، يعرف أنّ المأساة ضربت بشواكيشها مساميرَ في سويداء القلب، ويدري أنّ معطوبًا مثلي بالآفة التي تكبّدتُ لن يطمعَ بأكثر من النسيان القسريّ تطبيبًا لروحه المخرومة!

كان لا ينفكّ يردّد على مسمعي المرّة تلو الأخرى الكلام نفسهُ، أنّني محظوظٌ لأنّي لم أترك هناك جثّةً يشخبُ دمها، وكان ذلك كلُّ ما تمنّيتهُ، ما عاد للحياة من معنى بعد ما حدث، والمعطوبُ مثلي بما لا يقدرُ اللّسانُ على حصره من مأساة، يكونُ أقصى ما يرجوهُ بعد الموتِ أن يمزّ النسيانُ بإزميلهِ على سطح الذاكرة، ويقشطَ تلك الطبقة الدامية التي أفسدت حياته.

لم تعد جوزفين، الممرّضة الشقراء الشّابة، تشرفُ على أكلي والعبث بأعضائي وحسب، بل أصبحت بمساعدة المير تعلّمني اللُّغة الفرنسيّة، قالت إنَّ هارفي أمرَ بذلك؛ أمّا عن التجارب التي قيل إنّني سأكون فأرها، فقد ابتدأت أوّل ما ابتدأت بخقنٍ كنتُ آخذها كلَّ صباح، ثمّ تطوّر الأمر، صار أكثر إيلامًا، أكثر ابتخاسًا للإنسان فيّ، اقتعدتْ ذلك الكرسيّ الملعون الذي التهمَ من حياتي شهورًا بحالها، في الصباح يكونُ مقعدًا دراسيًّا، وبعد الزوال تشرئني فيه الكهرباءُ، يتوغّلُ في عظامي، وحين يأتي اللّيل تحملُ جوزفين جسدي المتداعي إلى دورة المياه حيث تجرّبُ عليّ هبلًا من نوع

آخر.. عذابًا لا يقلُّ عن عذابات الشحنات الكهربائيّة، تبتسرُ رغبتي، تهزمُ روحي وتخسف بها في هوّةٍ لا قرار لها..

ولم أكن على اطلّاع بموضوع التجارب التي يقوم بها الطبيبُ المختلّ الذي رافق ذاكرتي الجديدة. كلُّ ما كنتُ أعرفهُ أنَّ اسمي، التجربة (١٤) أو إيفان الرابع. مستر هارفي كان يحفرُ بآلته الثاقبة جدران روحي المتهالكة، يتهدَّدُني كلَّ يوم بقيامةٍ لا تقومُ لي بعدها قائمة؛ وحدها كلمات المير كان لي فيها سلوى من نوع ما. آه.. أجدني الآن على صواب حين فلقتُ مؤخِّرتهُ بقنينة الخمر، وتركتهُ يتمرَّغُ في دمه وخزيِهِ إلى أن مات. لم يفهم الجرذ الذي كنتُهُ التجاربَ القاسية التي كان يخضعُ لها، لكنَّني حين بدأتُ أستحكمُ بزمام تلك اللُّغة العصيَّةِ، بدأتُ أفهم قليل القليل ممَّا ينفلتُ سهوًا من الألسنة، فهمتُ أنَّ ذلك الطبيب العسكريّ مهووسٌ باختراع عقارٍ لطمس ذاكرة الإنسان، تمهيدًا لإعادة تشكيل نثار الرُّوح. فهمتُ أنَّه مهووس بإيجاد سبيلٍ لاسترقاق النَّاس، لاستعباد أدمغتهم وتدجين سلوكاتهم. فهمتُ أنَّه يسعى لاختراع آلةٍ بشريَّةٍ مفرغة من العواطف والمشاعر والذكريات، آلةٍ من لحمٍ ودمٍ يتمُّ حشوها بأفكار محدَّدة وبرمجة سلوكها.

فهمتُ الآن لماذا أجدني ليلة كلّ أحد منزويًا في المكتب، أسوّدُ تقارير بالفرنسيَّة حول الوضع الأمنيّ والسياسيّ في المدينة، ثمَّ أهرب بها إلى جبّ غائر في الأرض، مهجورٍ لا ماء فيه، غير بعيد عن المدينة. هناك في الأكروبول التاريخيّ، أقذف التقرير هناك وأولّي راجعًا، لربَّما كان ذلك بإيعازٍ من شيءٍ أودعهُ في ذاكرتي الجديدة مستر هارفي، من أجل خدمة أجندات أجنبيَّة، يبدو في الأخير أنَّه لم يرافق خطواتي إلَّا بهدف متابعة تجربَتهِ ودراسة مناحي تفوّقها وقصورها!

الآن، إذ أصحو من غيبوبةٍ نفسيّةٍ طويلة الأمد، أفهمُ أنَّ حياتي، بسنينها الطويلة التي تجاوزت الخمسين ببضع سنين، لم تكن أكثر من أكذوبة. كنتُ قبل أن توقظ تلك الشحناتُ أناي المنسيَّ أعرف أنَّ الحياة برمَّتها أكذوبة، لكنَّني تعايشتُ معها، ابتنيتُ طفولةً، وصدَّقتُ زيف الحياة، لم أكن أملكُ شيئًا لأخسرهُ، ذاكرتي كانت عذراء، خلاء من بياض...

كنتُ أقتعد ذلك الكرسيَّ الخشبيَّ المقابل لتلك الشاشة الكبيرة التي كنتُ **أراني فيها**، وفيها كنتُ أتأمَّلُ عذاباتي، رجليَّ ويديَّ يلتصقان بأحزمة إلى الكرسي... وفوق رأسي شيء أشبهُ بخوذةٍ، وعلى الصدر تلتصق خيوطٌ كهربائيَّةٌ بألوان شتّى تصلني بالآلات الغريبة، التي لا ينفكُّ المستر

هارفي يتفحّصها بين الصعقة والأخرى، وكنتُ طفلًا ضئيلًا كليلًا يتآكلُ من داخله، ويستجدي الربَّ أن يعجّلَ بالنسيان، لم تتقادم تلك الأحداثُ الدامية التي سرقت والديَّ، ولا ضمرت تلك الصُور.. كلَّ يوم تتضخَّمُ أكثر، والإمعان في الألم، الإمعان في الخسارات يزيدُ من تورّمها داخلي.. كنتُ أربّي داخلي سرطانًا نفسيًا بالغ الضراوة، وأبحث بشكلٍ مستمرّ عن انتحار أتخلَّصُ به منّي ومنه، بعض الآفات التي تبتلينا بها الحياة لا سبيل إلى التخلُّص منها إلَّا حين نستوديها صوب انكسار المنتهى، بعض الجراح غائرةٌ في الأعماق لا تنفكُ تضمُدُ نزفها من جهة حتى يندفعَ النزفُ من حيث لا تدري.. بعض الأوجاع لا يطبّبها سوى الموت!!

تناوب عليَّ أكثر من عذاب، بعد الزوال.. كانت تقرض لحمي الكهرباء، وفي المساء تهتكُ مسام الجلد أكثر من حقنة، تسلبُ النور من صحن عينيَّ، أُصابُ بالقرف والغثيان، وأنداحُ فوق الكرسيّ كفأرٍ أكل قطعة الجبن المسمومة، حتى إذا أزِفَ اللَّيل جاءت معذِّبتي الشقراء لتصلبَ توقي على جروف اللَّذة.

تجيء بأنوثةِ غضّةٍ طازجة تطفحُ بثمر يانع، فتدفعني في بؤبؤ الغرابة، يكونُ الطفل الذي كنتُهُ واقفًا بين غيوم حالكة يكشَحها نورُها فجأةً، أكون لاهثًا في صحراء الموت، فإذا هي تسعفُ عطشي بجرعة ماء.. كانت ملاك الحياة، تنعشُ حياتي كلَّ ليلةٍ بعد أن استدرجها صوب النهايات النهار، وما عادت تذهب بي صوب دورةِ المياه، قالت إنَّ جسدي يكبرُ وقد يخرج عن طوره **فآخذها اغتصابًا**، قالت إنَّها لا تشتهي ذلك، لكنْ إن حدث ذات يومٍ فإنَّها تستحقُّهُ.

كانت **تزور عجزي** في ذلك الكرسيّ الذي يشدُّني إليه، تضيءُ الأنوار **فأراني** باهتًا في الشاشة المقابلة، أرى شحوب وجهي وضآلتي قبل أن تندفعَ في الشاشة نفسها شقرةُ شعرها، قوامها الممشوق، عجيزَتُها المرتجّة، وإذا كانت قد درجت على هدهدة شهوتي بأصابعها النحيفة، فإنَّ **إذعانيَ للشلل** الذي أجدني فيه شجّعها على التمادي. في البدء، كانت كلّما تعهّدت آلتي بالدلكِ، أخذت شفتيَّ بقبل حارقة، فيما بعد تخفّفت من خفرها، صارت تدفعُ في فمي حلمتين أنضجُهما بدفق الشهوة وأنقلهما إلى طور الانتصاب، وصار ينذُ عنها أنينٌ وآهاتٌ. وأنا، إذ تفيض بي الشهوة، لا تزيغُ عيناي عن الشاشة المقابلة، أراها تلتحمُ بي بشبقٍ، لكنَّها قبل أن تطفحَ بمائها رغباتي **تصيبُني ببتر قاس**، كأنَّما يتلبَّسُ بها شبحٌ فتنقلبُ إلى القسوة بعد اللِّين، تضمرُ آلتي وأنكمشُ في دواخلي، أغوصُ بعيدًا في غور

ذاتي.

كلُّ ما كان بعد امّحاء ذاكرتي من خطايا وآثام له تصادي ما في الأعماق المنسيّة، كلُّ ما حدث بعد الفقدان الكبير للذاكرة يجدُ له شبحًا ما قائمًا في الكهوف السرّيّة للذاكرة، وإذا كانت الذاكرةُ تنسى، فلا بدَّ أنَّ القلب والرُّوح لا ينسيان، لكن تخونهما بلاغةُ البوح، فيُومضانِ في الأحلام، في اللّحظات التي أخرجُ فيها عن طوري بإشاراتٍ ماحقة لها سندٌ في الكرّاسات المنسيّة، أعماقنا بئرٌ سحيقٌ ودلاءُ الذاكرةِ والكلامِ قاصرةٌ على استجلاب كلّ شيء..

أذكرُ الآن رائحة أنوثتها السرّيّة، تستيقظُ في منخاريَّ سئارتُها، وأذكرُ حلمتها وهي تتبرعمُ بين شفتيَّ، كأنَّ نهدها لم يبرح عناق وجهي، وأصابعها كما لو أنَّ نعومتها اللّدنة لم تبرح أغراضي الخاصّة. كانت كلّ ليلةٍ تزورني فيها تتمادى أكثر، كلّما تغلغلت في اللّحم والرُّوح مساميرُ هارفي كلارك كانت الجرعةُ الليليّةُ التي أنالها مركّزة. كان الطفل الذي كنتُهُ يعرف أنَّ اللُّعبة تسيرُ إلى منتهاها، وأنّ المرودَ حين ينتهي بعد ضنًى طويل إلى المكحلة، فإنَّ الأمر يعني أنَّ معين سحرها قد نضبَ، كنتُ أعيش على إيقاع هذه القناعة، وحدث أن استمهلتها أكثر من مرّة، لكنّها لم تكن لتحفلَ، تعرفُ الجرعة التي ستخزُ بها جنوني، وتعرف الوقت المناسب الذي تدفع بي فيه إلى الانتكاس.

وقبل الاستقلال، ليلةً قبل أن يزِفَّ الرحيلُ الكبيرُ، **رأيتها في الشاشة المقابلة** عاريةً، أنفقت جلَّ ألعابها، وما عادت تملك سوى ورقة أخيرة. تقدّمت صوبي تاركةً خلفها ملابسها، كانت طازجة، حلوة، ممشوقة كمهرة، ذابلةَ الملامحِ كأنّها تأتيني قسرًا، في ملامحها غيمةٌ وبردٌ يشي بمطر في الأفق، لكنّها لم تبكِ، كانت قد ربَت في عانتها دغلًا من زغب، تأمّلته وهي تنحني لتسحب حصانًا تكبّد سنينًا من الانتظار ليظفرَ بلذّةِ الركض في مضمارها. وفي الشاشة، رأيتُ ظهرها يكاد ينفلق عن شمس ساطعة، تطلع من فوق كفلين بضّين مكوّرين مكتنزين يلتحمان بفخذين صقيلين، لأوّل مرّة أثورُ على عجزي، وتقدحُ عيناي بشرر متطاير، لأوّل مرّة يهيجُ الوحشُ فيّ وأثورُ على ما يشدُّني إلى الكرسي الخشبيّ، لأوّل مرّة **أشتهيها اغتصابًا**، أشتهي أن أطرحها أرضًا وأبيتَ اللّيل معرّشًا فوق ظهرها، لا أبرحُ دهك شوارعها حتى أزهِقَ روحها أو أموتَ دون ذلك!

ها هي ذي تطرحُ عنها الأجداثَ وتطلعُ من ذاكرتي المستعادة، وها أنا أراني بعينيّ الطفل الذي كنتهُ أنصبُ العمود وأنتظر خيمة تلبسهُ،

جسدي تشقَّق، بعد تيهٍ في صحراء الجدب، ساقان منفرجان وشجرٌ يقف بين السَّواد والشقرة يلسع بلذَّة، ويدٌ تحرِّك المرودَ ليندفنَ في تشريم جذعيِ فخذيها، ورحلةٌ من شقاء لذيذ بين استفالها واستعلائها، كانت تسحبُ الرُّوح إذ تعلو في السَّماء ومعها تسرقُ أنفاسي المحمومةَ، قبل أن تُلبِسَ السيفَ قرابه وتهوي، تدفعني فيها، تلتحمُ بي بعنفٍ وتدفع في فمي لسانها. كان يسكُنها حرمانٌ خام، وكنتُ **عاجزًا** بسبب القيود ومستسلمًا في آن. نهمها الشديدُ، وشبقُها، وهي تضلعُ صلصال الطفل الذي كنتُهُ، يشيان بأنَّ الأمر **اغتصاب**.في النَّفس كانت مشاريع اغتصاب مضادّ، لكنّ عجزي الاضطراريّ لم يكن ليأذن بأكثر من أن أخبُط أردافها المنحوتة إبَّان الرَّعشةِ، وأتلمَّظ كجدي منابت لذَّتها بعد خريف حرائقها!

السَّفينةُ التي حملتنا في كفِّها صوب مارسيليا، حملت معنا جيشًا من الجراد، زحفَ على أخضر الوطن يقولون وها هو يرحلُ مخلِّفًا إيَّاهُ خلاءً من عيدان متيبسة. مستر هارفي يقول لعسكريٍّ يحملُ فوق كتفيه نجماتٍ ذهبيَّة كثيرة، كلامًا غامضًا:

«ها هي الأحذية الثقيلة تبرحُ هذه الأرض، لكنَّ ذلك لا يعني أنَّ شوكتَنا انكسرت هنا أو هناك، الاحتلالُ العسكريّ همجيَّةٌ ما عادت مقبولةً، كانت مشروطةً بأسباب، ولما زالت الأسباب آنَ أن يزول. هناك دائمًا يا ميسيو شارل خطة (ب)! من اللَّازم أن تحافظ دول أوروبا على مصالحها الاستراتيجيَّة في مستعمراتها، باعتبارها ينبوع موادّ التصنيع الخامّ، أو باعتبارها سوقًا واعدة ومتنفَّسًا استثماريًّا؛ نحن يا صديقي لم نغادر قطُّ وطنًا اخترنا له من يحكمهُ، لم نغادر وطنًا نستطيعُ أن نأخذَ منه بالحيلةِ أضعافَ ما كنَّا نأخذه غصبًا، العالمُ يتغيَّرُ وحروبُ الغد هي حروبُ البحث عن ولاء وبسطِ ثقافة. وطالما أمكنَك أن تتسيَّد أسياد الأوطان، فأنتَ السيِّدُ الأوحدُ، وطالما أمكنك أن تغيِّرهم من حين لآخرَ، مثلما تغيِّرُ جواربك، فإنَّ الأوطان وخيراتها ستنسكبُ مهما تلوَّت وديانها في بحرك... آنَ لنا في زخم العالم الجديد أن نقتصدَ على بيادقنا، وإن كان لا بدَّ من بيادق فلنحاربهم بهم، ولنطلقِ العنان للأحصنة تضربُ من بعيد، على نحو ملتوٍ ضرباتٍ غادرة وتعود... جيش الأمسِ أفنيناهُ في الحروب التي لا ندركُ بؤسَها إلَّا بعد فوات الأوان، وجيشُ الغد لن يكون منَّا وإن كان لنا، ندجّنهُ اليوم ليفنَى غدًا ونغنمَ بعدهُ...»

كان مستر هارفي يتحدَّث بثقة ربٍّ بارع في تدبير المكائد، كأنَّ الكون طوعُ بنانهِ، قال لجليسهِ وقد أومأ إليَّ أن أقتربَ:

إليك هذا الغجريّ...

انفطمت يدي عن يد جوزفين الممرّضةِ، وسعيتُ إليهِ، ربتَ على شعري لحظات، قبل أن يقول لصاحب النجمات العديدة والأنفِ الحادّ المضحك، كان كمن يعلّقُ على وجهه نصف موزة:

هذا الشيء...! تصوَّر أنّ ميزانية البحث العلميّ الخاصَّة بالجيش تنسكبُ كلُّها في هذا الجسد الضئيل، إن نجحت تجاربُنا سنطمسُ ذاكرتَهُ، سنمحو بشاعاتها، سندفَعهُ أوّلًا إلى خسارة كلّ شيء، جذورهُ، ثقافتهُ، ذويهِ، أناهُ... كلَّ شيء! وبعد ذلك، سنستنبتُ في ذاكرته العذراء ما شئنا من أفكار، سنمنحهُ إن شئنا تاريخًا مزوّرًا، أهلًا غير موجودين، لكنَّ الأهم، أنّنا بعد أن تستحكمَ بتلافيفِ ذهنه، نستطيعَ أن نضخَّها ما شئنا من الأفكار.

يسكتُ، ربّما ليتيحَ لجليسهِ فرصة التفكير في ما قال، يشعلُ بعود ثقاب تبغ غليونهِ الخشبيّ، قبل أن يندفعَ الدُّخان من فمهِ ومنخاريهِ، يستدركُ:

لو نجحت هذه التجارب، فإنّنا قد نبتني آلاف العملاء، آلاف المجنّدين الذين يدينون لنا بكلّ شيء، والذين باسمهم سنحكمُ العالم.غدًا سيحكمُ إحدى مدن الجنوب ذاك الرجل هناك (وأومأ بيده إلى المير، كان يقفُ غير بعيدٍ يشرعُ فمهُ بضحكة بذيئة) قمنا بتضبيعه سنوات، ونحن لسنا بحمقى لنسلّمَ المدن الآن لغير ضباعنا المتواطئين، لكنْ بعد غدٍ، حين يستوي المشروع، فسنرسلُ المجنّد إيفان الرابع (٤١) ليحكمَ المدينة، وسأرافقُ رحلَتهُ عن كثب، لأرقب تطوّرات الحالة نفسيًا، أنا بشكل أو بآخر نذرتُ العمر كاملًا لهذه التجربة التي أدينُ بها لفرنسا وللعِلم!

عادت يدي إلى عناق يدها الناعمة التي سقت زهرةَ الطفولةِ، فانفتحت قبل الأوان، لاحظتْ، قياسًا إلى تلك الأيّام التي توقفُ فيها رعشتي على حافّة دورة المياه، أنّني ارتفعتُ عن الأرض أكثر، لا بدَّ أنّني في غفلةٍ منّي تمدّدتُ على الكرسيّ الخشبيّ، كبرتُ جالسًا!

ولم تكن تتحدّث إلّا لمامًا، تشيحُ بوجهها إلى البحر، أمّا أنا، فلم يكن يعنيني البحر في شيء، أنا الوعلُ ابنُ الجبال، حين زُجَّ بي في الفُلكِ، كان نصيبي من هداياهُ دوخةً وقيءً ومرارةً في الحلق والقلب وصديدٌ من ذكرياتٍ موحلةٍ، كلّما حاولتُ التملُّصَ منها أمعنتُ فيها وزدتُها إلحاحًا... أراها في البحر الذي تمخرُ عبابهُ السفينة، فتفيضُ أغوارهُ بدم قانٍ،

والسَّحاب المعلّقِ فوق رؤوسنا كتلة حمراء. كنتُ أرى الدم وهو يشخبُ من جيد أمّي العاجيّ، كلّما ذكرتُها تحسّستُ أقراطها في الجيب، أقراطها التي أودعها مستر هارفي في كيسٍ بلاستيكي لئلّا تخسرَ عذريّةَ الدم الذي سال ذات حزنٍ فوقها.

وجوزفين الجميلة تشدُّ على يدي بقوّةٍ، كأنّها تكابدُ كمدًا ضاغطًا، ولسانُها لا يجود بما يكسرُ وحدتي، كان في الحلق بعد دوّامةِ الأمس كلمةٌ خجولةٌ، كلّما هممتُ بأن أكاشِفها بها وَجلتُ: (je t’aime) «**أحبّك**». حين هممتُ بالبوحِ، رأينا في الأفق البعيدِ ساحلَ مارسيليا، لحظتها فقط انطلقت أساريرُها بالحبور، وتكلّلت ملامحها بسعادةٍ لم تغمرها من قبل، وانداحت بجسدها فرحًا. على متن السَّفينة، لم تكن الأنثى الوحيدة، لكنّها كما لو كانت الأنثى الوحيدةُ في الدُّنيا... تحرّكت قدمها في اضطراب من يستعجلُ السَّفينة، وتململت أصابعها على الحاجز الحديديّ... كأنّما هي على موعدٍ مع وليمة فرح. قلتُ في سرّي: لربّما الشوقُ إلى الأوطان، ثمّ قلت: لربّما لها أهلٌ ينتظرون.. وحين دنت السَّفينة من الميناء **سحبت منديلها** وشرعت تلوّحُ لجموع المنتظرين في الميناء، ورغم أنّه كان يهملُ التفاعل معها، إلّا أنّني رأيته، كنتُ بغريزةِ ذكورةٍ حفظت أنوثة جوزفين أقدرُ على كشفِه بين آلاف الرجال.

ما حدث بعد ذلك كان بترًا، درجت على اختتام أفراحي الصغيرة بهِ.. مضت كفراشةٍ بين الجموع، تهربُ بها سلالمُ السَّفينة الحديديّة إلى عناقه، كان أكثرُ ما تبرعُ فيه إضافة إلى إشعالي هو إطفائي، عركتني هناك مثلما يعركُ الميرُ سجائرهُ الرخيصة، مضت دون وداع أخيرٍ، دون كلمةٍ تسندُ بها عضدي أمام المجاعة النّفسيّة التي أسلمتني إليها.. مضت دون كلمة أخيرة، دون التفاتةٍ عجلى. إلى عناقِه فرّت، وتركتني لنزفٍ داخليّ مرير، جمعَ عظامها بالعناق، وبالعناق نفسهِ فتّتَ عظامي، بفرحها الكبير أورثتني فرحًا أكبرَ، كلّما ابتعد بها تضاءلتُ وتقزّمتُ، أصبتُ برعشةٍ من يواجهُ خطرَ الامّحاء الفجائيّ، وتلك الكلمة التي أعددتُ لها، تلك الكلمة التي أحرقَت جوفي، صارت أشبه بآلةٍ ثاقبةٍ تحفرُ في فمي. حين مدّ لي الميرُ يدًا، كنتُ لا أزالُ مشرئبًا أتقفّى رحيلها الأخير، أمّا حين كان يسحبُني خلفهُ بيده الخشنة، فقد كنتُ أتمتمُ:

Je l’aime... Je l’aime (أحبّها... أحبها)!

سيمون

١٢ ٠١ ١٩٧٤

الزنزانة ٠٩

ولتغفري يا جواهر...

إن كانت شغافُ قلبك منقوعةً بخيانةٍ، فلا بدّ أن تتقفّى أثرك أينما ولّت سفُنك. اقترفتُها عامدًا في تلك القرية الكوبيّة الصغيرة، كانت حادثة جسد يصعبُ تلافيها، كان لا بدّ من أتورّط في إزميرالدا، الحسناء الكوبيّة، شيءٌ ما صوّبني نحوها، غادرتُ المدينة وأنا أحملُ في قلبي حبّ جواهر الوارف، وما كنتُ أحسبُ أن الأيّام تُنضج لي خيانةً، ما كنتُ أحسبُ أنّني سأضمّخُ بها بياض عفّتي.. غادرتُ المدينة لأرجع إليها فيما بعد ثائرًا، فإذا بي أدخُلها خائنًا. نحن لا نسيرُ حيث نشتهي دائمًا، والدُّنيا لا تطيعُ اختياراتِنا، تُمنّينا بالحريّة حتى إذا اتّخذنا أوّل اختيارٍ، تناولت بصَلَفٍ زمامَ حيواتنا، وسارت بنا صوب ما تشتهي.

وما كنتُ أشتهي خيانتها، لكنّني في حادثة قدرٍ طفيفة، وجدتُني أنساقُ للوثةٍ في أعماقي، ووجدتُ الشهوات الآثمة تفترعُ في القلب أكثر من ثقبٍ شفافٍ، وتطمسُ كلَّ تلك الوعودِ التي قطعتُها. لكلّ من يزعمُ الوفاء اختبار، وكنتُ راسبًا..

وصلتُ كوبا في إطار بعثة لتكوين الثوّار، إيديولوجيًا وجسديًا، كانت أيامًا جميلةً بحقّ، راسخةً كالوشم في الذاكرة. صحيح، أنّني رأيتُ فيها الويلات، كان نهارُها قاسيًا في تلك الغابات الكثيرة الأشجار، تدريباتٌ جسديّةٌ كثيفةٌ تكادُ لها الرُّوحُ تزهقُ، وفي اللّيل استراحة عذبة، موسيقى حماسيّة وسمرٌ وحكاياتٌ.. كنّا خليطًا من شبابِ المنظّمات اليساريّة الثوريّة، وكانت يساريّةٌ كوبيّةٌ عنيفة الجمال، إزميرالدا كانت جسدًا استوائيًا لا تكفُّ أمطارُه عن الهطول، وأنا جئتُ من مدائن الجفاف، من خرائبَ تجوسُ فيها السموم، من أرضٍ أضحت رديفًا للموت، لا تفلقُ قشرتها الصلدةَ وردةٌ أو نبتة، وإن حدثَ وانفلقت فإنّما لتبتلعَ الموتى..

متيبّسًا جئتُ من مدينة يابسة، جئتُ مجرّحًا بعد حربٍ ضروس، أحملُ في القلب حبّها، وفي الظهر سيوفًا صدئةً أهملتها فيه ألسنةُ النّاس التي حاربت حبّنا، جئتُ مدجّجًا بتناقضات جمّة، وكان أقصى ما أرجوهُ أن تنقضيَ التدريباتُ سريعًا لأعود إليها، كنتُ أعلمُ أنّني خلّفتُها في أرضٍ آسنةٍ، وكنتُ أعرف أنّ تلك النمائم التي يبرعُ النّاس في جذلها وترويجها،

تفتحُ في القلبِ خنادقَ ألمٍ وعذاب.

أشعلت ليالي السمر، في ذلك المعسكر التي تحفُّه الغابات من كلّ جهةٍ، الغوايةَ داخلي، شبَّ ما بيننا على مهلٍ وسطَ الحشود، وحين استوى، أهملت العيونُ خرجاتنا المتكرّرة إلى الغابة المجاورة، تتلفَّعُ إزميرالدا بشالها الذي تفترشهُ في الغابة لذّاتُنا، وأملأ جيبي بسجائرٍ ترافقُ سمرنا الذي يطولُ عادةً. لم أكن أحبُها. كان قلبي يطفحُ بحبّ جواهر، لكنَّ جسد إزميرالدا محنة، لم أكن أعرف قبلها أنَّ للجسد سطوة آسرة قد تبزُّ سطوةَ القلبِ، قبلها ما كنتُ أعرفُ أنَّ الجسد يمكن أن يعفيَ صاحبَهُ من إدارته ويسير صوب ما يشتهي، جسدُها كان فيضًا جماليًا، منحوتًا بدقّةٍ كأنَّ الربَّ أنفقَ في خلقه أضعاف ما أنفق في خلق السَّماوات والأرض... وكنتُ أحمل في جسدي تاريخًا من القحط والحرمان. طيني تشقَّقَ. وقبل أن أحلَّ بالجسد الملاك، كانت تسقي لهفتي إليها تلك الخيالات العذبة، أبيتُ اللَّيلَ معها بين كرٍّ وفر، وحين انسحبت كفراشةٍ صوب أنواري الباهتة التي لا أدري كيف أغرتها، وجدتُني أطيرُ فرحًا، وأنقلبُ إلى عتمةٍ حالكةٍ تعتصرُ جسدها الصقيلَ كمَرمرٍ مسنون في الغابة المعتمة. آهٍ.. كلّما تطلّعتُ إلى الأيّام الخوالي بمنظار ما أنا فيه من بؤسٍ غصصتُ بحرقةٍ حرّى، لا أتعسَ ممَّن يستعيدُ في خريف أيّامه ذكريات ربيعٍ لا يعود!

جواهر.. يا غيمةً كان يملأها الخصبُ، فلتغفري! انشغلتُ بالحروب الزائفةِ عنكِ، وتركتُكِ أيّام القحطِ تجفّفك الخيبةُ إذ تسيلينَ دموعًا، قفزتُ من منفًى إلى منفى ومن زنزانة إلى أخرى وأنا أجرُّكِ من قلبكِ خلفي، بين اندلاع حبّنا العنيف واندحاري الأعنف في هذه الزنزانة الدبقة مسافة من أشواكٍ جرجرتُ فيها عواطفكِ الطاهرة. كنتُ أغبى من دونكيشوت حين قدّمتُ ما حقُّه التأخير، حبّكِ يا بهيّةَ العينينِ كان أجمل ارتطام قدريّ، وكان يجدرُ بي بدلَ التوغّلِ في المتاهات المسدودة أن أتعلّقَ كنملةٍ بتلابيبِ ثوبكِ، أن أكون ظلّكِ، وألا يشغلني شاغلٌ عن حبّكِ.

كنتُ أبحث عن استثناء، وكم صرّحتُ بأنّه من الغباء أن يبدّدَ المرءُ عمرًا كاملًا في الهوامش، كنتُ واهمًا وكان العشقُ أروع استثناء. لا أجمل من أن يعيش المرءُ على دين الحبّ ويموت على الدّين نفسه! بدل أن أسترقَّ من جيوب الأيّام البخيلة فرحتنا المستحقّة، مضيتُ في درب لا يُفضي إلى انتصار، وتركتُك للخيبة والبؤس وكلام النّاس..

الأمرُ برمّتهِ لم يكن أكثرَ من حملِ كاذبٍ، هذا الشعبُ عجوزٌ عقيمٌ، ووحدها المعجزاتُ قد تزرعُ في أحشائه فسيلةَ الثورة. حسبنا التاريخُ

يشرعُ لنا ذراعيهِ بعناق، كان الحلمُ عذبًا جميلًا، لكنْ يخونهُ واقعنا وتخونهُ الظروف؛ والثورة هي أكثرُ من حناجرَ تصدحُ بالشعاراتِ المكرورة، أكثر من أرتالِ اللَّحم التي تتحرّكُ كلّها في اتّجاه واحد، كنّا في واد والجماهير الشعبيّةُ في وادٍ آخرَ، تعجلُ ألسنتُنا بتلك الأفكار النظريّة الجوفاء، التي لن يجد الشعبُ سبيلًا إلى فهمها أو تبنّيها. وبدلَ أن نتوخّدَ، شرعت تأكلُ لُحمتنا الانشقاقاتُ والشعارات الزائفة...!

سحبتُكِ خلفي في طريق الشوك، بعد أن دفعتُكِ قسرًا إلى تبنّي مشاريعي التافهة، أدخلتُكِ السراديبَ السرّيّة للمير، تعرّضتِ بسببي للتعذيب، قبل أن أرسلَ بقاياكِ للمنفى. العاشقُ الحقيقيّ لا يورّطُ من يحبُّ في شظف المآزق القاسية... وأنا، بعدَ أن بخلتُ عليكِ بقليل الدفء الذي ترجوهُ كلّ عاشقةٍ، نخستُ قلبكِ بشططٍ كبيرٍ، والآنَ في هذه الزنزانةِ المأفونة، وقد حتّ الجلاد جسدي وما عاد لي في دهاليز القلب من الأمل حتٌّ، أكاد أجزمُ أنّني وهبتُ إزميرالدا في شهورٍ قليلة من الفرح أضعاف ما وهبتُكِ في سنوات، أنفقتُ في كوبا غلال السعادة وادخرتُ جواهر للمأساة، هذه الحقيقةُ تختزلُ فداحةَ ما جنيتُهُ.

حين أذن الجلّادُ لإزميرالدا بوصلي قبل عام تقريبًا تأكّدتُ أنّ الخيانة تتقفّى أثرَ صاحبها.. واستبدَّ بي خوفٌ ضارٍ في أن ترتّبَ الصدفةُ أو الحاقدون موعدًا لها مع جواهر، هي لا تدري أنّني في مكان بعيد خلّفتُ عاشقةً تنتظر، وجواهر لا تعرفُ أنّني خنتُها، وأنّني إمعانًا في الخيانة خنتُها مع فتاةٍ اسمُها الجوهرةُ بالإسبانيّة: إزميرالدا. لو حدث واستدرجتهما اللّعنة صوب لقاءٍ، فلا بدَّ أنّني أستحقُّ ما بعدهُ، فأنا من افتعلَ هذا الدنسَ كاملًا.

إزميرالدا.. حين جاسَت صُورها في الذهن وأنا أساقُ إليها، تخيّلتُها خيطًا من أملٍ مشعٍّ، رأيتُ في الأفق مشاريع سراح وحريّةٍ، ابتنيتُ قصور آمالٍ شاهقة تكسّرت على رأسي أوّل ما رأيتُها...

لم يكن في هيأتِها ما يشي بأنّها قُدِمت لنجدتي، ملابسها مبعثرةٌ وفي وجهها رضوضٌ وكدماتٌ من خرجَ للتوّ من حبسٍ أو أشغال شاقّة، لكنْ لا شيء من ذلك أذهبَ جمالها الباذخ. لم تعلّق على هيأتها حين سألتُ ببنتِ شفة، ثمّ حدّثتني بحكمةٍ من شبَّ عن طوق حبٍّ قديم! ربما لا يكون في تاريخها النفسيّ أكثر من نزوةٍ عابرة، كانت تستعيدُ ماضينا مثلما يستعيدُ جنديٌّ بطولاته الغابرة، قالت إنّها طلّقت اليسار وتبنّت البوهيميّة، قالت كلامًا كثيرًا ضاعَ منّي في صخب الدهشة أكثرهُ، ولم تنسَ أن تشفقَ

على المآل الذي انتهيتُ إليهِ وعلى جسدي، خلخلت اتُساقهُ السجون وأكلت لحمَهُ.

كان أكثرُ ما أرجوهُ ونحن واقفان بين حرارة الماضي وصقيع الحاضر أن تمضي بعيدًا عن هذه المدينة، لا أريدُ أن أدميَ قلبَ جواهر أكثر ممَّا فعلت. ولو شاءَ الجلَّادُ أن يمنحني زفرةَ المحكوم بالإعدام الأخيرة ما كنتُ أشتهي أكثرَ من أن تمضي إزميرالدا، هذا الرمحُ المدبَّبُ بعيدًا عن صدر جواهر... أحبُّها وأشتهي أن يأذنَ لها الجلَّادُ بزيارتي أسوةً بإزميرالدا، لأمنحها منّي طلاقًا نفسيًا، هذا الجسدُ الذي يقلُّ روحي المتعبة، بالكاد يؤدّي واجبهُ اليوميّ، بالكاد يبلعُ ما يدفعُ فيه من طعام، وتتضاعفُ المحنةُ حين طرحه، جسدٌ يتهجّى حياةً ما عادت في مقدوره، الأفضلُ أن ينتظرَ الموت. لو أذنَ لي الجلَّادُ بالخروج، فإنّني سأدفعُها إلى تركي، ما عادت تليقُ بي الأفراحُ. أضعتُ مواعيد الغرام، حين حاربتُ برعونة الطواحين الهوائيّة. أمّا الآن، فجسدي قطعُ خردةٍ بالكاد تلملمُ شتاتها المفاصلُ، لو شاء الجلَّادُ أن يرحمَ عجزي فلا بدَّ أن يفعل ذلك بالإجهاز عليّ، ولو شاء أن يمعنَ في عذابي فسيطلقُ سراحي، سيخلّفني في بلادِ الربِّ أتكوَّرُ بجراحي كلّما طبّبتُ جرحًا انفتحَ آخر!

الزنزانة ٠٩ أكلت خمسًا وثلاثين جسدًا كانت في ما مضى تنضحُ بالخصب والحياة، وجدرانُها الصخريَّةُ التي تنخسك كلّما اتَّكأتَ عليها، تشهدُ على الذين رحلوا. بعضهم أودعوها خربشاتهم، ورسائلَهم التي لا يفكُّ طلاسمها سواهم، أو عقدوا لأسمائهم قرانًا رمزيًا مع أسماء حبيباتهم خارجًا، حرفٌ من اسمها وحرفٌ من اسمهِ، وقلبٌ يضمُّ الحرفين! أمّا البعض الآخر، فقد ترك دمهُ على الجدران، كثيرًا ما تتوغّلُ الأيادي المتّسخة في الجراحات، وتعودُ بفيض من الدم أو القيح تسفحهُ على الجدران دون غضاضةٍ. ما عاد في الغرفة غيرُ الجدران يأوي إليها ما فاضَ عن الجسد، حتى الملابسُ اهترأت فوق العظام المنخورة، وأضحت مِزَقًا بالكاد تسترُ عوراتِنا.

الجدرانُ الباردةُ التي تخزُ الظَهرَ كلّما اتَّكأ عليها، تحملُ تفاصيلَ ما حدث في الطلاسم التي تملأها، وفي الدماء التي علقت عليها، لكنَّ الأيادي الآثمة لا بدَّ أن تطمس كلَّ شيء، وكأنَّ شيئًا لم يكن... نضالنا من أجل الحريّة والكرامة، وسيرُنا وكلّ شيء يعنينا، سيجدُ نهايتَهُ ها هنا، وكأنَّنا لم نكن. حتى الذكرياتُ، ذكرياتُنا في نفوس من أحبّنا ستضمحلُّ وتتحلّل، غدًا أو بعد غدٍ، ستبتلعهم كذلك دوّامةُ الموت. والتاريخُ، هذا الذي لا ننفكُ

نتبجّحُ بهِ، ونذكّرُ به زبانيةَ النظام، لا بدَّ أنَّه لن يتذكّرنا، وحتى إن فعلَ، فإنَّه لا بدَّ أن يذكرَ أنّنا سقّاطتهُ ومنبوذوه، لا بدَّ أن يسفّهَ أحلامنا الجميلة. الميرُ الجديد سيكتبُ في بياض التاريخ ما يريد، وسيصفُ المارقين بأقذع الصفات. أفلست أوهامنا، وكان يجدرُ أن نسيرَ إلى ما نريدُ أكثرَ قوّةً، فالتاريخُ يكتُبهُ الجديرُ به، ولا يليقُ بصناعةِ التاريخِ سوى الأقوياء، ونحنُ بدلَ أن نتسلّحَ بالعتاد، سلّحنا حناجرنا بشعارات ملتهبةٍ، وبدلَ أن نحتزبَ الكلاشنكوف، تأبّطنا أقلامنا وأرهقنا الجرائدَ بفيضٍ من مداد، جرائد على كثرتها لا تسدُّ جرحًا واحدًا تنسكبُ دماؤهُ..

التاريخ أغنية القويّ، سيحفظها الآتونُ ويردّدونها كأنّها الحقيقةُ المطلقةُ، والتلاميذُ في المدارس لا بدَّ سيستظهرونها أمام المعلّم البدين، كأنّها حكايةٌ بالغةُ الرتابةِ «بالأمسِ حاول بعضُ المارقينَ الخونة، المأجورينَ الانقلابَ على الحكم بدعم من بعض الأنظمة المجاورة، لكنَّ يقظةَ حرّاسِ الأمّةِ حالت دون ذلك...»، وقد يسهبُ المؤرّخُ في ذكر تفاصيل هو في غنى عنها، وقد يلعنُه التلميذُ، لأنَّه حمّلهُ من التفاهات ما لا يطيق. الحقيقة أكذوبةٌ حين تخونُها الآذانُ الصاغيةُ، والأكذوبةُ سيّدةُ الحقائق حين تجد من يطمسُ كلّ ما قد يدفعُ إلى الظنّ بأنّها أكذوبةٌ. كنّا أبرياء حدَّ السذاجة حين آنسنا إلى التاريخ وحياده المزعوم، ومغرورينَ كنّا بما نشحذُ به أذهاننا من أفكار لا تليقُ بواقعنا. بنا ما كانت تليقُ الثورةُ، لأنّنا لم نُنضِج قطُّ أسبابها.

قد يحفظُ التلميذُ درسَ التاريخ، قد يحفظُ الزيفَ كاملًا، فيصيرُ حقيقتهُ التي سيُدرّسُها فيما بعد، لن يصلهُ سعالي، يشقُّ ثوبَ الصمت ويستجلبُ إليّ النظرات المتبرّمة، ولم يصلَهُ أنينُ عمّي إدريس، تنغلُ في ظهره الديدان، بعد أن ألهبت ظهرهُ السياطُ. استعصت على الالتئام جراحاتُهُ، وجعلت تتفسّخُ يومًا بعد آخر، ذلك المسحوقُ الأبيضُ الذي ذرَّهُ الجلادُ على ظهر العجوز، وإن كان قد استوقفَ الرّوائحَ النتنةَ التي كانت تندفعُ من جراحاته، فإنَّه أبدًا لم يستوقف تفسُّخها وانحلالَ لحمه؛ بعد شهور مريرةٍ من الاعتلالِ، هزَت طينَ ظهرهِ المضمّخَ بالصديد والمتفصّدِ بالدم دودةٌ، سحبتُها بأصابعي وألصقتها بالجدار، لكنْ بعدها رأيتُ الكثير من الديدان، تشرئبُّ كلّما غفا، حتى إذا صحا أو تحرّكَ اندسّت بخفّةٍ.. كان الأمرُ يصيبُ أعماقي بكمدٍ.

ما كان أحدُنا نحن الأربعةُ بأفضل حالًا منه، كلٌّ يكابدُ ما اعتورَ جسدهُ جرّاءَ الأسر الذي تطاولَ أكثر ممّا ينبغي.. كلٌّ يفترشُ ذكرياته

الشاحبة، يضعُ رجلًا في الحياة، وترقصُ الأخرى على حافّة الموت..والجلّادُ بعد زهاء السنتين من التعذيب المتواصل، أهملنا في الزنزانة، وما عاد يستدعينا لتلك الاحتفالات القاسية، لربّما آثرَ أن يترك فُتاتنا للموت، يتسلّى كطفلٍ بطزق أبوابنا الموصدة، حتّى إذا لبّينا نداءاته ولّى هاربًا!

صار الموتُ في هذه الزنزانة أكثر ما أتمنّاهُ، وأقسى ما لا أرجوهُ أن تلفظني إلى عناق جواهر، عناقٌ تتوقّفُ فيه على انتهاء تاريخ صلاحيتي، ساعة واحدة ستبوحُ لها بالسرّ، ستقولُ لها ببساطة أنّي هتكتُ ستارة السراب التي تفصلُ الموتى عن الأحياء، أمّا إذا تطلّعت إلى المنديل ورأت الدم الذي يطيشُ من فمي، فلا بدّ أنّ الأمر سيفطرُ قلبَها، وأنا لا أريدُ أن أدميَهُ أكثر ممّا فعلت... أريدُ أن أحرّرها منّي، لا أريدُ أن تظلّ قيد انتظار لجثّةٍ قد تلفظها الزنزانةُ إلى مقبرةٍ جماعيّةٍ، وقد تلفظها إلى عناقها وفي جوفها رمقٌ أخيرٌ ينطفئ.

جواهر.. كنتُ محظوظًا حين خصّني بكِ الربُّ، غبيًّا حين لم أقدّر منّةَ الأقدار، كافحتُ لأنالكِ، وحين ظفرتُ بكِ أهملتُكِ وسرتُ إلى حرب أخرى. تعساءُ نكون كلّما اتّسعت الهوة بين ما تبغيهِ عقولنا وما يشتهي القلبُ، وأتعسَ كلّما حاولنا أن ندفعهما معًا إلى عناق!

جواهر... يا كلَّ الرُّوحِ، فلتغفري!

لم تكن إزميرالدا خيانتي الوحيدة، فاتحةُ الخيانات كانت، حين غرّرَ بي ماركس ورفاقهُ، ثمّ حين تماديتُ في تقفّي سراب كلماتهم البرّاقة في صحراء هذا الواقع. أحببتُكِ يا كلَّ الرُّوح، أحببتُكِ مثلما لم يحبَّ قبلي عاشقٌ، لكنّهُ كان حبًّا تخونهُ الأفعال، لم يبدر منّي ما يؤكّدُ أنّني أستحقُّكِ.. انشغلتُ عنكِ بالحروب التافهة. لو فقط أحرّركِ منّي، وأشجّعُكِ على نسياني، آه.. سأموتُ قريرَ العين.

عمّي إدريس بعد أنين طويل مال أخيرًا، تراهُ مات؟! سعيتُ إليه على ركبتيّ مثلما فعل الآخرون، تحلّقنا حول الجسدِ المتعبِ، كانت جراحاتُ ظهرهِ مفتوحةً كعادتها، ومن فمهِ، كانت تنسحبُ رغوةٌ بيضاء. بعد أن علّقَ على الحائط أكثر من دودةٍ، سقطَ. جسستُ نبضَ ساعده وفاضت بدموعهما عيناي، لم أقل شيئًا، لكنّهم فهموا أنّه قضى، كانت في ظهره حفنةُ ديدان، تطلُّ ثمّ تسبحُ في لحمه. رأيتُ في أمواج الدمَ المتجلّط والقيح نهاية اليسار، رأيتُ اندحارنا الفاحش، والمولود التي كنّا نترقّبه ها هو يؤكلُ من لحمنا، لم يصرخ أحدُنا ولم نرفع روحهُ بالعويل،

اكتفينا بدموع تغتسلُ بها أرواحنا قبل أن نزفَّ مثلهُ للسَّماء، وحين خبطْتُ على الباب، اندفع اثنان من زبانيّة الميرِ، سحباهُ كما تُسحبُ الشاةُ بعد ذبحها، سحباهُ من قدميه فجرجرا ظهرهُ المدمّى على الأرضيّة الخشنة، كانت تتقفَّى أثرهُ خيوطُ الدم، وبعض الديدانِ تتلوَّى كمن بهِ مسٌّ، كان منظرًا شنيعًا بحقّ!!

حين انغلقَ دونَهُ الباب، بكيتُ، لعنتُ الدُّنيا والأقدار، واختنقتُ، كأنَّ الربّ يندرني، وسعلتُ بحدَّةٍ وبصقتُ دمًا، كانت تجولُ بصدري صورةٌ بغيضةٌ عن الطريقة التي انتهى بها عمّي إدريس، رأيتُ الديدان تثقبُ ظهرهُ، ثمَّ رأيتُها تحفُّ شغافَ قلبهِ وتقرضها، ولم ينقذني من أتونِ تلك الخيالاتِ المريضةِ سوى المفتاح الثقيل، كان كما لو أنَّه يأخذُ القفل اغتصابًا، وسحبَتني بعدها الأيادي.. فكَّرتُ في إزميرالدا، لربّما ساقتها صدفةٌ أخرى إلى هذه البلاد، فكَّرتُ في جواهر، ربما أذن لها الميرُ أخيرًا بزيارتي، قلّبتُ هذا الاستدعاءَ على وجوههِ وأنا أسيرُ نحو لغمٍ قدريّ آخر، ما كنت أحسبُ أنَّ الحياة تُعدّني له. قال السجّان، وهو يتأفَّفُ مرارًا من بطئي. كنتُ كما طفلٍ يتهجَّى المشيَ للمرّة الأولى:

«الداخل مفقود والخارج مولود»...

فقدتُ سفني بوصلتها في يمِّ هذه السراديب منذ زمن غابر، تراهُ يقصد بالمثل ولادتي. كلَّ لساني وأنا أحاول عبثًا أن أنتشلَ منه سؤالًا، لكنَّهُ أغاثَ لهفتي، حين قال على نحو حاسم:

مبروك...

أربكت جسدي العبارةُ، ازدحَمَ بي فيضٌ من المشاعر المتباينة التي لم أكن مهيّأً لها، فرحتُ ثمّ أصابني الحزنُ في مقتل، اخترقت نصالهُ نوازعَ القلب، وتخلّى عنّي الجسدُ دفعةً واحدةً، رأيتُ الهزّةَ النفسيّة تجرُّدني من جسدي وتهوي به، سمعتُ لارتطام جسدي بالأرض دويًّا مجلجلًا.. ثمَّ رأيتُها مزيجًا من وهمٍ ونور تدنو، تهدهدُ عجزي، تلملمُ أشلائي، ثمَّ اختفت.ما عدتُ أرى شيئًا، لكنَّ ضجيجَ سيّارة الإسعاف جأرَ كذئبٍ جريحٍ في القفار.. تمنّيتُ لو أنّي أموتُ، وبرقتْ في الذهن قبيل الغياب صورة الديدان، وهي تحفُّ قلبًا وتتحرّشُ بجدرانه الرَّخوة..!

الرسالة (٨)

من جواهر إلى سيمون

صيف ١٩٧٤

«ورحلتَ يا حبيبي، أسلمتَ للبحرِ أضلعك، فلم يعبأ بما استفحشَ في قلبِكَ من شجنٍ، ولم ينتبه إلى أنَّ ارتماءكَ فيه لم يكن أكثرَ من لحظة ضعف، لماذا أيها البحر لم تُعِد لي حبيبي سالمًا كامل الأعضاء؟ هو الذي نظم فيك ألف قصيدةٍ، وأفنى في مديحك وتعدادِ صفاتك الأغاني، لماذا أيُّها الكبيرُ لم تردَّهُ إلى جادة الصواب بدل أن تهرسَ على صخورك الناتئة أضلُعهُ، هو الذي استودى جسدهُ صوب مزالِقِ التعذيب القاسية، فقط كي لا تسرقَ تلك السفنُ الثقيلةُ التي تمخرُ عبابكَ قادمةً من الشمال كلَّ ثرواتك الدفينة. لست كريمًا أيُّها البحر، مثلما قالوا في القصائد، ولا شريفًا. حين حلَّ على موجكَ جسدٌ كسيخ ضعيفٌ على عينيه غشاوةُ سوادٍ لم ترأف بحاله ولا أشفقتَ، بادرتَ إلى إغراقه قبل أن تكسرَ ضلوعهُ على الصخور التي تحفُّ موجكَ في اليابسة... لماذا لم تكن به كريمًا أيها الكبير؟

سيمون... تعيسة بعدَكَ أيّامي، والقلبُ منكسرٌ حزين.. فأينكَ أيُّها الوسيمُ لتهدهدَ هذه الجراحات التي انفتحت في سطح القلب؟ لا أشتهي من الدُنيا سوى أن تهبني وجهكَ للمرَّة الأخيرة، أريدُ قبل أن يحوّطَ جيدي حبلُ القصاص أن أستجديكَ غفرانًا، أعلمُ ولا بدَّ أنَّكَ الآن تعلمُ أنَّني لا أستحقُّه. أدميتُ دونَ أن تدري قلبكَ، وكان يمكنُ ببذرةِ التعهّر التي كانت تقبعُ في الأعماقِ أن أهبكَ سراحًا مستحقًّا، كان يمكنُ بدلَ أن أسلّمَ جسدي لفرعون المدينة مجّانًا، أن يأخذهُ رشوةً، كان يلهثُ خلفي... وقبلةً، مجرَّدُ قبلةٍ تافهةٍ كانت لتشتريَ لكَ أبهى المنافي! ساديةً كنتُ حين أصختُ السّمعَ لنداءاتِ الخطيئةِ، ووضعتُ عمًا سواها أصابعي في أذنيَّ.

قاسم

٢٣ ٠٧ ١٩٩٥

عيادةُ د. ليلى حدّاد

مضت مهرةُ الشمال وخلّفتني نهبًا للأيّام العجاف، تدثّرت بدفء حبيبٍ كانت تتسلّى بي ريثما تعود إليه، لم تكن في تاريخ الطفولة المستعادة أكثرَ من نشاز بغيض وغير مفهوم إطلاقًا، صحيحٌ أنّ في الأمر لذّة من نوع ما وعذابًا كذلك، لكن ترى ماذا كان يعني الأمرُ بالنسبة لجوزفين المجنونة؟! ما عدا اللّيلةِ الأخيرة التي توّجتْ بها انتظاراتي، وبعض اللّيالي التي سبقتها كنتُ أراها ترسلُ يدًا إلى عانتها أكاد أجزمُ أنّ الأمر كان يخلو بالنسبة لها من أيّة لذّةٍ، وهب أنّها كانت تطلبُ لذّةً، أعتقد أنّ الثكنة التي كنّا نقطنُ فيها لا تخلو من فحلٍ يسقي جدبها، فلماذا سعت إلى **اغتصابي**؟ ولماذا كانت تستطيبُ ذبحَ شهقتي الجنسيّةَ؟!

على حافّة القارّة العجوز، خلّفتني ممهورًا بخيبتي، ألوكُ الكلمةَ ذاتها، انغرست بعد رحيلها شوكةً في الفم، «**أحبها... أحبّها**» أكرّرها المرّة تلو الأخرى، دون أن أعي أنّني أفعلُ. مطعونًا كنتُ برحيلها ومغدورًا بخيانتها الفاحشة، حين رأيتها تتدثّرُ بعناقه لا أدري لماذا رأيتهم في الذهن يتناوبون على خيمتها، لا يكادُ يخرج أحدهم حتى يقتحمَ عارها غيره، نكأ ما استجدّ من الجراح جراحًا أخرى غائرة في الرّوح، تندملُ وتتفسّخُ باستمرار!

مضت غيرَ أوّابة، لم ترحم شوقي لها، ولم ترمُم تهالك دواخلي بكلمة واحدة. مضت دون وعدٍ ولو كان كاذبًا دون وداعٍ، دون التفاتةٍ عجلى. مضت كأن لم تجري بيننا ذكرياتٌ جمّةٌ وتاريخٌ من الحمم المتدفّقة. مضت كأنّني في اللّيلة السابقة لم أسكب في رحمها أكثر من شهقة معذّبة. مضت دون أن تتجشّم مشقّة نظرةٍ أخيرة، أهملتني مثلما تُهملُ عجوزٌ مسافرةٌ عامدةً كيس قمامتها على مقربةٍ من مقعد حافلةٍ آوى تهالكها. حين جرّني الميز وهو يكفكفُ بكلماته وجعي، كنتُ أسيلُ دموعًا، دخلتُ أوروبا باكيًا ساعات قبل أن أبرحها إلى جزيرةٍ صغيرةٍ غير بعيدٍ عن مدينة مارسيليا، جزيرةٍ بحجم قرية صغيرة اسمها (Château d'If)، قلعة إيف، فيها قلعةٌ عملاقةٌ، سمعتُ أنّها تأوي الكثير من المجانين، وهذا ما تأكّدت منه فيما بعد. فيها أشجارٌ كثيرةٌ وشاطئ جميلٌ، هناك حيث سأمكثُ سنوات طويلة قبل أن يتمّ شحني في السّفينة لأديز المدينة بقبضةٍ من حديد، وأمنحهم مفاتيحها وكلّ الأسرار. لكن، بين الحلول والرحيل آلامٌ

وعذاباتٌ تكبرُ معي وتزدادُ عنفًا، كلّما هرب بي العمر إلى الأمام، كان هارفي كلارك لا ينفكُ يلوكُ الأسطوانة المشروخة ذاتها، أنّني أملهُ الوحيدُ، وأنّني لا بدَّ سأغدو أفضلَ ممَّا أنا عليه، وأنّ التضحية التي قمت بها كانت في سبيل العلم والمعرفة، كان في اللّيالي الحزينة التي يفني فيها كهرباءهُ وحقَنهُ في لحمي دون أن يفلحَ في الوصول إلى نتيجة. يخرطُ على مسمعي كلامًا شجيًا، وهو لا ينفكُ يكرعُ من زجاجة الخمر، كان حديثُهُ عن طفلتِهِ الوديعة، التي هربت بها أمّها إلى البحر انتحارًا، أدركهما صيّادٌ شابٌ يطفوان على مقربةٍ من القارب الأزرق، غير بعيد عن مدينة «دبلن» الإيرلنديّة...

كان يقول: هذا الحزن وأحزان أخرى تشبههُ أو تتّصلُ به، حتى إذا نزف ما يكفي من الوجع اعتدلَ مزاجهُ وسار إلى غرفتِهِ مترنّحًا، في كثيرٍ من الأحيان لا يكادُ يختفي حتّى يعود إليّ، وهو يقول:

«يحدثُ أن أنسى غدًا ما ذرفتُ أمامك، يفضّلُ أن تنسى كذلك، أو على الأقلّ، ألّا تذكّرني.. ثمَّ إنّه لا بدَّ أن يأتي ذلك اليوم الموعود الذي أطمسُ فيه ذاكرتَك بقديمها وجديدها»

تخفّفتُ في تلك الجزيرة من القيود التي كانت تكبّلني، أصبحت الجزيرةُ سجنًا كبيرًا، لكنّني كنتُ حرًّا فيه، حرًّا بما يكفي، من جرّبَ مثلي أن يقتعدَ كرسيًا واحدًا لشهور طوال، كلّما رمتُ عدها أخطأتُ، فلا بدَّ أن مثل تلك الجزيرة بالنسبة لروحه الظمأى جنّةٌ، حين لا أتمدّدُ على مشرحة المستر هارفي ولا يعبثُ بروحي مشرطهُ، أهيمُ على وجهي في الجزيرة الصغيرة مستكشفًا، أبكي وأضحكُ وحيدًا، وأكابدُ حنينًا شائكًا إلى منابتِ طفولتي، كلّما انتبهتُ إلى شساعةِ البحر أمامي. وفي كثير من الأحيان، حين تكونُ في النَّفسِ غلمةٌ، أذبحُ على حافّةِ الموج شهوةً كسلى وأنا أستعيدُ طلاوةَ جسدِ جوزفين الباسق، ألتصقُ به **حرًّا من عجزي**، مارِدًا يخرمُ بفيض الشهوة جسدها.

وفي اللّيل، حين لا يقزرُ المستر هارفي استبقائي... يحشرني في تلك الزنزانةِ الباردة، أسميتُها زنزانةَ البلهاء، يجلسُ قبالتي ثلاثةُ شباب، يتطلّعون إليّ ببلاهةٍ، وجوههم مبهوتةٌ سرقت منها عرامةُ الدّهشة النّور، لا ينبسونَ بكلامٍ، كأنّما جماجمهم أفرغت من أدمغتها.. خفتُ أوّل عهدي بهم، لكنْ في صباح ليلتنا المشتركة الأولى، حين لمحتُ الممرّضينَ يدفعون في أفواههم الطعام، ثمّ حين رأيتُ أنوفهم تجري بمخاطها وتلتحمُ بلعابهم المنسكب، تأكّدتُ أنّهم أفرغوا حقًّا من أشياءَ صميمة. حين سألتُ عنهم

المستر هارفي، ضحكَ حتى التمع في جوف فمه ضرسٌ ذهبيّ، وقال: هم حمقى، ثمَّ أضاف بصوت مخدوش حين بدت على وجهي سيماء الاستفهام:

هم أسلافك، قبلك جرّبتُ هذا الهبلَ على ثلاثة أطفال، ألم تسأل نفسك لماذا أسميناك «إيفان الرابع» أو (I٤)؟! لكنَّ التجارب باءت بفشل ذريع. الأوَّل، آسيويّ استجلبناهُ من الشرق، من الشرق البعيد، كمبوديا، وأسميناهُ الإسكندرَ الأوَّل. انكسرَ زجاجُ رأسه قبل أن تبدأ معركتهُ مع الكهرباء؛ والثاني، أسميناهُ فيلهلم الثاني، ذاك الزنجيّ كان صيدًا ثمينًا من غابات ساحل العاج، استجابَ للدواء سريعًا، لكنَّ رعونةَ طبعه دفعت بالتجارب إلى الإفلاس؛ والثالث، إدوارد الثالث ذاكَ الهنديُّ الرعديد، كانت تُفزعهُ الحقن ودوخةُ الكهرباء، ما كاد يكملُ بضعة شهورٍ حتى انخذلَ تمامًا، جنَّ جنونهُ وما عاد يليقُ بتجاربي؛ وأنت، أنت يا إيفان الرابع الوحيدُ، الذي قدرتَ على تحمُّلِ كلّ هذا الشطط. لا أدري من أين تستمدُّ قواك، لكن أرجو أن تتحمّل قليلًا أكثر، ما عاد ينتظرُكَ من العذاب أكثر ممَّا مضى، وأنا لا أعدُكَ بذاكرةٍ جديدةٍ بكرٍ فقط، بل بحياةٍ تليقُ بصبرك على بؤسٍ اخترتهُ لكَ... أعدُكَ بأعراسِ الدُّنيا جميعها.

أريدُ جوزفين...

وضحكَ ملأ شدقيه، همَّ بأن يقول شيئًا، لكنَّهُ تردَّدَ طويلًا. وحين تكلّمَ، لم يعالج توقي لسماع خبرٍ عنها. قال كمن يخاطبُ نفسه، وهو يفركُ عينيه بأصبعيه، كمن يعيدُ دمعة حادَّةً إلى قرابها، أو كمن يمعنُ في استرداد ماضٍ بعيد:

كلّهنَّ بناتُ كلبٍ...

فيما بعد، وأقصدُ بعد سنتين أو أقلّ قليلًا من مقامي هناك في تلك الجزيرة، سيغادرنا الميرُ أذكرُ هذا جيّدًا مسربلًا في بزّة عسكريّةٍ، كتلك التي كنتُ أحملُها في حقيبتي أوّل ما دخلتُ المدينة، سمعتُ أنَّ مقاليدَها قد أعدّت له أخيرًا. في اليوم نفسهِ، سحبني خلفهُ مستر هارفي إلى السطح الشاهق لتلك القلعة، كانت تستندُ بظهرها الباسقِ إلى بحرٍ، كان مجرّدُ التلصّص عليه من ذاك العلوّ الشاهق يورثُ المرءَ ذعرًا، تشطحُ به الدوخةُ وتحفّهُ بعد ذلك الأسئلةُ والمبهمات...

على الحافَّة، حافة الهاوية، كانت تستريحُ عجلاتُ ثلاثة كراسٍ متحرّكةٍ، تقلُّ ثلاثة أجسادٍ أنهكها سفرٌ غيرُ ذي جدوى في الأعماق، أجسادٌ

ميتةٌ دون أن يطمسَ الربُّ سيرها في أجداثَ تسترُ عجزها الفادح: الإسكندرُ الأوَّلُ، فيلهيلم الثاني، وإدوارد الثالث، يجلسونَ على حوافِّ بحر تكشرُ جروفهُ أنيابها حينًا، ويطمسها العبابُ أحيانًا؛ وإيفان الرابع يقفُ حائرًا أمام هارفي كلارك، هذا الربُّ الصغيرُ الذي لا يمكن أن يأمرَ دون أن يُطاع. أمرني بأن أدفعَ حيواتهم الرخوة إلى البحر، بحر تنتأ جروفهُ مسنَّنةً كأنَّها تماسيحُ تتحيَّنُ سقوطَ ضحيَّةٍ. زمجرتُ حين سمعتُ أمرهُ، وحاولتُ الهربَ لولا أن حفَني جنودهُ بأجسادهم الصلدة من كلِّ اتِّجاه، أرعدت دواخلي، وسالت عيناي دموعًا.. ومستر هارفي يحرِّكُ لسانهُ بفيضٍ من الكلام، يناغي به جزعي ويغزرُ بي، إذ يسرد الأسباب، التي تجعلُ اقترافي لهذا الجرم مستساغًا...

قال إنَّ كلَّ ما حدثَ بعد المجزرة الكبيرة، ليس أكثر من كابوس بغيض، سأصحو منهُ حين أتبنَّى ذاكرةً جديدةً.. قال إنَّ الإنسان هو الذاكرةُ، تجارُبنا، آلامنا، وحتى الأفراح ليست أكثر من أليافٍ هشَّةٍ تسبحُ في مستنقع لزج. الحياة التي لا نكفُّ عن امتداحها ليست أكبر من جدرانِ صلدةٍ، تأوي كيلوغرامًا واحدًا من البياض الذي ينزُّ بسوائله المقزِّزة، كيلوغرامًا واحدًا أو أكثر بقليل هو كلّ ما نحنُ عليه، والباقي حشوٌ ضروريٌ لتستقيم حياتُنا وتكون العذاباتُ أفدح.. قال بعنجهيَّةٍ إنَّه سيمنحني مقابل أن أدفعَ هؤلاء إلى الهاويةِ حنكةَ آلهةٍ في إدارةِ ماضيٍّ، أنتقي ما أشاءُ من حدائق الوهم أملأ بها الحقلَ الذي سيقلبُهُ جرَّارُهُ. ما نحن إلَّا ما تبوحُ به الذاكرة، ما نحن إلَّا مرضى بما كنَّا عليه، ومعطوبونَ بتاريخٍ من الألم؛ وكنتُ معتصمًا بالصمت، يتراخى رفضي أمام كلامهِ، يمنَّيني بالسعادة، وإمعانًا في التغرير بي، قال بأنَّني سأتعلَّمُ، وأردفَ أنَّ في الجزيرة من سيصقلُ جسدي وذهني لأكون من سأكونُ بعد أن يطمسَ ما أنا عليه الآن، ويستنبتَ لي في قعرِ الذاكرة ماضيًا يليقُ بصبري على الدنيا..!!

وحين خاصر البحرُ الشمس في الأفق البعيد، وانكسرت في المدى حبالها وأصابها وهنٌ، وسرقت المسافاتُ وهجها المتَّقدَ، صدحت كعادتها كلَّ يومٍ أبواقُ القلعة بمعزوفة **«كارمينا بورانا»** سنوات وهذه المعزوفة تحفرُ في ذاكرتي القديمة ودمي لحظتها بالضبط، كنتُ أمدُّ يدينِ مرتجفتينِ إلى الكرسيِ المتحرِّك، تململَ الإسكندرُ الأوَّلُ، وما كاد يحدِّجني بنظرة إدانة، حتى حرَّكتُ الكرسيَ فانزلقَ. أحسستُ للحظاتٍ أنَّ روحي انزلقت معه، أنَّ أمعائي انسكبت فوق البحر، كان فيلهلم الثاني يرتجفُ ويجري فمهُ بلعابهِ، وكنتُ مثلهُ تصطكُّ قدمايَ وتخونني الأصابعُ. ما كدتُ

أضعُ يديّ على الكرسيّ حتى هربَت به الهاوية، وتركتني أرفعُ قلبي كدلوٍ بعدما فزَّ إلى أحشائي.. أمّا حين دفعتُ بقوّةٍ حاسمةٍ إدوارد الثالث، ثمّ حين تطلّعتُ إلى الهاوية، ورأيتُ أجسادهم منكسرةً يقلُّها بحرٌ اصطبغَ ماؤهُ بالحمرةِ، فقد أصبتُ بالغثيانِ وترنّحتُ على الحافّةِ، قبل أن تتلقّفَ انخذالي الأيادي، وتشرّعَ الحقنُ في مسامي أكثر من ثقبٍ..

حين أفقتُ، كان القيء يقفُ حائرًا في الجوف، تملأ حموضتهُ فمي.حين رميتُهُ شزرًا، ابتسمَ نصف ابتسامة وربتَ على شعري الغزير، ثمّ قال إنّ ما قمتُ به كان عربونًا ضروريًا ليطمئنّ قلبهُ، ثمّ قال إنّ الأيّام الآتية صعبةٌ بقدر ما هي حاسمة، ولم يقل بعد ذلك الكلام المشروخ شيئًا، تركَ للأيّام مهمّةَ البوحِ بما استضمرهُ كلامهُ الغامض، أيّامٌ شاقّةٌ عصيبةٌ حشرتُ فيها مع مجموعة من الشباب، يتدرّبون ذلك النوع من التداريب الشاقّة، لكي يصبحوا وحدةً أمنيةً بالغة الخطورة تحرسُ أمّهم فرنسا، وأنا معهم أتدرّبُ لأصبح خائنًا لوطني!

رأيتُ الويلات. لم يكن جسدي معدًّا لكلّ ذلك التعب، وإذا كان الشبابُ الآخرون يتدرّبونَ نهارًا حتى إذا أزِفَ اللّيلُ أسلموا أضلعهم المتفكّكةِ للفراش، فإنّي معهم أكابدُ بؤس النهار، وفي اللّيلِ أسلمُ جسدًا متداعيًا لمشرحةِ مستر هارفي، تتناوبُ عليه عذاباتٌ شتى، وعلى امتداد سنة، قبل أن يُحسمَ كلّ شيء، وجدتُ حصصَ الدراسةِ وتعلُّم اللُّغات تزاحمُ أيّامي المكتظّة بما لا أطيق.

متعبٌ يا ليلى بما حمّلتني عذاباتُكِ من عذاب، كنتُ في غنى عن شظف الحقائق، أغصُّ بها كلّ يوم وبها تنتكسُ حياتي، لكنّ آفةَ البشريّةِ الفضول، ما كان يجدر أن أسعى إلى فتح مغاليق الماضي، لأنّني لن أقطفَ غير الشجنِ أجرعهُ وأفسدُ به حياتي، مفاتيحُ حالتي كانت تقبعُ في الضفّة الكالحة من الذاكرة. كلُّ ما حدث، بعد أن لفظتني السّفينةُ على الساحل الإفريقيّ، ليس سوى صدى مبهم لأشياء ثاويةٍ في قعر الذاكرة، كنتُ لولا فضلكِ عاجزًا عن استجلابها.. إليكِ. جواهر.. فتنةُ العمر، ما كنتُ لأتعثرَ بحبّها لولا أنّ ما حدث معها على ظهر تلك السّفينة حين لوخت بمنديلها لحبيبها ثمّ حين هرولت لعناقه قد نكأ جرحًا عميقًا مترسّبًا في اللّاوعي؛ فراقُ جوزفين على بترِ. أغلبُ تلك الأيّام المشهودة التي نزفتُها على مضضٍ، بعد أن دخلتُ المدينة فاتحًا، ليست سوى ردّ فعلٍ نفسي لاواعٍ على لوائحِ الوجعِ المنسيّةِ في الأعماق.

مشروخةٌ دواخلي كانت حتى قبل أن أستيقظَ على نصالٍ متثلّمةٍ

صدئة راقدة في لحم التصقَ بها من فرطِ ما نوّمها النسيان.. مجروحُ بأوجاع لستُ بعد أن رأيتُ الويلات معدًا لها، قبل ذلك اليوم المشنوءِ، كنتُ أحسبُ أنَّ فقدانَ الذاكرة طامّتي الكبرى. بعده صارت استعادةُ الذاكرةَ كلَّ مصائبي... توحّدت في القلبِ شعابُ آلامِ ما قبل الفقدانِ بما بعده، فكان الغرق..

أشهدُ أمامكِ أيّتُها الوديعةُ إنّني لم أعش، تلصّصتُ على الدُنيا مثلما تلصّص الطفلُ الذي كنتُهُ على اغتيالِ أبيهِ، من ثقوب خيمةٍ اهترأت، وحين برحتُها احتجاجًا، وجدتُ أكثر من يدٍ تمعنُ في الأذيّة، وتطوّحُ بي صوب المزالقِ المعتمة، لم أعش إلّا مثلما تعيشُ الوطاويطُ، بين عتمة المظلوم وعتمة الظالم، مررتُ مطأطأ الرأس على الرصيف الضيّق الذي يحفُّ الحياة، أحملُ سرّةَ أيامي وكمشةَ فرحٍ كانت جواهرُ سيّدتهُ.

أشهدُ أمامكِ، يا ليلى، إنَّ من الغباء أن نسير صوب أجزاءَ تهدّمت من سيرتنا، وأضحت رميمًا يذروهُ النسيان. من العبثِ أن نوغلَ أيادينا في الجحور التي تعتورُ خرائبَ حيواتنا الموحشة بحثًا عن شيء ذي معنى، لأنّنا في الغالب قد نسحبُها وقد نخستها أفعى بلدغة تقفُ بنا بين موتٍ لا يكتملُ وحياة مشروخة.. النسيان نعمةُ المحظوظينَ، والذاكرةُ نقمةُ المغضوبِ عليهم أمثالي.

أشهدُ أنَّ جواهر وحدها كانت تقدرُ على إقامةِ مدائنَ جديدة على أنقاضي، وحدها كانت قادرة على ابتناءِ أنايَ، لولا أنّني اقترفتُ الزّلةَ الكبرى، ودفعتُ بحياتها وكلّ أرصدة الفرح التي كانت تملأ جيوب قلبها إلى الإفلاس، كان حبُها في القلبِ خيطًا من نورٍ شفّافٍ، يمتدُ عميقًا داخلي، ويحزّضُني على عناقِ بقيّة إنسانٍ شاحبٍ فيّ. حبُها الكبيرُ كان فرصتي الوحيدةَ للخلاص، لكن أخطأتُ إليها السبيل، وسيّجتُ ما بيني وبينها بالآثامِ، بدل أن أعقد روحها بمزيدٍ من الحبّ. دون أن أسألها شيئًا دفعتُها صوب المياه الضحلة، وغمرتُ الجسد البهيّ بطينِ الخطايا، من طينِ جئنا وإليه نمضي، لكن كان بين الطينينِ متّسعٌ لنكون أطهرَ، ولنسرجَ للغيمِ أرواحنا، كسرةَ أفراحنا وأشياءنا الصغيرة...

أشهدُ أمامَكِ يا صغيرتي إنَّ حياتي كان يجدر أن تجدَ منتهاها في ذلك اليوم الكئيب، الذي سرقَ منّي كلَّ شيء، بدل أن أُساقَ إلى مختبرات هارفي كلارك غنيمةَ حرب.. كان لا بدَّ من موتٍ يعالجُ العطب الفادح الذي أورثني القتلةُ، لكنَّ جوزفين كانت تُمنّيني بالحياة، مثلما كان يمنّيني هارفي بموتٍ مؤقّتٍ أصحو بعدهُ كائنًا آخرَ.

بحثتُ عن المستر هارفي الذي رافق خطايَ وشهد بطشي بالمدينة، لكنّني لم أجدهُ، كأنّه تبخّرَ، أو لكأنّه أدرك أنّني بزياراتي المتكرّرة لكِ يمكن أن أستعيدَ الجزءَ الذي طمرهُ منّي، ففرّ. مشَطَ رجالي المدينة كاملةً، لكنّهم لم يعثروا له على أثرٍ، اضمحلَّ في الهواء كدخان سيجارة، أو لكأنَّ الأرض انفلقت واندفع إلى رحمها المحموم. حين أفقتُ على الحقائق القاسية، ثم حين أفقتُ من الدّهشة، انشغلتُ عن مباغتتهِ بالتفكير بصنوف العذاب التي يستحقُّ، فكّرتُ بأن أفلقَ دبره فوق زجاجةِ الخمر أسوةً بكلبه الذليل، ثمَّ فكّرتُ بأن أزجَّ بأضلعهِ في فرنٍ هادر.. وحين انتبهتُ إلى ضرورة اعتقالهِ أوّلًا، ثمَّ التفكير بعد ذلك في العقاب على مهلٍ، لم أجد لهُ أثرًا.

لم أجدهُ. عاد الجنودُ بشاب في منتصف العشرينيّات، اسمهُ ياسر. قيل لي إنّه كان يسألُ عنّي، وحين سألتهُ عنه، قال إنّهم أرسلوهُ لكي يتتلمذَ على يدي سنةً واحدةً. كان في ملامحه شيء من وداعة الشابّ الذي كنتُه وأنا أقتحمُ المدينة، وفيه من البرود وثقل الدم ما كان فيَّ. حاولت أن أستنطقَ مسكوتهُ، لكنّه كان حذرًا، يتوهُ في ردهات الصمت حتى إذا لفظتهُ تحدّث بتقشُّف، كأنَّ أرصدةَ كلماتهِ قابلةٌ للنفاد، كان يبزُّ الشخص الذي كنتُه قبل ما ينيفُ عن عمره بقليل، وكانت تتلبّسُ بي بزّةُ المير المخلوع. وخفتُ.. خفتُ من ياسر هذا أكثر ممّا خفتُ من أيّ شيء آخر، تراهُ خامس دمى المستر هارفي؟ تراهُ غاب، لأنّه كان منهمكًا في تطوير العميلِ الجديد؟ سألتُ بإلحاح وفي أكثر من اتّجاه، فتّشتُ وثائقهُ، وبرقت في الذهن فكرةٌ خبيثةٌ. فكّرتُ بتصفيتهِ. علّمتني حروبُ المدينة أنَّ تصفية العدوّ المحتمل أولى من تصفية العدوّ، لكنّ برودهُ وإجاباته البريئة كانت صكّ براءتهِ. لم أقتلهُ، ليس فقط لأنّني أنستُ لبراءتهِ بل لأنّني كذلك مطمئنٌّ لسلطاني على المدينة، لكنّني دفعتُه بصفاقةٍ وأنا أقاوم مخاوفي خارج المدينة، ومن يومها وأنا مسكونٌ بهواجس مؤامرة قد تدارُ في الخفاء، لا تكاد تمرُّ ساعةٌ دون أن تنخس روحي بميسمها المبهمات والأسئلةُ القلقة.

لا أخاف من الموت، لكنّني سأسعى إلى انتقامي. عشتُ حياةً معطوبةً لا تليقُ بالكائن البشريّ. قبل فقدان الذاكرة وبعدها، دفعتُ حيواتَ الآخرين إلى العطب، قتلتُ المئات، بطرق شتّى، ولست آسفُ على أيّة حال. كان يحكمنا منطقُ المحو والمحو المضادّ، وكنتُ أقوى.. هكذا تكون الحروبُ دائمًا، ثمَّ إنّني لم أكن آدميًّا بما يكفي، كانت تملأ رأسي الحربُ فقط... حتى تلك الذكرياتُ التي وعد المستر هارفي باستنباتها، بعد طمس

ماضيّ، كانت مجرّد أكذوبة. حياتي برمّتها أكذوبةٌ يا ليلى، عصيةٌ على الفهم، فالأحرى العلاج.

لستُ أخرطُ أسرارَ روحي الدفينةَ في حضرتِك طمعًا في أن تعدلي اعوجاجَ سيرتي، أو تطبّبي القروحَ النفسيّةَ والجراحَ المتّسعةَ التي تعتورُ روحي.. أريدُكِ فقط أن تكوني شاهدةً على عمرٍ من النزف، لا أريدُ أن أموت وأخلّفَ الحقيقة ورمًا أسفل اللّهاة...

قبل شهرين، أو أقلَّ بقليلٍ، استدرجتني الغواياتُ صوب بلادٍ يحفُّها الغيم، صوب جبالٍ تنتصبُ معراجًا للسّماء، لم أكن في كامل وعيي حين قررتُ المجازفة وصعود الجبل المكلّلِ دائمًا بثلوجه، قرّرت أن أتقفّى وجعي الذي تركتُه هناك وذكريات تلوحُ شاحبةً، رأيتُني وعلًا طليقًا أسابقُ الريحَ، وأحملُ فوق الجلباب الصوفي الخشنِ ندفَ الثلج، رأيتُ أبي يدندنُ لحنَ أغنيةٍ حزينة، وأمّي تضفرُ خصلات شعرها الفاحم، وتغزلُ صوف الخراف، تنصبُ المنسجَ في خاصرة الخيمة الواسعة، وتنسجُ فراشًا وأغطيةً للطفل الذي سيأتي. كنتُ أشعر بانبهارٍ لذيذ ودهشة عارمة، كما لو أنّ إبرةً تسافرُ في رغوةِ الذاكرة، لتخيطَ قديمها بجديدها، كابدتُ انبلاجَ التفاصيل الدقيقة بدهشةِ آدمَ، وهو يرقبُ انفضاحَ سوأتِهِ الفجائيّ، وفي المساء، حين توغلَ البردُ القارس في العظام، التجأتُ إلى السيّارة، التمست ببطء مسالكها في البياض الزلق، وما كدتُ أبلغُ الطريقَ المعبّدة، حتّى أصبتُ بتلك الحالة الغريبة التي أضحت بعد ذلك اليوم أكثرَ إلحاحًا وقسوة..

تشظّت روحي على نحو مباغت في مساء ذلك اليوم الغريب، لا أدري كم لبثتُ، تغيبني متاهةُ دواخلي. كان ذلك الماضي، الماضي البعيد، متوهّجًا يفرضُ سطوتَهُ على الذاكرة، لكنّني فقدتُ زمام ماضيّ القريب، تساءلتُ للحظات عمّا أفعلهُ هناك في ذلك السفح المتاخم للجبل، كأنّ شيئًا ما سُرقَ منّي، وما عدتُ أملك منه غير أسئلةٍ بلهاء، لا ترمّمُ قطُّ الصدعَ الذي انفتح فيّ فجأةً. فيما بعد، صارت تنفتحُ في حياتي فجواتٌ، وتطوّحُ بي في سديمٍ من البلاهة والنسيان، كأنّ ما يجمعُ تصدّعاتِ الذاكرة شمعٌ، كلّما تفاقمت حرارةُ ما تضمُّهُ جدرانُ الجمجمة، سال وتفككت ذاكرتي، واتّسعت بينَ أيّامي فجاجٌ من الفقدان؛ لا أخاف الموت ولا فقدان الذاكرة، لكنّني أصابُ بالحزن كلّما تذكّرتُ أنّني سأخسرُها، وسأخسرُ بخسارةِ الذاكرةِ حفنةَ الأيّام الجميلة التي قضيتُها معها، وكانت نصيبيَ المتواضع من الفرح.

ليلى

٠١ ٠٩ ١٩٩٥

على حافةِ البحر

لم أكن لجوجةً في طلب الحقيقة، حين التمستُ منه أن يفتضَّ مغاليق حكاية لا أملك إلّا نتفًا منها، بدا كما لو استسخف الأمر، قال إنّه يجدر بي أن أتّعظ بحكايته، ولا أطلبَ أكثر من السّلامة مما لستُ أعرف. قال إنَّ بعض الحقائق يفضُلُ أن تظلَّ طيَّ الأجداث، لئلّا نزجَّ أنفسنا إلى جوار رميمها المتساقط، لكنّه حين قرأ الخيبة في ملامحي زقرَ بذلك الوعد الواهنِ، ونسيهُ فيما بعد.

أفلست خطّتي، والمفتاحُ الذي كنتُ أعتقد أنّه سيفتحُ باب ماضيَّ أصابهُ الصدأ وانكسرَ في رحم القفل، ربما يكون كلامهُ صائبًا، ربّما من العبثِ أن أنبش قبور السنين الغابرة وأعفّرَ بها حاضري، ربما صرتُ مطالبةً اليوم، أكثر من أيّ وقتٍ مضى، بأن أنفضَ عني وهمًا جميلًا سقيتُه منذ الطفولة المبكّرة بدموعي، وكان قد وجَّه كلّ اختياراتي في الحياة، جعلتْ المدينة مدجّجةً بقلقِ عمرٍ وأسئلةٍ عقيمة، هربتُ أوّل ما سمحت ظروفي إليها، كأنَّ عناقَ أبويَّ البيولوجيّينِ ينتظرني، ساذجة كنتُ حين لم أنتبه إلى أنَّ الحياة لست ضيقةً كما في خيالات القصص، وأنّني قد أسكبُ كلَّ ما في حوزتي من أيّام دون أن أرتقَ هذا الفتقَ في الهويّة.

وهذا الرجل العجيب، هذا الرجل الذي دفعَ بنزقٍ كنكوتٍ كلسَ ماضيهِ، وعرفَ كيف يسيرُ إلى أعماقه السّحيقة، لم يعبأ بطلبي، أو لعلَّ الهمَّ يفدحهُ، ولا يشتهي أن يزجَّ بي في همٍّ مماثل. هو مذ استعادَ ما يدّعي أنّه كلُّ ماضيه وهو شخص آخر. الحقيقة أنّه تخفَّفَ من فصامه، محظوظٌ هو حين تعثّرَ في الطريق إلى علاجه من الفصام بذاكرته، ولعلَّ الأمر على بؤسهِ قد ساعدهُ على تقبّلِ شخصيّتهِ وإن نسبيًا ولا بدَّ أنّه ساعدهُ على تجاوزِ فصامهِ، ما دامت لم تعاودهُ تلك الحالات، لكن الأكيد أنّه لن يظفرَ بحسناتِ تلك الصعقات الكهربائيّة كاملةً، حين قال إنّه يسقطُ في شركِ حالاتٍ من التيهِ النّفسي الذي يفقدُ فيهِ أزمّة ذكرياتهِ القريبة، تأكّد لديَّ هذا الظنّ، وأخشى ما أخشاهُ أن يزحفَ النسيانُ على حياتهِ، أخافُ أن يقعدَهُ المرضُ قبل أن ينبشَ الأرشيفات المنسيّة بحثًا عن تلك الحمقاء التي وهبت ابنتها، لا أريدهُ أن يفقدَ زمام عقلهِ ليس لهذا السّبب فقط، بل لأنّه لا يستحقُّ.

صحيحٌ أنّ سيرتهُ معفّرةٌ بالخطايا، ودربهُ مستنقعاتٌ من الدم، قالها هو وقبلهُ باحت المدينةُ بالكثير، خبرتني عن الأيّام الطوال التي لبثتها مسربلةً بالدم والقيء، وناسها ما إن يأنسوا لك ويتأكّدوا بأنّك لن تشيَ بهم حتى تحطّ إبرهم على الأسطوانات السريّةِ للمدينة، وتدور بكلام يكاد لا يصدّقهُ العقل، كلامٌ يهرّبونهُ خلسةً فيما بينهم على أجنحةِ النمائم، مخافةَ أن تشيَ بهم العيونُ المرصودةُ في كلّ حيّ، يزرعُ الميزُ راداراتهِ بين الأزقّةِ والدروب، تتسقطُ الأخبارَ، وتنتظرُ أن يزلّ بأحدهم لسانهُ لكي يُدفعَ إلى فرن قاسم الهادر دائمًا.

لا أريدُ من هذه المدينة غيرَ أن تفضي لي بالحقيقة كاملةً غيرَ منقوصةٍ، ووالديّ إن كانا على قيد الحياة، فإنّي أريدُ أن أجلوَ الأسباب التي جعلتهما يدفعانني إلى الغربة والغرباء، وأريدُ قبل ذلك أن أتدثّرَ بعناقهما من بردِ المجهولِ الذي سكن القلب، أمّا إذا كان القدرُ قد أودعَ جسديهما في قبرٍ باردٍ، فأشتهي أن أدفُنَ وحدتهما بدموعي والدعاء.

لكن، كما لو أنّ الحياة تقاومُ ما أريدُ، وترفضُ أن تسلّمني خيطًا أستهلُّ به هذا البحث، كلُّ أولئك الذين سألتُهم من قبل يطرقون لدقائق، يمعنونَ في استجلاب الماضي، حتى إذا عادوا بخفّي حنين كمّموا أسئلتي بإجابةٍ واحدة. يقولون، وحدهُ الجنرال، يقصدون قاسم، يعرفُ تاريخَ هذه المدينة ويحفظهُ في أرشيفاته.. قيل إنّه يملأ بها أقبيةً كان إلى الأمس القريبِ يقيمُ فيها مآدبَ عذابٍ على شرف المغضوب عليهم!

أحيانًا أشعرُ بعبثيّة هذا الأمر برمّتهِ، أفكّر بغلق العيادة والعودة من حيث أتيتُ، فهذا الرجل خطيرٌ، وإذا كنتُ قد نجوتُ من مكيدة الاغتصاب، فإنّ ذكرياتهِ لم تندمل بعد، والأجدر أن أبرحهُ قبل أن أكتويَ بناره، هو رجل مهبول، وحياتهُ مشروخةٌ، وأنا مثلهُ أحملُ شرخًا في الهوية، لكنّ شرخهُ أفدحُ، وأنا في غنى عمّا يضمّخُ سيرتي، ولا أريد من هذه المدينة قبل أن أهبها منّي طلاقًا سوى أن تبوحَ لي بسرّ الأسرار.

على شاطئ بحرها، فكّرتُ أن ألتقيهِ مرّةً أخرى، لكنّه تأخّرَ أكثرَ ممّا ينبغي. كان موعدنا هو الخامسةُ بعد الزوال، وعقاربُ الساعةِ تتثاءبُ صوبَ السادسةِ دون أن يأتي، هو ليسَ من طينةِ أولئكِ الذين يعطون موعدًا ويتخلّفون أو يبدون تلكؤًا، رغمَ علّاتهِ النّفسيّةِ وانشغالاتهِ الجمّةِ، مواعيدهُ مضبوطةٌ جدًّا؛ وإن حدثَ ولم يحضر خمس أو عشرَ دقائق قبل الموعد، فإنّه لابدَّ سيحضرُ في الموعدِ المحدّد، لكنّه الآنَ لم يأتِ. قرّرتُ أن ألحَّ اليوم في طلب دم لي في المدينة، أهدرتُ شهورًا في استنباتِ

الصداقةِ والثقةِ المتبادلةِ لعلَّ ذلك يلينُ قلبهُ، لكن يبدو أنَّ كلَ الأملِ الذي عقدتهُ حول هذا الرجل قد راح هدرًا، ولا أملَ في أن أصل جذوري دون مساعدتهِ.

ما عدتُ أقدر على المواصلة في هذه المدينة بقلب معطوبٌ وروح متصدِّعة، قرَّرتُ أن أفضيَ له بهواجسي حين يأتي، قرَّرتُ أن أفطمهُ هذا المساء عن عيادتي، وأن يكون لقاؤنا آخر اللّقاءات، لأنَّني ما عدتُ أطيقُ أن أجاورَ ماضيَّ، وأكون على مقربة من والديَّ دون أن أعرف من هما، ما عاد قلبي يطيقُ تجرَعَ هذا الفشل، أجرِّعهُ بالتقسيط، كلَّ يومٍ.

بعد أيّام، سأرحلُ، سأمضي.. لا أدري إلى أين! لكنّي سأمضي.ما عاد في القلبِ من الصبرِ ما يسعفُ على تحمّل هذه المدينة ووخزها المتواصل لروحي، حزينةٌ لأنَّني لم أصل لما جئتُ من أجله، لكنَّني لستُ نادمةً، طبَّبتُ جراحات الكثيرين الغائرة، وسمعتُ الكثيرَ من الحكاياتِ المؤلمة.لا تنتهي الحروبُ حين يبدو أنَّها انتهت، وإذا كان البعض منهم يتكوَّرون في منعرجات أيامهم بجراحات انبلجت في أجساهم، فإنّهم يجدون في الغالب من يضمّدُ آلامهم، أو يجدون دون ذلك الموتَ، لكنَّ بعض معطوبي الحرب تنتصبُ في دواخلهم أورامٌ نفسيَّة بالغةُ الفتكِ، لا يجدرُ أن نقيسَ خسارات الحروب بعدد الذين قتلوا، ولا أولئك الذين جرحوا، بل بعدد المعطوبين في أرواحهم: الموتى دون أن يدركهم منجلُ الموت، الأحياءُ دون أن تحيطهم الحياةُ بعنايتها!

لم يأتِ، وكان يجدر أن يفعل. أريدُ أن أتملَّصَ من كلِّ ما يصلني بهذه المدينة، أريدُ أن ألعبَ الورقة الأخيرة في وجهه: الرحيل. لا بدَّ أنَّه بعد مسافات الألفةِ التي نبتت بيننا، سيتمسَّكُ بصداقتي، وبحضوري في حياته، لكنّني ما عدتُ آنسُ لمدينة تتستَّرُ على حقائقَ تعنيني، ثمَّ إنَّني لن أواصلَ دور الجليسة الوديعة وفي القلب ينامُ خنجرٌ. إن كنتُ أعني له شيئًا، فلتَكُن الحقيقةُ برهانًا عليه. أمّا أنا، فقد أعطيتُ وأغدقت وسخَّرتُ، من أجل فكِّ شيفرته، كلَّ شيء.

والزمن شرع في استهلاك النصف الثاني من الساعة السادسةِ دون أن يسلّمَ لي وجهه القاسي، أشتهي أن أدفعَ حقائبي أمامه وأتركَهُ يتأمّلُ هزيمتي، أريد أن أذكّرهُ لآخر مرّة، كيف كان يلحُّ في طلب ماضيه، ويلتمسُ سبلًا تنعش ذاكرتهُ، أريدُ أن أفهمهُ أنَّني أقرب إلى نسختهِ قبل إنعاشِ ذاكرتهِ، وأنَّني أريدُ أن أجدَ الحقيقة ولو كانت فجيعة. لكنَّهُ لم يأتِ لألقيَ على مسمعيهِ على نحوٍ بالغ الموارية عتابًا أخيرًا، قبل أن أغادرَ هذه

المدينة التي تقفُ غصّةً في الحلقوم، لا أنا قادرةٌ على طرحها، ولا أنا قادرةٌ على دفعها إلى الأعماق، بل في منتصف الأشياء تقف، وتجعلني في حالةٍ من الغثيانِ الدائم.

جاء الضباب كأنثى في ليلة عرسها، تدخلُ بوجلٍ غرفةَ النوم وتسحبُ خلفها تلابيبها. الظلامُ قد استحكمَ بالمكان حين نشر الضبابُ وشاحهُ الأبيض، وأنا أسيرُ الهوينى على الكورنيش، البحرُ مصطخبٌ وأعمدة النور المقوّسةُ من أعلى كالعكاكيز حبلى بنورٍ يدفعه الضبابُ إلى الشحوب، ما عدتُ أنتظرُ مجيئهُ، ولم أجد في النفسِ رغبةً في السير إلى المنزل، دبَّ في أعماقي قنوطٌ وضيقٌ من تشدُّ الفجيعةُ حبالَ قلبه. في النَّفسِ غربةُ من ينتمي للّامكان. أأنا من هناك، من تلك البلاد خلف البحار، أم من هذه التي تفترشُ البؤس والقحط؟ الغربةُ التي يصحو نصلها في كبدي الآن هي التي حرَّضتني على اقتراف حماقة البحث عن ألفةٍ من نوعٍ ما. وهنا، مذ جئتُ وأنا أتعثَّرُ بأمراضي وأمراض غيري دون أن أشعرَ أنّني أنتمي لهذا المكان.. تلك الألفةُ المنشودةُ التي طالما منّيتُ بها نفسي تبدَّدت، وذلك الأودُ الذي كنتُ أودُّ بمحاورة المكان إقامتهُ زادَ اعوجاجًا.

حلوقُ الناس تزفّك للغربةِ هنا مثلما تزفّك للغربة هناك، وأمثالي ممن ولدوا بين بين، ينتمونَ للّامكان، لا أدري إن كان الكائنُ البشريّ ينتمي إلى حيث ولدَ، وقبلهُ إلى حيثُ ولد أسلافهُ، أم ينتمي إلى حيث وجد نفسه؟! درتُ حول نخلةٍ ورَّطوا فسيلتها على حافَّة البحر مرّتين، وحين غادرتُها آنستُ إلى ظنٍّ غريب، أنَّ هذا السؤال بائس، ويزدادُ بؤسًا كلّما أمعنّا فيه. أدرك والدُ قاسم وقبلهُ أسلافهُ بؤس الحياة حين نضربُ أوتادنا في مكان، ولا يغيّبنا عنه بعد ذلك سوى الموت، ما جدوى تعلُّقنا بجذورنا ما دامت تعطبُ حاضرنا أكثر ممّا تسعفنا على المضيّ قدمًا..!؟

كنتُ ألوكُ هذه الأسئلة وأنا أراوغُ أشجار النخيل الكبيرةَ التي تشرئبُ بأعناقها في تطلُّعٍ حائرٍ للبحر، كأنّها تتأهَّبُ لملاقاة حبيبٍ غائب، حين اندفعَ من الضباب قاسم، سَرَتْ في جسدي رعشةُ ارتباكٍ مبهمة. الحقيقةُ، أنّني لم أكن أنتظرُ أن أرى أحدًا فبالأحرى قاسم! فالنّاس في هذه المدينة يخافون بعد جنرالها الجائر بحرَها، وحين يرخي زمامَ غلائلهِ البيضاء، فإنّهم يتطيّرونَ من ذلك.. يجدونَ ضبابهُ تمويهًا ضروريًا يقومُ به البحرُ قبل أن يرسل شِباكهُ في البرّ ويعود بغنيمةٍ؛ كثيرًا ما غمرت مياههُ الكورنيش وعادت بطريدة سائبة.

وحيدةً كنتُ، قبل أن ينبثقَ قاسم جلال من الظلام، كانت قسماتُ

وجهه حزينةً بحق. وقف قبالتي واعتذر، قال إنَّه لبثَ مغيّبًا زمنًا، ثمَّ قال بأنَّه في الوقت التي تتوهّجُ تلك الذاكرةُ الغابرةُ وتحرقُ حياتهُ بتفاصيل معذّبة، تضمرُ ذاكرةُ ما بعد النسيان، كأنَّما أصابَ شجرتها خريفٌ مبكّر، كلُّ يومٍ تسقطُ وريقةُ ذكرى شاحبة، قال إنَّه كابدَ الأمرَّينِ وهو يحاول استعادةَ اسمِ جواهر. كانت في ذاكرتهِ بوجهها وجسدها وقضتهما ومآزقهما المشتركة، لكنَّ اسمها ضاعَ منه!

أمَّا حين طفقتُ أخرطُ على مسمعيهِ أوجاعًا رَمَتْ بي إلى هذه المدينة، وخلّفتني نهباً للقلق والأسئلة الواخزة، فقد بدا على سحنته ما يشبه التبرّمَ، لكنّه لم يقاطعني وأنا أسردُ الأسبابَ التي تجعلُ رحيلي عن المدينة دون ترميم أسئلةِ الهويّةِ مؤلمًا. حين أنهيتُ كلامي، أو على الأقلّ حين لم يعد في حوزتي ما أسدُّ بهِ فجوات الصمت التي بدأت تتّسعُ بيننا، قال:

الأفضلُ أن تهملي هذه الأسئلة، ما كان كان.. ثمَّ لو كانا حقًّا على قيد الحياة، فأعتقدُ أنَّكِ أذعتِ خبر بحثِكِ عنهما بما يكفي، لو كانا حقًّا في المدينة لَسَعيا إليكِ.

طبعًا، يهمُّني أن ألتقيهما، لكن لو أنَّ الأقدار لا تسعفُ، فبودّي على الأقل أن أعرف من يكونانِ، وأيّ طينة من الناس هما؟!

وما جدوى ذلك؟

وما جدوى أن أحملَ صخرةَ الأسئلة، الجواب، رغمَ ما يستبطنهُ من ألمٍ، أهون من أن أواصلَ رحلتي. تلتفُّ حول العنق كأنَّها المشانقُ ألف علامةِ استفهام؟

هذا ما كنتُ، قبلكِ، أمنّي به النَّفس.. والنتيجة؟ ها قد آلت حياتي إلى مزيد من الخراب، كلّ يوم أندفعُ أكثرَ في هوّةٍ مجهول لا طاقةَ لي بهِ، أفسدتُ حياتي حين رمتُ إصلاحَ أعطابها، ولا أشتهي لك هذا المصير.

ولا أشتهي البقاء في مدينة تنكأ في كلّ ثانيةٍ جراحي...

لا أتعسَ ممَّن يسيرُ إلى بؤسهِ بفضولٍ زائد.

ولا أسوأ من يجاورَ المرء ماضيهُ دون أن يحاورهُ.

لم يجب، تطلّعَ إلى ساعة يدهِ كمن ينتبهُ فجأةً إلى أنَّه نسيَ شيئًا ما، ثمَّ تطلّعَ إلى أعمدةِ الكهرباءِ فإذا ضوؤها يضطربُ، قال بلهجةٍ حاسمة:

الأفضلُ أن تعودي أدراجكِ.

إلى فرنسا؟

إلى بيتكِ، يبدو أنَّها ليلةٌ أخرى عصيبة..

ماذا تقصدُ؟

لا شيء.. فقط لو تعودينَ إلى بيتك، لا بدَّ أن للحديثِ بقية.

غدًا، سأرحلُ عن المدينة.

سيكونُ ذلك آخرَ ما أشتهي.

وأنا ما عدتُ أشتهي أن أنذبحَ كلَ يومٍ بنصال هذه المدينة...

وتمشَى بيننا الصمتُ، حفر خندقهُ بيننا وباعد بين خطواتنا، لم يجري بيننا وداعٌ، لكنَنا افترقنا.. كما لو تواطأنا على أن نفترقَ بالتقسيط. كان منشغلًا بهمٍّ ما، لا بدَّ أنّ لاضطراب نور الكهرباء صلةٌ به... أمَّا أنا، فقد ضقتُ ذرعًا بالنبش في جدرانه الصلدة، وآن أوانُ الرحيل.

ليلًا.. انشغلتُ بتوضيب حقائب السفر. وفي الصباح، جاءني جندهُ، دفعوا في يدي قرارًا استصدرهُ قاسم من المحكمة، قرارًا يقضي بإبقائي رهن الإقامةِ الجبريَّة. ثارت ثورتي، لم يَجُل بخلدي أنَّه قد يجنحُ إلى كلَ هذا الخبث، لكنَّني بحثتُ له عن أعذار، فكَّرتُ، ربَما قرَّر أخيرًا أن يفضيَ لي بالأرشيفِ المغبَّر الذي كنتُ أنشده دائمًا، هدهدتُ غضبي الفائر بهذا الظنَ البائس، وسرتُ إليهِ. لم أجدهُ في ولاية الأمن ولا الثكنةِ... قيل: سافرَ، ثم قيل: قد يعود اليوم وقد لا يفعل، وتهامسَ البعض بأنَّه في مكتبهِ، لكن لا مزاجَ له لمقابلة أحد، وقيل في اجتماع.. المهمّ أنَه لم يجتمع كلَ من سألتُ وهم كثر على رأي واحد، وكان الأمرُ مدعاةً للاستغراب!

ولأنَّني كنتُ قد نفضتُ عنّي كلَّ ملفَّات المرضى قبل أن أعلنَ الرحيل، فإنَّه لم يكن عندي من شغلٍ سوى التسكُّع على حوافُ البحر.كان مثلي غاضبًا كما لم يكن من قبل، وكانت مثلهُ ترغي في الرأس آلافُ الأفكار وتزبد، تغدَّيتُ في مطعم متاخم للبحر، وشربتُ قهوتي وأنا أتأمَّلهُ من نافذةِ مقهى بلّت زجاجها الزخات، قلَّبتُ طويلًا حكايات قاسم، وهبله وتناقضاته... الحقيقةُ أنَّه إن صحَّ نزفه مظلومٌ أكثرَ ممَّا ينبغي، ويصعبُ أن ندينهُ على كلَ تلك الآثام التي تعجلُ بها الألسن. الرجل كان مجرَد آلةٍ، فأرُ تجارب، تمَّ العبثُ على نحو ممنهج بكتلة الأسلاك المتشابكةِ في رأسه. كلُّ آثامهِ، بعد أن أسرجَ المجرمونَ رأسهُ بذاكرةٍ من بياضٍ مبطَن بحقولٍ من الشوك المسنَّن، ليست سوى ردّ فعلٍ نفسيّ يتفاعلُ على نحو لاواع مع

الذكريّات الراسبةِ في أعماقه. حمّلهُ القتلةُ فوق ما يطيقُ، ذبحوهُ حين نشروا على البياض والده فوق بركةٍ من دماء.

أيُها الربُّ الكريمُ في سمائك، كيف لم تحرّك ساكنًا؟ أيُّ حكمةٍ شلّت قواكَ وخلّفتك في أعاليك هناك تشاهدُ ابنَ آدمَ وهو يقترفُ المعاصي؟ لماذا لم تُلحق روحهُ بوالديه؟ ولماذا استبقيتَهُ؟ ألتمعنَ في خرابهِ أم أنَّ خلف الأمر حكمةٌ أجهلُها؟ لكن ما الحكمةُ في أن تتركهُ لمن يعيدُ عجنَ صلصالهِ، ويخلقُ منه آلةَ فتكٍ وحشيّة تفسدُ في الأرض وتعيثُ فيها فسادًا..؟

ما كانت حكمةٌ أيُها الربُّ الوديعُ، يا ربَّ الفقراء والطيّبين، أن تتركهم يخطونَ على ظهره بسنابكم أكثر من رفسة؟ ما كان يجدر بكَ أن تكون محايدًا وتتركَ للقتلةِ أن يبزُّوا مهنتك، إذ يستنشئون مثلك كائناتٍ، ويعبثوا على نحوٍ حاذقٍ بمصائرها...

وحين أزفَ اللّيلُ، تلفّعت المدينةُ بعد سوادهِ بالبياض، فرَّ الجميعُ إلى منازلهم واستبقاني البحر، وهدأةُ الكورنيش، كعادته كان الصمتُ يسيحُ في العظام ويورثُها خدرًا لذيذًا. لا أسعدَ من أن تسير محكومةً بالإقامة الجبريّة منتعلةً هشاشتها على حافّةِ بحرٍ، يقفُ بينها وبينهُ الضبابُ والغربة وأسلاكُ أسئلةٍ شائكة!

لا خيرَ في مدينةٍ تنامُ مبكّرًا، ولا خيرَ في كورنيشٍ عارٍ من عشّاقِه. سَرَت في خاطري الفكرةُ لحظةً قبل أن تلعلعَ في سماء المدينة صافراتُ الإنذار، كنتُ وحيدة يضربُ عليّ الضبابُ غلالةً، كأنّي سمعتُ وقع أقدامٍ تركضُ، وكأنّي رأيتُ أشباحًا تهربُ في كلّ اتّجاه.. أما حين انقطعت الكهرباءُ في المدينة قاطبةً، فقد ارتطمَ القلبُ بالحلق فجأةً، وانخطفت أنفاسي، وتهتُ في دواخلي، أعرف فورة هذه الأحاسيس من فرط ما قرأتُها، لكنَّ تلك اللّحظات الحافلة بكلّ الاحتمالات ما كانت تتّسعُ لغير الخوف، تمسّكتُ بنخلةٍ (هي أختي في الغربةِ، كلانا اقتلعت الأيادي انتماءنا لتربةٍ وزجّت بنا في تربةٍ أخرى) وخفتُ من أن يمدَّ البحرُ أمواجهُ ويسرقني، ثمَّ خفتُ أن تنطبقَ يدٌ على فمي وتسرقَ منّي صرخةَ النجدة... كان القلبُ ينفجرُ بين أضلعي، لولا أن افتضّت العتمةَ المطبقةَ على المكان عرباتٌ عسكريّةٌ خفيفةٌ تلتها شاحناتٌ خضراءُ عملاقةٌ... عاودني الخوفُ حين مضوا وتركوني نهبًا للعتمة والصمت. تلمّستُ طريقي بحذرٍ، وتوغّلتُ بين الدروب المظلمة. كانت أبوابُ المنازلُ نصفَ مفتوحة، والنوافذ تبوحُ بضوءِ شموعٍ شاحب، وتسيلُ منها وشوشاتٌ غامضةٌ لا يصلُني معناها.

وقبل أن أصل البيت، لعلعَ في سماء المدينة الرصاص، انكمشتُ مذعورةً تحت نافذة، واشرأبّت الرؤوس. كان كلّما توقّفَ أزيزُ الرصاص، وهادنت الصمتَ تلك الحربُ الغامضة، جرى الزقاقُ بكلامٍ بين التكبير والحوقلة وتلك الكلمة السّحريّة، يلوكونها كما لو أنّها مفتاحُ كلّ ما يحدث، كما لو أنّها أمنيةٌ في النفس، غنموا تواطؤ الكهرباء معهم وأفضوا بها لبعضهم بعضًا:

«انقلاب... انقلاب».

الرسالة (٩)

من قاسم إلى جواهر

خريف ١٩٩٥

«كنتِ في قلبِكِ تحملينَ بذرةَ شرٍّ، وكنتُ الساحرَ الشرّيرَ الذي يعرفُ بِنَاءِه كيف يشعلُ الكهوفَ السريَّة ويحرّكُ العُقَدَ الراسبة. كنتِ مسكونةً بعقدةٍ في الطفولةِ، عقدةٍ شديدةِ الغموض والالتباس، لم تكوني لتفصحي عنها، لكنها في غمرة السعادة كانت تجدُ طريقها إليكِ. كنتُ أعتقدُ أنّه حزنٌ على حبيبكِ الذي وأدتُهُ في الزنزانة ٠٩ لكنّكِ حين سألتُكِ هدهدتِ مخاوفي، وتحدّثتِ عن وشمٍ في أقاصي الذاكرة ولم تعرّي ماضيكِ تمامًا. كلُّ شذوذٍ نفسيٍّ لا بدَّ أنهُ ردُّ فعلٍ مؤجَّلٍ على هربٍ في الأعماق.. هذا ما اكتشفتهُ يا سيّدة الدَّهشةِ بعد عمرٍ مديد.

أحببتُكِ، أفنيتُ فيكِ كلامَ العشق، لكنْ بعد أن جرى العمرُ بيننا والسنون، أعترفُ أنّني لم أكن في تاريخكِ الشخصيّ أكثرَ من نزوةٍ عابرة، وجدت لها في ليلِ دواخلك الغاطش صدًى نفسيًا، ورمّمت على نحوٍ أجهلهُ ماضيك المتهالك، كان قلبُكِ بعيدًا عن متناولِ يدي، أسكنتُهُ الزنزانة ٠٩ مع سيمون. سيمون كان يسبحُ خلفَ زجاج قلبكِ ويجري في أوردتك، ولم أكن في حياتكِ أكثر من حادثةِ جسدٍ لم تجدي منها فكاكًا. سيمون هزمني بغيابهِ، في تلكَ اللّيلةِ الدامية، التي سَرَقتُكِ منّي الحمّى وطرحتِ نصفَ رئتيكِ على المناديل، تلك اللّيلة البغيضة التي قُدّت من الجحيم، تأكّدتُ أنَّ سيمون لم يمت، ولا كسرَت الأمواج أضلعهُ. سيمون حلَّ معَ مرضهِ ضيفًا ثقيلًا على جسدكِ، حلَّ ليستوديهِ صوبَ النهايات».

«لو كان بإمكان أحد ما أن ينقذني فسيكون ذلك أنت. فقدتُ كل شيء عدا يقيني بأنَّك شخص جيد. لا أستطيع المضيَّ في تخريب حياتك ولا أظنُّ أن أحدًا شعر بالسعادة كما شعرنا بها»

ما كتبتهُ فيرجينيا وولف لزوجها قبل انتحارها

«التبغ يحترق والحياة تنسرب. للرماد طعم مزٌ، بالعادة نألفه، ثم ندمنه، كالحياة تمامًا: كلَّما تقدَّم العمر بنا غدونا أكثر تعلُّقًا بها... لأجل ذلك أغادرها في أوج اشتعالي.. ولكن لماذا؟! إنَّه الإخفاق مرَّة أخرى. لن ينتهى البؤس أبدًا.

«وداعًا يا ثيو، سأغادر نحو الربيع» رسالة انتحار فان غوخ لأخيه

«ما الإنسان دون حزَنَة يا ماريانا؟

قولي لي كيف أستطيع أن أحبَّك إذا لم أكن حزًا؟

كيف أهبك قلبي إذا لم يكن ملكي؟»

أبيات للوركا قبل إعدامه

قاسم

٠٩ ١١ ١٩٩٥

الزنزانة ٠٩

ما حدث قد علّق تباشيرهُ منذ زمنٍ، لكنّي غضضتُ الطرف، وآثرتُ أن أؤجّلَ حربًا كانت كلّ يوم تدفعُ لي بإشارة ماحقة. الحرب كانت قائمةً، منذ أن أصاب الآلةَ الخاسئة التي كنتُها عطبٌ وتوقّفت عن العمل، الحربُ كانت معلنةً عليّ منذ الوقت الذي أفقتُ فيه من غيبوبة النسيان على المكيدة الحضاريّة الكبرى، منذُ أن أعطبت صعقاتُ الكهرباء المنارةَ التي كنتُها، منارة وحيدة مخاصرة للبحر، ترفعُ لهم كلّما استبدت حلكةُ إشارات...

الحربُ كانت خنجرًا يطاول السّماء، خنجرًا تعلّقهُ الدسيسةُ خلفَ الغيم، حتى إذا صحوتُ من الغيبوبة هوت به عليّ لترقدني رقدة اللحود. الحربُ كانت قائمةً وما حدث تغييرُ مواقع لا غير، البيدقُ الذي كانت تحرّكهُ أصابعهم تمرّد، وآنَ أن يدفع ببيدقٍ آخر يزيحه. الحربُ كانت! متى كانت البشريّةُ ولم تكن الحروب؟!

الحرب كانت، وكنتُ ربّها الزائف. ابن الخيبةِ كنتُ، أقتصّ من وطن ترك جرحي مستباحًا للأغراب، وطن بعجزهِ زفّ لي اليتم، كنتُ أعاقبُ وطنًا ما كنتُ أنتمي إليه حين أذن للعدوّ بغزونا..

الحربُ كانت معلنةً، تنتظرُ عطبَ الآلةِ لترسلَ من يسحقُها، الآلهةُ الصغيرةُ التي عبثت بخيوطي يمكن أن تعبث بخيوط غيري، والعلمُ في تقدّمٍ مستمرّ.. حين أهملتُ رفع التقارير، حين جفّ جبُّ الأكروبول الذي يستقبلها من حبري، كان ذلك إيذانًا بأنّي أفقتُ على ذاكرتي المنسيّة، وأنّني ما عدتُ أجهلُ تاريخَ العذاب التي تنتحبُ به الذاكرةُ القديمة. كان اختفاءُ هارفي كلارك إعلان حرب، لكنّني آنستُ إلى قواي، ولتلك الجذور التي ضربتها في هذه المدينة. أرسيتُ عليها سلطانًا لا تزحزحُ سطوتهُ الجيوش هكذا اعتقدت كم كنتُ غرًّا بريئًا حين آنستُ إلى هذا الاعتقاد: فوق كلّ قويّ أقوى، والسنابكُ التي قلبت هذه الأرض تعرفُ كيف تعودُ إلى قلبها من جديد، والحديد كان يطوّقُ أيّامنا، لكنّ الصليل كان مهادنًا، لأنّني كنتُ لسانَ العدوّ في هذه الأرض.

وتلك اللّيلةُ الشؤمُ، تلك الليلةُ، لا أنفكُّ أحسُّ أنّ الأيّام التي فاضت بيني وبينها ليست سوى امتدادٍ بائس لها، لم أرَ بعدها نهارًا يفلقُ بحبال

النور الظلام، كأنَّ الزمن الذي ما انفكَّ يمنّينا بعدلهِ بين النهار واللَّيل قد دار مثل درهمٍ في الفضاء، مناوبًا بين الملك والكتابة بين النور والعتمة، قد استقرَّ أخيرًا على هدأة النهايات، فكان اللَّيلُ أبديًا وانطفأ النهار. تلك اللَّيلة التي ابتدرَني فيها مستر هارفي بحربهِ، كانت ضروريّةً ما دامت البديهةُ قد خانت، ولم تسعف الحيلةُ على تدبُّر مكيدةٍ أسقطهُ بها، في الوقت الذي كنتُ منشغلًا بتلك التفاصيل الصغيرة، تكرُّ وتفرُّ وتتركني مضرَّجًا بالأسئلة الصعبة، كان هو يحرّكُ صوبي جيشهُ ويؤلّبُ عليَّ جندي. يعرف ما يريدُ، وكنتُ مشتَّتًا بين حاضرٍ أجدُ أنَّه ما عاد يتَّسعُ لخيبتي، وبين ذاكرةٍ تنام على صهارةِ ماضٍ اجتُزئَ من جهنّم، كلّ يوم تنفجرُ ببركانٍ وتتدفَّقُ بحممٍ من ألم..

محشوراً بين فكَّيِ المستر هارفي، كنتُ وكان سحقي مسألة وقت لا غير.

هو من ابتدعَ الحكاية، هو من سيَّرني صوب هذا الشطط، وهو الذي سيتوّجُ حياتي بالموت. أيُّ جنونٍ يسكنُ هذا الطبيب المسكون بحلم ربوبيَّةٍ تضيقُ به جبّةُ البشريّ؟ وتلك اللَّيلة، كان في القلبِ إحساسٌ بأنَّها آتيةٌ لا ريبَ، لكن ما كنتُ أحسبُ أنَّها ستكون بهذه القسوة، ما كنتُ أحسبُ أنَّني سأواجهُ فيها نفسي في المرآة، شبحي، أرسلَ إليَّ المستر هارفي ياسر نسختي المعدَّلة ليطيحَ بي، منذ أن التقيتُه، ورأيتُ فيه أنايَ ثمَّ صرفتهُ بعيدًا عن المدينة، وأنا أحملُهُ ذكرى واخزةً وخطرًا محتملًا. كنتُ أحسُّ أنَّ المستر هارفي أعدَّهُ لفنائي، وأنَّه بعدي سيمسكُ زمام المدينة، لكنْ، أيّ شيطانٍ رحيمٍ أشار عليَّ بعدم قتلهِ حين كان بين يديَّ وحيدًا؟

«باش قتلتي باش تموت يا ملك الموت»

مثلٌ تجري به ألسنةُ البسطاء في هذه المدينة، كلّما خلعَ مستبدٌ مستبدًا قبلهُ. حين أفنيتُ المير، جرى المثل بين النَّاس تشفّيًا من رجل أدمى قلوبهم. والآن لا بدَّ أنَّ الأفواه تحيضُ بالمثل نفسهِ، الشعوبُ تفيقُ كلّما تبدّلَ الحكّام، تعذلُ اعوجاجَ المخدّة، تعالجُ الوضع بمَثَلٍ أو اثنين وبسيلٍ من الشائعات، قبل أن تعود إلى نومها الهانئ.

«ياسر» أخي في اليأس وضيق الأفق، مثلي جاء إلى المدينة يحملُ في رأسه أفكارًا ابتَنَاها في رأسه ذلك الطبيبُ المخبول، مثلي سيرفعُ التقارير، ويسامرُ في ليالي الشتاء المستر هارفي، ربَّ أقداره، ومثلي سيحيطهُ علمًا بتناقضاتهِ الجمَّة والفراغات التي تعتورُ روحه. التاريخُ يعيدُ نفسه، ويدفعُ بخائنٍ إلى إسقاطِ خائن. وفي الخفاء، هناك أصابعُ ماهرة

تحرّكُ الكركوز لتناسبَ حركاتهُ حكايةً مصفمةً بإتقان.

قاسيةٌ هي ليلةُ سقوط المدينة! تُرى هل سيسمّيها المؤرّخ ليلة السقوط أم ليلة الفتح أم ليلة التحرير؟ أيُّ كذب سيحشو به المؤرّخُ كتبهُ؟ اقتحمت المدينة تلك العربات الضخمة مدجّجةً بجنودٍ غرباء؛ وفي الظلام، حين فصلت الأيادي الآثمةُ عن المدينة تيّارَ الكهرباء، اندلعَ الرصاصُ. كانت حربًا عبثيّةً تلك التي تدارُ في الظلام، قصفٌ وقصفٌ مضادٌّ، وعواصف من رصاص تسافر في كلّ اتّجاه، والموتُ كان يجري بمنجلهِ حاصدًا الأرواح، كفلّاح فرحٍ بسنةٍ خصب. لم أكن أبصر شيئًا، فالأيادي المندسّةُ قد فصلت حتّى الكهرباء الاحتياط، لم أكن أرَ العدوّ في الحلكة المطبقة، لكنّني من النافذة كنتُ أطلقُ رصاصًا عشوائيًّا مثلما يطلقون، كنتُ أعلمُ أنّها حربُ العبث، وأنّ النصر أو الهزيمة سيكون بمقدار الجثث التي ساقها الحظُّ إلى المكان الخطأ.. أيّ مهبولٍ ساق جيشهُ إلى الفناء؟!

كان الرصاص يسافر في كلّ اتّجاه، وإذا كان الظلامُ المستحكمُ بالمكان قد سرق البوصلة، فإنّني كنتُ أدركُ عدد من سقطوا بأزيز الرصاص.للرصاصة حين تقدُّ لحمَ البشزي أزيزٌ خاص، وللبشر، حين تستقرُّ على لحمهم عضّةُ الموت تأوُّهاتٌ حزينةٌ. كانت مجزرةً سخيفةً، كنّا جميعنا في غنى عنها لو فتحنا أعيُننا على خساراتها مبكّرًا. مريضٌ هذا الفتى: ياسر، حين قرّر أن يدخلها ليلًا، وجبانٌ حين دفعَ بجيشهِ إلى الهاوية.

في الصباح، حين أعلنَ علينا الفجرُ الفضيحة، كنتُ أعانقُ جرحًا فجًّا افترعتهُ رصاصةٌ طائشةٌ في الكتف. الساحةُ المقابلة للثكنةِ كانت تفترشُ الكثير من الجثث المعفّرةِ بدمها. أفنيتُ أمشاطًا من الرصاص في هذه الحرب، ولم تعد لي سوى بندقية أتعكّزها بيدٍ، وأسدُّ باليد الأخرى الجرحَ، كان يسرقني نزفهُ، كان يمتصُّ جسدي انخذالٌ، لكنّني ما كنتُ أشتهي الموت دون حربٍ، دون حربٍ حقيقيّةٍ.

وأزِفت الحرب التي اشتهيتُ، لكن بعد أن سرقني الجرحُ أو كاد.اقتحمت دبّابةٌ ساحةَ الثكنةِ، كانت تدكُّ الجثثَ الممدّدة على الأرض بغيرِ انتظام، كأنّما تعبدُ لسيّارة تسيرُ خلفها الطريق، رأيتُ الجثثَ تنوءُ بثقلِ الدبّابةِ وتلتصقُ بالأرضِ مزيدًا من الالتصاق، كأنّما تفكّرُ في النفاذ إلى رحمها دون أن تجد إلى ذلك سلطانًا.. رأيتُ الوجوه تنسحقُ، ويندفعُ من شقوقها الزبد، ثمّ رأيتُ الدبابة تستقرُّ أخيرًا وتوجّهُ صوب النافذةِ التي كنتُ أتلصّصُ من خلالها على الوضع فوّهتها، ثمّ رأيتهم يترجّلونَ عن السيّارةِ، «ياسر» الذي فجعَ بحضوره قلبي، هارفي كلارك بشعره الأشيب

المنتكشِ، والسائق الشابّ، رأيتهُ يناولُ ياسر البوق، ثمَّ رأيتُ الأخير يصدحُ بوعيده..

أمهلني عشر دقائق، عشر دقائق فقط، هذا عمرُ هزيمتي الحقيقيَّة، جبنتُ أمام الموتِ، لم تكن لي مشاريعُ حياةٍ، لكنَّ القلبَ أربكني بضجيجِه وتعلُّقِهِ الثافه بالحياة، كانت الهزيمةُ حين خانتني شجاعةُ البقاء، كلّما أمعنتُ في الفوّهة التي تتحيَّنُ الوقتَ المناسب لتطلقَ جحيمها، رأيتُ أشلائي تتطايرَ مشدوخةً، قبل أن تزلَّ بها هذه الجدرانُ. ما أشدَّ جبنَ المرء أمامَ الموت! كنتُ أعرف أنَّني ميّتٌ ميتٌ، سيّان اعتصمتُ بمكتبي أو سلّمتُ نفسي للمشنقة، وهذه الحقيقةُ أدركتها مبكرًا، لكنَّني لم أملك إلَّا أن أماطلَ الموت رويدًا. أفلست حياتي، منذ زمنٍ موغل في الهشاشةِ، فلماذا الخوف حرَّضني على التمسُّكِ بأيَّامها؟ لا أدري. نزلتُ الدرج بإعياء، كان الخوفُ والجرحُ في الكتف يسرقان أنفاسي، وكنتُ أخافُ أن يخذلني الجسدُ قبل أن أسلّمهم نفسي كان الخوف يبالغُ في إذلالي فتنطمس سيرتي تحت الأنقاض.

خانتني البندقيةُ/العكّاز وسقطتُ، لا أذكرُ بعد ذلك سوى أقدامٍ تحفُّ عجزي الفاضح، وقدم هارفي كلارك تضغطُ على رأسي، مثلما في زمنٍ غابرٍ فعلت قدمٌ، وشلّت جسدًا ليتناوب الجندُ على استباحة أمّه، ثمَّ رأيتُ جواهر تموتُ بين يديَّ... تبصقُ كتلًا من الدم المتجلّطِ وتكابدُ دوخةَ النهايات، كانت تشدُّ على جسدي بقوَّة وتردّدُ اسمهُ كأنَّها تراه!

أفقتُ في زنزانةٍ عاريَ الصدر تغلّفُ الكتف طبقاتٌ من الضمّادات، حين تطلعتُ إلى رقم الزنزانة (١٠) المقابلة من النافذة الضيّقة للباب، فهمتُ أنَّ الأقدار قد ساقت خطايَ إلى موعدٍ مشنوء مع الذاكرة، وأنَّني حللتُ ضيفًا على أشباح سيمون! في الزنزانة ٠٩.

ذاك الشابُّ/الشبحُ كان رجلًا حقيقيًا، وضعتهُ أقدارهُ الخاسئةُ في فوّهة الدبابة التي كنتُها، فثقبتُ أضلعهُ، سرقتُ منهُ كلَّ شيء وخلّفتُهُ يكابدُ شهقةَ الموتِ الأخيرة عاريًا. هنا في هذه الزنزانةِ، تفسخَ لحمهُ، وهذه الجدران أكلت منه، تحنَّطَ هنا زمنًا، وحين غادر يابسًا، تشقَّق جسدهُ كآنية الفخّار. مصادفةٌ بغيضةٌ بحقّ أن يزجَّ بي السجّان في هذه الزنزانة دون سواها، لأتذكَّرَ على نحو دائم فداحة ما اقترفت يداي، سرقتُ منه في فورة الجسد، ذلك الجسد الصقيل، المنحوتَ بمهارةِ ربٍّ يعرفُ ما يصنع: إزميرالدا، وأسقطتُ في جبّ الظلمات تلك التي أحبَّ وحاربَ من أجلها الدُّنيا: جواهر.

منقوعةُ أيّامي بالخطايا، وحكاية سيمون غيضٌ من فيض، لكن لم أكن أنا، **لم أكن كامل الحضور في أنايَ**، وكانت مصادفةً أن يهبني سيمون بما ملكت نياطُ قلبِه عوديْ ثقابٍ تتدفّأ بهما أيّامي الباردة. جواهر، تلك الرائعةُ أوقدت نارها في كهوف القلب الباردة، تلبَسَ بي حبُّها ولم أكن أقدرُ إلّا أن أنساقَ خلفهُ ككلبٍ ذليلٍ، وإزميرلدا كانت وجبة جسدٍ شهيّة، لفتت انتباهي إلى مباهجِ الدُّنيا وأفراحها المشعَّة. كانت سرقةُ سيمون أمرًا لا بدَّ منهُ ليستقيم مقامي في المدينة، وأفكَّ القليل من مبهماتي.

إزميرالدا وجواهر وجهان لامرأة واحدة ربّت في النَّفس كلّ العقد: **جوزفين**.

تلك التي أحببتُها، وتركت في القلبِ فتقًا دفعتُ البهيّةَ جواهر إلى ترميمه، تلك التي تركت في الجسدِ شهواتٍ منتكسة ساقتها صوب الكمالِ الرائعةُ إزميرالدا. لم أسرق أنثياهُ وحسب، بل سرقتُ منه الحلمَ الجميل الذي بدَّدَ أيّامهُ جميعها في رعايتِهِ، سرقتُ منه الوطن الذي طالما تغنّى بحبِّهِ له، جرّدتُهُ من كلّ ما يملك، جرَّدته من الأشياء الجميلة التي يحلمُ بها، وتركتُهُ بعد ذلك فريسةً سهلةً في يد الموت.

الزنزانةُ ٠٩ قبرٌ انطبقَ منذ سنواتٍ على أسراره، وها هو ينفتحُ مرّةً أخرى ليستقبل الجلّاد، كما تدينُ تُدان، هذه الجدرانُ تبوح بالحكاية كاملةً غير منقوصةٍ، دخلها أربعون سجينًا ولم تلفظ سوى سيمون، لفظتهُ جلدًا على عظم، جثّةً بعد أن امتصّت دمها وأفرغتها من كلّ شيء، والسنونُ تجري وذاكرةُ المكان لا تخونُ، علّقت على جدرانها تفاصيل الذين مرّوا من هنا وأشياءهم الصغيرة. على الجدران دماؤهم وقد استحالت بعد الحمرةِ إلى السّواد، خربشاتهم، ملابسهم وقد غدت مزقًا، كان السقفُ يرشقُني بوجوههم الداوية، وكانت الجدرانُ ترشحُ بآلامهم، والصمتُ، صمتُ الزنزانةِ كان يوقظُ في مسمعي صراخهم وحكاياتهم. ولم أكن أنا من أدمى قلوبهم، لكنّهُ هارفي، لم أكن أكثر من آلةٍ في يده، لم أكن أكثر من ماكينةٍ بشريّة في مرحلة التدريب... ولن أحمل وزرَ مَن عبثَ بأسلاكِ الدماغِ وحرَّضني عليهم...

لن أفعل.

حين استدعيتُ لمقابلة المحامي الذي سيتحدّثُ باسمي في تلك التمثيليّة السخيفة، التي ستكونُ المحكمةُ مسرحًا لها، لبّيتُ نداءَ التفاهةِ وسرتُ إليه، كان يحفُّني أربعةُ من جنودي السابقين دون أن يجرؤ أحدهم على وضع يده عليّ، لا بدَّ أنّهم كانوا آبقينَ تلك اللّيلة، أو متواطئينَ مع

المير الجديد، جلستُ إلى طاولةٍ مع المحامي الذي انتدبتهُ المحكمة لينوبَ عنّي، كان نحيفًا يابسًا كمسمارٍ، لا شيء في ملامحه يشي بنباهةٍ قد تخفّفُ من ورطتي. لم أكن أعرفه، لكنّ المحامينَ في هذه المدينة يعرفونني جيّدًا، فأنا من كان يُلبِسُ القضاة والمحلفينَ أختامًا في أصابعي وأنا من يولّيهم ومن يعزلهم ومن يعزّهم ومن يذلّهم... لا بدَّ أنّهم الآن أوّل الملحدينَ بألوهتي.

نثرَ على الطاولة أوراقهُ، وجعل يقلّبُها ذات اليمين وذات الشمال، يقرأُ ويمرُّ بيديه على رأسه الذي حثّهُ الصلعُ، حين أزاح نظّارتَيهِ تطلّعَ إليّ بملامحَ حزينة، كنتُ أعرف فداحةَ ما سيقول، لكن لم أكن أنتظرُ أن يقولَهُ على ذلك النحو، ولا أن يحدّثني عن الجريمة التي أدنتُ بها. كان الأمر غريبًا بحقّ، قال إنَّ عقوبة الإعدام لا بدَّ منها، قالها ببرود، كأنّها حقيقةٌ لا مراءَ فيها، استدركَ قائلًا وعيناهُ تلتمعانِ ببريقٍ حزين، بأنّه سيُناضل من أجل أن أحظى بميتةٍ شريفة وسريعة. ثمَّ عاد يقلّبُ أوراقهُ قائلًا، وسبّابتهُ تحلّقُ في تجويف أذنه:

التُّهمُ المنسوبة إليك ثابتة في حقّك، وقد **وثّقتَها بالأشرطةِ**...

سافرت بي كلمةُ الأشرطة بعيدًا، قلّبتُ تفاصيل ليلةِ الاندحارِ لعلّي أجدُ فيها ما يسندُ تلك الكلمةِ، وحين لم أفهم، سألتُ:

أيُّ أشرطة تقصد؟

الأشرطة الفاضحة التي تمَّ حيازتُها في قبو قصرك الفخم... والتي تعتقلُ لحظات **خمسمائة وعشرين جريمة اغتصاب** وحشيّة كان ذلك القبوُ مسرحًا لها، وكنتَ بطلها الأوحد!

مادت بيَ الأرضُ، وكاد يُغمى عليّ، حين سافرت تلك الكلماتُ منه إليّ ثقيلةً، كنتُ أعرف أنَّ في ذلك القبو تندفنُ كلُّ أسراري الجنسيّة، لكن لطالما اعتقدتُ أنَّ الطريق إليهِ استحالة، المهندس الذي صمَّم الطريق إليه والعمّالُ الذين بنوهُ أعدمتهم، فكيف استطاعوا الوصول إليهِ؟ ثمَّ لماذا مساءلتي على الجرائم الجنسيّة وإهمال المجازر؟! لماذا لا أحاكمُ على مجزرة ليلة السُّقوط التي راح ضحيّتَها المئاتُ؟ ولا على باقي مجازر السبعينيّات في حقّ اليسار المعارض؟ دفعتُ بالألوف إلى السراديب، وتركتُ فوق أجسادهم الموت معرَّشًا، كانوا وليمتهُ، وكان له في كلّ يومٍ ضحيّةٌ أو اثنتان. لماذا يهملون كلّ البشاعات التي اقترفت يدايَ ويحاكمون حياتي الجنسيّة؟!

لماذا كنت تحرصُ على توثيقِ جرائمك الجنسيَّة؟

قال المحامي، وظلَّ ينتظرُ جوابًا. كنتُ أودُّ لو أقول له إنَّ هذه الجرائم فظيعةٌ، لكنَّني أطالبُ بمحاكمتي على الأفظع، كنتُ أشتهي الصراخ، حتَّى يتشقَّق وجهي، كنتُ أشتهي الموت وأنا أتأمَّلُ جرائمي الحقيقيةَ وهي تتقعَرُ في بحر النسيان، ولا يرشحُ منها سوى ما يبعثُ الخزيَ في النفوس.. سأحاكمُ على أنَّني مغتصبُ حكمَ المدينة بأعضائه الجنسيَّة، كرَّرَ المحامي أسئلتهُ مرارًا دون أن يظفرَ بأجوبة.. كانت تغيبني الذاكرةُ، تسرقُني من حاضري وتلوي بي صوب ذلك القبوِ السرِّيِّ الذي طالما سُقتُ إليهِ أيَّ مهرة شاردة. فرعونُ المدينة أنا ورئُها الصغيرُ، فكيف لا أذبحُ على حافَّة (نيلها) اللوكوس جميلات المدينة؟! كان لا بدَّ من ذلك، لأنَّه وحدهُ يقيمُ أودًا تلبَّسَ بحياتي، معطوبًا كنتُ بأكثر من عاهةٍ نفسيَّة، قلتُ بصوتٍ خفيضٍ مخدوش وأنا أهمُّ بالانسحاب:

أودُّ أن أرى طبيبتي النفسيَّة، الدكتورة ليلى..

وعدتُ أدراجي صوب الزنزانةِ ٠٩، أجرجرُ أذيال الخيبة. كانت تجفِّفُ القلبَ الفجيعةُ، والذاكرة، ذاكرتي المريضة كانت تلوي صوب السنوات التي تنتصبُ بيني وبين جواهر، بيني وبين أيَّام إزميرالدا ولفيفِ «الهيبيَّات»، سنوات صفراء شاحبة، تبرق فيها تلك الأيَّام الدامسة. يداي تخمشان اللَّحم الهارب، وجسدي يحاصر أنوثة مذعورة ويختم على أرواح خدَّرها الخوف نُدَبًا بشعة، إذ يُنخسُ الجسد بميسم الألم! لم أكن ملء جسدي، أو لعلَّني كنتُ «أنا» ضامرةً أمام ديكتاتوريَّة الجسد ورسائل باطن الرُّوح المشفَّرة! كلَّ الغوامض التي تتلبَّسُ بنا دون أن نملك عليها سلطانًا هي، بشكل أو بآخر، بريد اللَّاوعي المرمَّز، سقطت لغتهُ فابتدعَ لنفسهِ أبجديَّةً من مبهمات!

جواهر

١٧ ٠٧ ١٩٧٤

ليكسوس

منهكٌ قلبي بعدَكَ أيُها الوسيمُ في نحولك، ومكتظَّةٌ بندمي خنادقُ اليأس، ما كان يجدرُ أن أدعَ قلبك المثقوبَ نهبًا للحزن والأمراض، لكنّني فعلتُ. كان يمكنُ لو كان القلبُ أرأفُ أن أجدَ أكثر من سبيل لنجدتك، لكنّني حين ضجّت بي الخطيئة، انشغلتُ عنك بطنينها، تركتُ لحمك يتعفّنُ في تلك الزنزانةِ الباردة وانحشرتُ في أتونِ قاسم جلال ومتاهات الخطايا التي لا تنتهي. كان في القلب شيطانٌ، صغيرٌ، شيطانٌ ما إن حرّضهُ عليٌّ قاسم بغواياتهِ، حتى اندفعَ من قمقمهِ ماردًا صادرَ حبّك وشمّعَ القلبَ وضرب على السّمع والبصر بغشاوة... صدعتُ عن طريق بهائك أيُها الجميلُ دائمًا وأبدًا، وتركتُك تسقطُ من الذاكرة، أو لربّما دفعتُك إلى السُقوطِ مثلما يدفعُ زوجٌ خائنٌ شعرةَ عشيقتهِ، محوتُك عامدةً مثلما يمحو الخائنُ أحمرَ شفاهِ انطبعَ قبلةً على الجيد.

في حضرةِ الشيطانِ ما كان يليقُ بي أن أستحضرك...

في عوالم قاسم السّحريّة، التي كما لو استلّت من بُعد آخرَ ما كان يجدرُ أن نعيشَهُ، كان الحديث عن ذكر غيره جريمةً، وكان مجرّدُ التفكير في سواه إثمًا عظيمًا، وما كنتُ مستعدّةً بعد أن اهتديتُ إلى السّواد أن أكفُرَ بدينِ قاسم. كنتَ في الخاطر أنشودةً من عسجدٍ، وكانت بنوكُ ذاكرتي غنيّةً بك، لكنّك ما كنتَ تعني لحاضري الكثير، اهتديتُ بعدَكَ لأحلى كفرٍ في الدُنيا...

كلُّ كفرٍ هو إعلانُ إيمان آخر، ولو كان الإيمان بالإلحاد...

وأنا من داخل أروع ثقبٍ أسودَ أمتصُّ أيّامي، ما عدتُ ملكَك، وقاسم جلال فرعون المدينة الجديدِ، كنتُ أعرف منذ ذلك اليوم الذي أدميتَ وجههُ، علّك تستوقفُ غزلهُ بي، أنّه رجلٌ منذورٌ لأحلى الخطايا، وأنّ فيهِ من الهبل ما في البشريّة جمعاء، مثلما فيه ما فيها من عقد، هو سيّدُ التناقضات، إلهةٌ منبوذةٌ في زيّ البشريّ، تمسكُ عروة السّماء بيدٍ وتفترشُ بيدٍ حدائقَ الأنوثةِ حولها. قاسم جلال تجربةٌ كانت تقودني صوبها عربةُ الأيّام، قاسم وجيشُ حريمهِ جنّةٌ، كان لا بدّ أن أسقطَ من واقعي الشاهق صوبها. الخطيئةُ دفعت في فمهِ تفّاحتي صدري، وتركتنا نزلُّ معًا صوب جنانهِ.

بخورٌ حادٌ يورثُ الجسدَ كسلًا ضروريًا، وحشيشٌ يبطلُ أسئلةَ العقلِ القلقة، ونساءٌ يبتعثُ حضورهنّ الباذخُ في النّفس أمانًا من نوع ما، وخمرٌ تنحلُّ لها أطرافُ الجسد، وجسدُ قاسم السامقُ من جهة وجسدُ الشهيّةِ إزميرالدا من جهة أخرى، وحربٌ تلوَ حربٍ، وهذا الجسدُ ينضحُ بشهواتهِ وتدشّنُ فيه السعادةُ مشاريعها.

ما كان يمكن أن أتجنّبَ قاسم وعشيقاتهِ، اللوثةُ كان يرشحُ بها جسدُ الكون مثلما يرشحُ بها جسدي. مسكونةً كنتُ بالغوايةِ، وكنتُ أنتظرُ عناقًا يستوديني صوب أقاصي الجنون وقاسم، هذا الأحمقُ المسكونُ بقصص العشق الكبيرة كان عناقًا مشرعًا باستمرار، كان يحتاجني لأرقعَ شغافَ قلبهِ، وكنتُ أحتاجهُ كفاشةٌ تفكّكُ مسامير أضلعي، كان يطلبُ لقلبهِ بعثًا، وكنتُ أنشدُ لجسدي انفجارًا فوافقَ الشرُّ الطبق!

روائحُ الندّ والبخور ودنانٌ خمرٍ وأجسادٌ تحفُّ الجسد المتكلّس فينفجرُ بالخصب والزهور، كان ضروريًا أن يعقدَ الجسدُ في إناء الخمر ليطفحَ بغواياتهِ، وكان يلزمهُ جسدُ أنثويّ صقيلٌ ليفضَّ براءتهُ، ويحيطهُ علمًا بآفة تسكنُ في الأعماق، نبتُّ بينَ إزميرالدا وقاسم، فلقتْ عناقهما، وبينهما وقعتُ، بين السجيّة والشذوذ!

كانت الأنثى اشتهاءً ضامرًا في النّفس، حنّطتهُ السنون المجدبة قبل أن تُنعشَهُ بحسنها إزميرالدا، وكان قاسم ضرورةً للقلب ليعشقَ، وللجسد كي لا يميل كلّ الميلِ لها. إزميرلدا: جسدٌ من لجينٍ طافر بملذّاته، وجهٌ استوائيٌّ شرس، شفتان تشعلان الميّت، ونهدان من صوّان منحوت، تحارُ في حمرةِ حلمتيهما الشفاه.. وقاسم، هذا الرجلُ/الجريمةُ كان يأخذني أجمل استثناء في حياته، حين تصهلُ في الأوردةِالرغبةُ يتبتّلُ إلى جسدي، كناسكٍ زاهدٍ وينقطعُ إليه عمّا عداه، يضلعني إليه، كأنّني صلاته الأخيرة، وتشدُّني إليها كأنّي أولى غواياتها. كانا يحاورانِ جسدي معًا، وكلٌّ على حدّةٍ، وكنتُ بينهما أسحبُ الحياة إلى كهوفي الباردة، ألهبُ بفورة جسدها، بلحمها البضّ صقيعَ الأعماق، وبدفئهِ أسقي أحشائي. وكان يلذُّ لي في كثير من الأحيان أن أراهُ يمعنُ في خراب إزميرالدا، يحلو لي أن أسكنَ لدمٍ تنزُّ به شفاهها، وهو يروحُ بها في دروب اللّذةِ العنيفةِ ويجيء، يحلو لي أن ألتحمَ بتعبها، وأمصَّ العرقَ الذي يرشحُ به نهداها..

ولم نكن وحدنا، كنّا في المرايا التي تغلّفُ جدران غرفة العمليّات (كما يسمّيها قاسم) أكثر، وفي الغرفة الأخرى فوجُ الهيبيّات العاريات، يستجلبهنّ فائضُ الحشيش، مجّانيةُ الحياةِ وبطشُ قاسم.. يحلو لهنّ أن

يُؤخذن اغتصابًا، يجدنَ في الأمر تطهيرًا من نوع ما، غجريّاتُ الزمن الهشّ، من بلد إلى بلد يمضينَ، يتأبّطنَ بعض الآلاتِ الموسيقيّة، في الجيبِ كمشةُ الحشيش، وبهنَّ تمضي متاهاتُ الربّ قطعانًا، متمرّدات على روح هذا العصر الرّديء، يسكنهنَّ الحنينُ إلى بداياتِ الخليقة، حيثُ لا يملكُ البشريُّ سلطانًا على الطبيعة. عارياتٌ، وينضمُّ إليهنَّ عريُنا نحنُ الثلاثةُ كلّما فرغنا من شوطٍ، يتوسّطهنَّ قاسم، تتمحكُ بجسده المشاع العاناتُ، وتستزُ عريَهُ الأفخاذ المنفرجةُ.. شقراوات مهبولات، سرقَ الحشيش ألبابهنَّ، وخلّفَ أجسادهنَّ الجميلةَ على شفا الشهواتِ المحرّمةِ، إيماءةٌ واحدةٌ تكفي لتزحفَ أجسادهنَّ الرّخوة إليك، وتمصَّ أخمصَ قدميك الشفاه، وتتوغّلَ بين الأصابعِ الألسنةُ.

كان ذلك المنزلُ جنّة الآثام يا سيمون، كان شرًا لا مندوحةَ عنهُ... إسقاطُ عرشكَ في القلب كان ضرورةً ليتضاءل إحساسيَ بالذنب، وعناقُ قاسم وجيشه كان يستدعي كفرًا بحبّك وأيّامك الغرّ الجميلة، أحبُّك، لكنَّ غوايتي كانت شيطانًا أكبرَ، النفسُ البشريّةُ على مثاليّاتها السمجةِ تستبطنُ الآفات الجسام..

وقاسم جلال، هذا الرجلُ الذي دفع بالمدينة إلى الخراب، رجلٌ طيّبٌ، لكنّهُ لا يعرفُ كيف يكون كذلك، بريء لكنّه لا يجدُ السبيل إلى الإفصاح عن براءته إلّا بانخذالٍ فاضح، رجلُ العلوّ الشاهق، لا يعرفُ كيف يحبُّ إلّا نزقًا، ولا كيف يأخذُ جسدي إلّا كمن يهوي من سماء شاهقة، وهو يعلمُ أنَّ نصيبهُ من المسافة والجسد هو الحياةُ كلّها. قاسم لا يتحدّثُ إلّا قدرًا، حين يسيلُ كلامه، فإنّه يجري بعد ذلك بحقائقَ لا مراءَ فيها، إذا اشتهى حاضرًا طالهُ، وإذا تحدّث عمّا يستقبلُ من الأيّام، فإنَّ الحياة على عصيانها الدائم تفرشُ لكلامه أقدارها.. قاسم مسيخُ هذا الزمن ودجّاله.

حين اطمأنَّ إلى أنّه استمسك بعرى القلبِ، قذفَ لي بحفنةِ العظامِ التي آلَ إليها سيمون، وترك القلبَ ينتأ فيه ألفُ سؤالٍ ووجع، يعرف كيف يزجُّ المرء في أفقِ الصراع الوجوديّ، يعرفُ كيف يذكي الحربَ الأهليّةَ داخلهُ، هو يعرف أنّه دقَّ وتدهُ في القلب، فأرخى الحبلَ ليعرف إن كان القلبُ سيحنُّ إلى مراتعَ لا بدَّ أن تغدو بعد رياضهِ قفرًا، هو بارعٌ في اختبار الولاء، تركَ سيمون يغادرُ زنزانتهُ ليعرف إن كانت شواكيشهُ قد اقتلعت حبّهُ في القلبِ أم لا.

كنتُ في عناق خريف الشهوة، بينهُ وبين إزميرالدا، حين نفثَ في مسمعي الحقيقة، قال:

لقد أطلقتُ سراحهُ، الرجلُ يضعُ رِجلًا في القبرِ، وأنا لا أشتهي أن أرمِّلَ به قلبكِ..

خفقَ القلبُ مجلجلًا، وتزاحمت في القلب ذكرياتهُ الضاغطة، تحصدُ عبثًا طبقات الغيوم السَّوداء الحبلى بفيض من الدموع. كان لسان إزميرالدا يهدهدُ أرنبةَ الأذن، حين قلتُ وأنا أحاول عبثًا أن أفتعل الهدوء:

أرملةٌ بعدَكَ أنتَ يا عزيزي، لكن في القلب أمنيةٌ لو تصدّق! أشتهي أن أشيّعهُ بالدَّمع. اكتظَّ بكَ القلبُ، لكنهُ عمّرَ مدائنَ في الذاكرة، في القلبِ كي أصدقك حنينٌ مبهمٌ لقليل فرحتنا، وفي القلب الكثيرُ من صخبِ حكاية شغلت النَّاس، كان مرحلةً بالغةَ الرهافة والإيلام، أوجاعهُ كانت كسيفِ الساموراي، من فرط ألمها تخالها دغدغة لذيذة، لا أشتهي أن يموتَ، لكنّني كذلك لا أريدُ أن يعيش، وفي روحهِ ندبةٌ أو في جسده عطبٌ لا يُحتملُ، أعرف أنَّه يأنفُ من العجز، لا أريدُ أن أخسركَ مثلما لا أريدُ أن أبحلقَ في عذاباتهِ فتنخذلُ روحي... كنّا في غنى عن كلِّ هذا البؤس، شطّطتَ في حكمك يا حبيبي..

شططٌ لا بدَّ منه... تعرفينَ أنّني أحبُّكِ ولا أملكُ إلَّا أن أفعل، إن كان في نفسكِ حنينٌ له، يمكن أن أهبكِ من قلبي سراحًا بحجم حبّي لك، بإمكانكِ المُضيّ لو تشائين، لن أحقدَ عليكِ... في دُرج الملابسِ تذكرتا سفر إلى باريس، لكما هيّأتُ كلَّ أسباب الرحيل، إن مضيتِ رفقتهُ سيظلُّ حبّكِ أبهى وشمٍ في القلبِ والذاكرة، أمّا إن بقيت، آه لو فقط تبقينَ.. سأشعلُ أعراس الدُّنيا، لكِ سأولمُ أفراحها، وسأتوّجكِ مليكةَ هذه المدينة، أشتهيكِ رفيقة عمرٍ، لكن قبل ذلك أشتهيكِ قلبًا حرًّا يعرف ما يريد.. هو شططٌ لا بدَّ منه يا حبيبتي، الحياةُ لا تهبُنا كلَّ شيء، تهبُنا بقدر ما نهبُها من حماقاتٍ، وتنهبُ منّا إذا أسأنا الاختيار كلَّ شيء...

وكان لسانه يجري بأقدار آتية لا محالة، هو فقيهُ الخسارات، العارفُ بالقلبِ، وشيخُ الأقدار الشحيحة، مضيتُ وفي الحقيبة صكًّا انعتاقنا، أنا وسيمون. في الطريق إليه، كنتُ أفكّر إن كنتُ أشتهي حقًّا انعتاقًا من أتونِ قاسم! في المستشفى، وجدتُه طريحَ سرير أبيض، لم يكن فيه من سيمون سوى عينيهِ، سرقَ الجلّادُ لحمهُ وتركهُ حفنةً من عظام بارزة وجلدٍ بنّيٍّ ضارب للسَّواد، المنديلُ الذي كان يرقدُ جثّةً إلى جوار المخدّة يبوحُ بكلّ شيء، كان مضرّجًا بدم رئتيه، ما كنتُ أحسبُ أنَّ السلّ قد أدمى صدرهُ على هذا النحو، وطرّى تيبّسَ عظامه.

إلى شفتيهِ التجأتُ، فأشاحَ بوجههِ عنّي، وإن حفَّ جسدي بزنديهِ

اليابسين، كان يخشى أن يعديني، ولم أكن أخافُ من الأمر. التصقتُ بشفتيهِ، كأنّني أكفّرُ بذلك عن سكّينٍ أرقدتهُ في ظهره، ظلَّ ساكتًا لمدة، ثمَّ قال:

ما نفعُ جسدٍ لا يقدرُ على تلبيةِ حاجاتهِ التافهة..

كانت تهضبُ نفسي بكلام غزيرٍ، لكنّه لا يتجاوزُ الحلقوم. في القلبِ اعتذارات، وكلّما تأمّلتُ المآلَ الذي انتهى إليه، أقيمت في خرائبِ ذاتي محاكمةٌ بالغة الإيلام، أودعتُ في يديه دون أن أعي تذكرتيَ الرحيل، حسمتُ وأنا أتطلّعُ إلى جرحهِ المنشورِ على السرير قراري، لكنّه استقبل التذكرتينِ بابتسامةٍ فاترة، ثمَّ قال:

كفاشاتُ المير الجديد خلعت مفاصل هذا الجسد، وربّت فيهِ مرضًا ضاريًا، ليس السلُّ وحدهُ ما يدمي الصدر، بل الهزيمةُ والفشلُ الذريعُ وخياناتُ الرفاق، ثمَّ إنّني لم أعد أقدر على مواصلة هذه اللُّعبة السمجة مع الدُّنيا.. والجسدُ يا جواهر، الجسدُ حين يماطلُ الموتَ يوزطك في مستنقعِ العجز الموحل، لا أريدُ أن أتخبّطَ في حضرة من أحبُّ كديكٍ مذبوحٍ نصف ذبحةٍ، لا أريدُ أن أسيرَ بين النّاس نازفًا، يسرقني العجزُ، ويطرحني الغيبُ أرضًا قبل أن تستعيدني الحياة، لا أشتهي أن أظلّ عالقًا في برزخ بين الحياة والموت... أحبُّكِ، لكنَّ هذا الجسدَ الخردة ما عاد يسعفُ على أن نكون معًا..

أحمق، لن أدعك..

يكفي أنّني نهبتُ زهرةَ شبابكِ دون أن أحقّقَ أتفهَ أمنياتكِ؛ أن نكون معًا! تستحقّينَ أفضل من مسلسل الخيباتِ التي سقتُكِ إليه..

ونشبت في جوفه نوبةُ السعالِ براثنها، سعلَ بحدّة كأنّه سيلفظُ على المنديل المضرّج بدمه روحَهُ، هزّتهُ رعشةُ النهايات، واندفعَ من فمهِ الدمُ لزجًا حينًا ومتجلّطًا حينًا آخر، كأنّما كان يبصقُ أجزاء من رئتيهِ، كأنَّ الموت جرذٌ يقرضُ أوردةَ الصدرِ دون أن يجهزَ عليه بعضّةٍ حاسمة، تحاملَ على جسدهِ، ارتدى حذاءَهُ واتّكأ على كتفي، ودون أن يأبهَ بكلام الطبيب، طلب أن أسندَ عجزهُ وأسعفهُ على الوصول إلى منزله في الملاح، حين سألتُه عن الرحيلِ الكبير وكان لا يزالُ في القلبِ تردُّدٌ وحنينٌ إلى مراتع قاسم قال على نحو حاسم، «اليوم خمرٌ وغدًا أمرٌ»، ومضيتُ بهِ أو مضى بي، لستُ أدري! استوقفتنا صيدليّةٌ، حانةٌ ومطعمٌ، أخذنا ما يلزمُ لليلنا، كان يتمتمُ بكلامٍ مبهمٍ، وكنتُ أفكّر في سبيلٍ أعودُ به لقاسم، لم أكن أريدُ إن

كان الغدُ يضمرُ لي رحيلًا أن يمضي بي المجهولُ دون أن أودّعه وداعًا لائقًا.

الشمس في الأفق البعيد كانت تتدحرجُ برويّةٍ، وكنتُ أتلصَّص عليها من نافذة شقَّةِ هجرتُها طويلًا، فرشتُ الطعام على الطاولة، ونثرَ سيمون علبَ الأدوية، سخرَ منها طويلًا، لكنَهُ أمام إلحاحي تجرّعها على مضض، قال: لا أشتهي إلَّا أن يأهلني الجسدُ لهذه اللَّيلة، وليكن بعدها ما يكون. هدَّأت الأدويةُ صخبَ صدره، لكنَّ وجههُ كان يشي بآلام شتى تقتاتُ على جسده دون أن تعلنَ عليهِ الفضيحة، شربَ بحرقةٍ، دفعَ في فيه صنوفًا من الخمر، وتهادى رأسهُ على ترانيمِ تشايكوفسكي، كان عناقُ الموسيقى والخمر ينثرُنا في جوٍّ قلقٍ على حافّة (بحيرةِ البجع)، راقصتُ بقاياهُ على الإيقاعات الهادئة للمعزوفة، وحين نضجت بيننا قبلةٌ اقترفتُها عامدة، لأوّل مرّةٍ أحسُّ أنَّ في النفس بذرةَ تعهّر، لكن لماذا داهمني هذا الإحساس في حضرةِ سيمون، وهو الذي أدينُ له بالحَب الجارف والحقيقيّ؟!

كان لتلك القبلةِ ما بعدها، مثلما كان لتلك اللَّيلة ما بعدها، ومثلما لذلك اليوم المشؤوم ما بعده، لا نمضي إلى حيثُ نشتهي، والربُّ حين يجدلُ مصائرنا لا يعبأ كثيرًا بقلوبنا، بيادقهُ نحنُ في لعبهِ ضدَّ نفسه. كانت تلك اللَّيلةُ إثمًا لا بدَّ منه ليكتمل الجنون، قبل أن ألوذَ بجسدهِ، أودعتُ في فمي حبّة منع الحمل اليوميَّة، كان في نفسه رغم تهالكِ جسدهِ رغبةٌ لاعجة، كان وهو يمارس الحبّ يفعلُ ذلك بخشوع قاسم وهدوئهِ، كأنَّه ينتقمُ لنفسهِ من سعاداتٍ أهملها وأهملتهُ، أو لكأنَّه يفرغُ نفسهُ من كلّ شيء، أيعقلُ أن تكونَ حادثةُ الجسد اللَّذيذة صلاةً!؟ تساءلتُ وأنا أتأمَّله يحملُني إلى أقاصي الشهوة قبل أن ينفجرَ بالخصب، نصبَ بيارق فتحهِ المؤجَّلِ على جسدي، كان على ضآلة جسده ملاكًا فحلًا يجيدُ فكَّ معميّات هذا الجسد، حين تشظّينا معًا، كان إزميلُ الندم يخدشُ الروح، غادرَ إلى السجائر والخمر وأهملني على سرير فرحتنا الأخيرة مضرَّجةً بمائه، ونتأت في الذهن فكرةٌ تشبهُ اليقين، لن أتنازلَ عن سيمون حتى لو قرَّرَ هو أن يفعلَ، ورحتُ أرسمُ في الخيالِ تفاصيلَ الحياةِ التي أشتهي أن نعيشها معًا هناك في الغربة... آه.. تعيسٌ بحقٍّ من على كتابِ الخيبةِ يدبّر مشاريع فرح، تعرف الحياةُ كيف تبقيها بعيدًا عن متناول يده.

حين زاحمت أحلامي الصغيرة أطيافَ قاسم ونساءه الماجناتِ وعوالمهِ السحريَّة، اضطربَ القلبُ، كأنَّ النبض خانهُ أو كأنَّه اكتظَّ بدمهِ أكثر ممَّا ينبغي، واستعصى عليهِ ضخُّه، تأمَّلتُ سيمون وهو يعتقلُ

السيجارة بأصابعهِ المتيبّسة، ثمَّ وهو يمتصُّ بشراهة عمرها، جاس الأمرُ خلال نفسي أوَّلًا خاطرةً، ثمّ صارَ أمنيةً، وجدتُني أسارعُ إلى تنفيذها. همس شيطاني في السرّ: إن كان لا بدَّ أن أفطرَ برحيلي قلبَ قاسم، فليكن بيننا وداعٌ يليقُ بهبلنا المشترك، تطلّعتُ للساعة ثمَّ أصختُ السمعَ للزقاق. كان ضجيجُ الصبيَّةِ يؤذنُ بالخروج، وكان في اللّيلِ متّسعٌ لأشيّعَ أفراحنا وجنوننا.. قبل أن تسرقني منه الغربةُ والأيّام العجافُ، أريدُ أن أودعَ في قلبه ذكرى يستحقُّها. لفّقتُ لسيمون كذبةً كيفما اتّفقَ وتركتُه نهبًا للبرد والوحدة والقلق الوجوديّ.

الندُّ وروائحُ الحشيش والأجسادُ السامقةُ المتفحّشةُ والأفراحُ تعلنُ عن نفسها بخجل، وتبتعثُ في النَّفس كسلًا من نوع ما. حزنٌ قميء يقشطُ عن القلب غلالةَ الفرح، ويسفكُ على سفحِ الرُّوحِ غراميّات معتّقة، كانت سيّارةُ حاضري تجرجرُ القلبَ تحت عجلاتها، وبين مطرقةِ قاسم وسندانِ سيمون، بين الضحيّةِ والجلّادِ، كنتُ أقفُ حائرةً، سكبتُ إلى الأعماق زجاجة خمرٍ دون أن أسكرَ، رقصتُ إلى أن خلتُ الأرض تميدُ بي، وفي الهزيع الأخير من اللّيل، في ذروة **«كارمينا بورانا»**، وجدتُني أقعُ منكسرةً بين شهقات قاسم وزفرات إزميرالدا. هي تذهبُ بي صوب المتاهة التي ما بعدها هداية، وهو يرفعُ روحي صومعةً للغيبِ، ويسقي بمياهه دغلًا هو سيّدهُ الأوحد.

تلك اللّيلة وما واكبها من حماقات وحدها استطاعت أن تهبنا الفطامَ المنشود..

والصباح، وما أفصحَ عنه من فجائعَ، وحده كان جزاءً نستحقُّهُ نظير ما عشناهُ من فسوق..

تشقّق القلبُ كجدار مملّحٍ امتصَّ سنينًا من الرطوبة والبلل، ألصقَ الخبزُ القلب في سقف الحلقوم قبل أن أشهدَ تساقطهُ رمادًا، احترقَ قلبي، تلوّى مثل وُرينقةٍ تواجه بكلّ مخاوفها نارًا جائعة، لم يزفَّ لي قاسم ترمّلي، لكنّهُ علّقَ في وجهه كلّ ما يحيلُ على ذلك، وترك للنّاس في الشارع أن يذرفوا عزاءاتهم، كلٌّ يغرسُ في الرُّوح مشرطَ الكلام ويمضي. تعازيهم على براءتها مبطّنةٌ بإدانة من نوع ما، هل سرقهُ السلُّ؟! هل الحمّى؟! الوحدةُ إذًا؟! أسألُ دونَ أن أجدَ من يهبُني جوابًا لأسئلةٍ بها تتشقّق الرُّوح..

ذلك النسرُ لا يتركُ للعجز أن يقرض جسدهُ، هزمتهُ الحياةُ، لذلك أرادَ أن ينتصرَ على الموت، قال لي قبل أن يموت «أصابَ اليسار ما أصابني من هزالٍ، وغدًا أو بعدَ غدٍ نموتُ، لم يُجهِز علينا الميزُ لكنّ أحلامنا الوديعة

فعلت، خانتنا شجاعة حمل السُلاح والنتيجة...» وأشاح بوجهه عنّي، كان يكابدُ وخزَ دمعةٍ، واستدرك «مثلما ماتَ المناضلون الأحرار ليمسك زمام الوطن الخونة، كذلك سيرثُ عرش آلامنا خونةُ الزمن الرديء، وعلى جثثنا سيمضي يساريُّونَ دون يسار».

قال كلامًا كثيرًا قبل أن يمارسَ غوايةَ النسور، وكنتُ ساهمةً عن كلامه منشغلةً بحرب أهليَّة كان القلبُ مسرحها، كان يبدِّدُ كلّ قواهُ، ويستنزفُ الحياة.. أوَّاهُ، يا أيّها الربُّ في أعاليك، لقد كان يمارسُ الحبَّ بوداعةِ من يعمِّدُ جسدهُ للقاء ربِّهِ، كان يشربُ كمن ينتقمُ من الحياة، وكان يرقصُ نكايةً في الدُنيا الشحيحة، ويدخِّنُ ممعنًا في خراب جثّةٍ ما عادت تتَّسعُ لروحهِ الكبيرة، فكيف، كيف أيها الربُّ الوديعُ لم تلفت عنايتي إلى جرحٍ تُطرِّزهُ على مهلٍ؟ لماذا تركتني أنتعلُ جنون الدُنيا وأمضي في درب الخبلِ صوب السلطانِ وحريمهِ!؟

أنفقتُ في حدادهِ أيَّامًا، كلّما حاولتُ عدَّها أخطأتُ، فمنذ ذلك اليوم الذي أعاد فيه بريدُ الموج عظامهُ كاملةً غير مهضومةٍ وأنا واقعةٌ في حالةٍ أشبه بموتٍ تجريبيّ، قد أخطئ في عدّ ما قضيتُه وأنا أكابدُ دوارَ الخسارةِ الكبرى من أيَّام، ليس لأنَّها كثيرة، بل لأنَّ الخيال يشطحُ بي أحيانًا، وأحسبُ أنّ يوم رحيلهِ تمطّى بصلبهِ وابتلعَ ما دونهُ من الأيَّام، كثيرًا ما اعتقدتُ أنَّ الزمن بعدهُ أصيبَ بعطب فادح، ونهارُ موته متعنِّتٌ يصرُّ على أن يتَّصل بالقيامة! لكنني أفقتُ من دواره النَّفسيّ على دوخةِ جسدي، مادت بي السَّماءُ، تقيّأتُ بحدّة حتّى خلتُ أنّي سأطرحُ معدتي.. وفي المساء، حين فرّت بي إغماءةً إلى المستشفى، ثمَّ حين عبثت بي الممرِّضةُ، زاغَ بصرُها ذات اليمين وذات الشمال قبل أن تقول بثقةٍ؛ **«أنتِ حبلى»** نثرت في مسمعي الكلمة إعصارًا،وتركتها بعد ذلك تبالغُ في دماري..

أيُّ نطفةٍ مجنونةٍ وجدت طريقها إلى رحمي وأنا أسيِّجهُ كلَّ يومٍ بحبوب منع الحمل؟ ثمَّ مَنْ أبوهُ؟ آخرُ عهدي بالجسد ذلك اليوم، اليوم الذي أفرجَ فيه الميزُ عن سيمون، ذلك اليوم ضاجعتُهما معًا، ومعًا تركا في أحشائي نطفَهما. تنازعا معًا القلبَ والجسدَ، لكن أيُّهما كان أسبقَ للرحم؟ من منهما استطاعت تماسيحهُ الصغيرة أن تفترعَ في جدار البويضةِ ثقبًا وتنفذَ للتكوين؟!

تهتُ في كتلة الضباب الذي تصعقني فيها الأسئلة المبهمة، تفحَّمَ القلبُ، وتلك الحقيقةُ لا تنفكُ تلحُ باستمرار: إنَّني أحملُ في بطني لوثةً، مسخًا شكّلت ملامحهُ الخطيئةُ والفسوقُ التي مرّغتُ فيه الجسدَ، لو فقط

كنتُ أعرفُ ابنَ مَنْ أحملُ في أحشائي، بدل أن أطرحهُ إلى حياةٍ ممتهنةٍ وأسئلةٍ أكبرَ مما يطيق. غصَّت بي الخيبةُ، وفي العينين الندِيّتين زحفَ السَّواد. رأيتُ الممرِّضة تحرّكُ جسدي، ثمَّ رأيتها تبسطُ يدي، وكان وخزُ الحقنة آخر ما علقَ في الحواسّ.

الرسالة (١٠)

من سيمون إلى جواهر

صيف ١٩٧٤

«فلتغفري لعاشقٍ مثلي حماقتَهُ الأخيرة، لأنّي أحبُّكِ أريدُ أن أجنّبكِ شطحَ عمرٍ من الخيبة والحزن وضيق الأفق... لأنّي أحبّكِ صرتُ مطالبًا بأن أمارسَ غوايةَ النسور، وأرحلَ في الوقت المناسب، لأنّني لا أريدُ التمادي في إيذائك، سأمضي. حياتُكِ دوني سيّئةٌ لا بدّ، لكنّها أسوأ معي، أنا العالقُ في جبّةٍ بالكاد تسعفُ رحلتي إلى دورة المياه... أحبُّكِ، أحبُّكِ.. أحبّكِ.. أعلمُ أنّ مليونَ «أحبّكِ» لا ترتقُ فتقًا واحذا في قلبِكِ، لكنّي أحيطُكِ علمًا بها، فقط لكي لا تنسي يومًا أن ذلك الكائنَ الأنانيّ المريضَ بالماركسيّة أحبَّكِ بشذة، حتّى وإن أخطأ إليكِ السبيل.

لو قرّرَ الربُّ الراقدُ في أعاليه أن يكافئَ صبري على حياة الزفت التي كابدتُ، ويهبني فرصةً أخرى، فلا بدّ أنّني لن أخطئَ إليكِ السبيل، سأكون مريضًا بالأنانيّةِ والحب، سيكتحلُ قلبي بكِ وحدكِ، وسأعالجُ كلَّ الأخطاءِ التي اقترفتُ، سأهملُ طنينَ السياسة وتلك الأفكارَ الكبيرة المستعصية في رأسي، سأغضُّ الطرفَ عن تناقضات واقعي، وسأحبُّكِ كأنّكِ السّببُ الوحيدُ الذي يشدُّني بقوّةٍ للحياة، كأنّكِ الحياة وقد لبست ثوبها البشريّ، لن أدعَ ساعةً تمرُّ دون أن أحفلها قصيدةَ حبٍّ، لن تمرَّ دقيقةٌ دون أن ألثمَ قلبكِ.. لو أنّ الربَّ كريمٌ، كما يقولون، لأشفقَ على زجاج القلب، تشظّى على صخرة واقعي وسحقتهُ الهُ المير الجديد، لو شاء أن يباركَ صبري على الحياة بعودةٍ ثانيةٍ، فلا بدّ أنّني سأتمسّكُ بتلابيب ثوبك كطفلٍ ليس له في الدّنيا إلّاكِ، سأفرشُ طريقكِ وردًا، وأنثرُ على سمائكِ ألوانًا قزحيّةً ساحرةً، سأعدُّ لكِ مشاريع فرحٍ لم تكن لتحلمَ بهِ قبلكِ امرأةٌ. آه.. فقط لو يأذنُ الربُّ لي بعودة».

قاسم

١٠ ١٠ ١٩٩٦

الزنزانة ٠٩

الوحدةُ، الغربةُ، الموتُ الموعودُ، ألاعيبُ الذاكرة وهذه الزنزانة..حلفٌ كلّما حاولتُ أن أقفَ على قدميّ أربكَ بغاراته وقفتي، وتركني مسربلًا بدم من ذكريات. العزلةُ وضيق الأفق والإحساسُ بالنهاية آتية لا ريب فيها، كلُّ هذا يدفعني إلى الجنون، لا أخاف الموتَ، لكنّني لا أطيقُ انتظاره، كان جبنًا صريحًا بحقّ أنّ عزيمتي تخاذلت أمام فوّهةِ الدبّابةِ، كان في الجسد وهنٌ لا بدَّ وأن يمنحني انطفاءً سريعًا، وكان يجدر أن أموتَ واقفًا بدل أن أزجَّ في سراديب الانتظار، أستحقُّ موتًا شريفًا لقاء ما كابدتُ في هذه الدُنيا الغريبة من شظف، يفدحني اليأسُ كلَّ يوم يفترعُ فيّ ثقبًا فجًا، ويتركني معفّرًا بدمٍ من وهمٍ لا يسرقني من الحياة ولا يعدُ بموتٍ قريب.

أستعيد ذلك اليوم، يوم ألقت بي الشفينة على حوافِّ الجنوب، أذكرُ ذلك الوجة اليابسَ الذي كان عائدًا إلى وطنه. حدّثني، قبل أن أرتطمَ بجواهر، عن حربه وبطولاته أمام النازيّة الألمانيّة وفي حرب الهند الصينيّة.كان يتحدّثُ بحماس واضح، وكنتُ أتابعه بفتور، وهو يحاول أن ينقلَ لي التفاصيل بدقّة، قال لي إنّه عائدٌ من فرنسا بعد أن قام بتسوية بعض الشؤون المتعلّقة بمعاشه، كان يؤمنُ بالبركة والأولياء، وكان لا ينفكُّ يحدّثني عن شجرة عائلته وجذوره الضاربة في أعماق الجنوب، وكيف أنّ والدهُ كانت له طريقةٌ صوفيّة، كنتُ لا أنفكُّ أبدي تضجّري من حديثه برمّته، قال لي بعد أن أقنعني أخيرًا بقراءة كفّي:

أنتَ لستَ إنسانًا، لستَ إنسانًا بما يكفي، أنتَ مسخ، آلةٌ وحشيةٌ، ستدفعُ البلاد والعباد بين أشداقك وستطرحهم أمواتًا، أنتَ لست حقيقيًا، أكذوبةٌ عمرُها ينيفُ عن الخمسين ببضع سنين، ترقّب موتك في التاسع عشر من اذار..

وابتعد، ظلَّ يتطلّع إليّ ببلاهة وهو يتراجعُ، إلى أن غاب... ذلك الوجه اليابس، جثمَ في منابتِ الذاكرة الجديدة، هو وجواهر والمستر هارفي والأقراط التي كانت تنام في الجيب ومعزوفة «كارمينا بورانا» كانت تصدحُ بها السّفينة، كلامهُ الغامض ظلَّ وشمًا، كلّما حاولتُ دفعه عنّي التصقَ بتجاويف الذاكرة، وإذا كنتُ قبل أن أبلغَ الخمسين قد أهملتُ

سيرتَهُ ووجهه اليابس الذي شقّت فيه التجاعيد فجاجًا، فإنّه أضحى أكثر إلحاحًا بعد الخمسين، رأيتُه في أكثر من حلم، وكلّما اقترب التاسع عشر من آذار من كلّ سنة تضجُّ بي نبوءته، وأنا... أنا كلّما حلّ اليوم المنشود، اتّقيتُ بكلّ ما أوتيتُ من جهدٍ شرَّ النبوءة..

لن يدفع المرء عنه سلطان الغيب، حين يشتهي الموتُ أن يفترسَ الضحيّة، فلا شيء يقفُ بينه وبينها، اللّهمَّ مسافةٌ قلقة بعمر شهقة وعرامةٌ من الدّهشة، لكنّني أشتهي أن أموت في ذلك التاريخ المزعوم، لربّما سأعلّقُ كلَّ خطاياي على مشجب الغيب، إذ يرسخُ في البال ظنٌّ يشبه اليقين، أنَّ الحكاية كانت مصمّمةً سلفًا بمقاسات مضبوطة، وما أنا إلّا ممثّلٌ لقدرٍ كان.

المحامي لا ينفكُّ يولمُ أسئلته، وأنا لا أنفكُّ أردُّ مآدبهُ متعلّلًا بالحزن والتخمة، عمرٌ كاملٌ وأنا أسعى خلف مفاتيح تفكُّ مغاليق ذاكرة أكلت أزيدَ من ثلاثين عامًا من عمري، وحين فككتُ طلاسم حياتي، وجدتُني في حقل يضيقُ بي سياجه كلَّ يوم أكثر ويفتحُ في اللّحم أكثر من جرح غائر، ويأتي بعد عمرٍ ممتهنٍ، هذا الرجل اللقلاق ليرشُقني بأسئلته البليدة: من أنتَ؟ كم من واحدةٍ اغتصبتَ؟ لماذا كنت تصرُّ على **تصوير اغتصابكَ لهنَّ**؟ لماذا العذارى بالضبط؟! لماذا أراملُ ضحاياك؟! لماذا **الأراملُ دون المتزوّجات**؟ لماذا تقرنُ اغتصابهنَّ بالأذيّة؟ ولماذا ترتدي وجهًا كالحًا أقرب للحزن وأنتَ تمارسُ عليهنَّ ساديّتك؟! وكان جوفي يغصُّ بحَنَق أجد مشقّةً في إطفائه؛ كان يمكن أن أقول له إنَّ في تاريخي أبشع ممّا تقول وأفدحَ، كان يمكن أن أخرط على مسمعيه كلّ الآثام والتفاصيل التي تقشعرُّ لها الأبدان، كنت أتمنّى لو فقط يعرف أنَّ الأمر أكبرُ من جرائم اغتصاب، كنتُ أقيمُ بها أودًا في الأعماق، وأنَّ الأمر يتعلّقُ بالتاريخ، أن ينتقيَ القضاةُ من سجلّي المضرَّج بدم الألوف حوادث الاغتصاب التي كنتُ بطلها دون غيرها مغالطةٌ كبيرةٌ، يرادُ بها طمسُ سنوات الجمر التي أشعلتُ به المدينة وتصويري على أنّني لم أكن أكثر من حاكم مهووس بالجنس. أنا كذلك أعترف، لكنّني أسوأ من ذلك، وأريدُ أن أحاكَمَ على فظائعي مجتمعة غير منقوصة، كان بوذي لو أقول مثل هذا الكلام وأكثر، لكنّني كنتُ أعرف أنّه من العبث أن أنفق كلامًا، أنا أدرى بأنّه سرعان ما سيركنُ للنسيان، كنتُ المير، كنتُ جنرال المدينة وأعرف أنَّ المرءَ في ذلك المنصب يلبسُ السلطات خاتمًا في يده، ويفعلُ ما يريد، يقولُ للتاريخ كن فيكون... حين أخذتُ من المير زمام المدينة، أوعزتُ لكتيبة النسخ والتعديل أن يعيدوا كتابة فترة المير السّابق، وياسر هذا لن يكتبَ إلّا ما يراهُ مناسبًا للمرحلة،

ولا بدَّ أن يجعلَ منّي شيطان المدينة الرجيم، الذي جثمَ على صدور نسائها، ولم يترك واحدةً دون أن يوقع على قلبها نُدبة..

سيوعزُ بعد تلك المحاكمة الصوريَّة لكتيبة النسخ والتعديل أن يعيدوا كتابة تاريخ آخر، لا أكون فيه أكثر من مجرَّد عضوٍ ذكريّ كبير حكمَ المدينة. ما عدتُ أعبأ كثيرًا، لا به ولا بالمدينة ولا بالحياة والتاريخ، حين يقيم المرء على بعد أمتار من الموت لا يرشحُ في الذهن سوى الأهمّ، تستكينُ الرُّوحُ إلى حكمة النهايات تدفع بها ضجرَ الانتظار، لا أدري إن كنتُ أموتُ فاتح آذار مثلما أمر القاضي، أم أنّ حكمة الغيب ستجرجرُ قلبي تسعة عشر يومًا آخرَ لتصادق على نبوءة ذلك الرجل اليابس، بوذي لو تصدقُ نبوءةُ ذلك العجوز، لكنّني لا أمانعُ أن يشاغبَ واقعي جنون الأسطورة، ولا يماطلُ الموتُ أكثر ممَّا يجب.

الوحدة واليأس، وانتظارٌ ينخسني بدبابيسه في أكثر من مكان، وذاكرةٌ أصابها تلفٌ، تُضربُ عن العمل حينًا، وتغمرني أحيانًا بحشوٍ غير ضروريّ من الذكريات، المكان يذكي الفضائحَ في القلب حين تشتعلُ بها ذواتنا، والأفضل بدل أن نحاول التملُّصَ من ألسنتها، أن نعانقها وأن نستجديها باسم احتراقاتنا، باسم آلامنا الفادحة أن تهبنا الخلاص الذي ننشدهُ..

الوحدة والمكان والموت المتربّص كلّها تمنح تذكرةً مجانيَّةً للسفر إلى الماضي، وأنا تحت فيءِ الفراغ لا أنفكُ أدهكُ ردهات الصمت والأقبية السرّيَّة للذاكرة، أعود حينًا إلى أعالي الأطلس المكلَّلةِ بالبرد والثلوج، وصخب ذلك اليوم، أسافرُ إلى تلك الجزيرة، أستعيدُ هبلَ جوزفين، وتقفُ بي الزنزانةُ طويلًا عند ذلك النسر الذي أطفأتُ ثورتهُ هنا، واستبحتُ قلبهُ وسبيتُ أنثياه، أسامرُ أوجاعهُ وأوجاعَ جيلهِ، أستعيد كلامهُ الغاضبَ، والمنطق الذي كان يحرّضهُ عليّ.. أناقش قناعاته، وأودعُ السوطَ في يده، وأديرُ له الظهرَ علّهُ يجلدني، يسفحُ دمي الندمُ دون أن يفعل، فأوقنُ أنّني دفعتُ بملاكٍ إلى الهاوية.

انتصرَ عليّ رغمَ كلِّ شيء حين أودعَ في قبر نهاياتي عناقَ أوّلِ حرف في اسمه (S) بأول حرفٍ في اسمها (J). نحت على الحائط هذا العناقَ وخلّد به جنونَ قضتهما، توّجهما جدارُ الزنزانة التي أكلت جسدهُ قبل أزيد من عشرين عامًا عروسين، وأسكنني الهوامش الضيّقة. أحببتُها مثلهُ أو ربما أكثر منه، صحيحٌ أنّني بحضوري استوديتُهما معًا صوب المسارب المعتمة، وتركتُهما يضيعان من بعضهما بعضًا، قبل أن يضيعا من

الحياة، أحببتُها ولا يمكنُ إلَّا أن أحبَّها. ذلك اليوم على متن تلك السَّفينة حدثَ كلّ شيء، آه كما لو أنّ سيفًا من النور فتقَ غلالةَ القلب وأعلنها الحبّ الوحيد، لم أكن أملكُ إلَّا أن أنقادَ لحبالٍ من الوهم انعقدت بين قلبي وبينها..

جواهر.. يا روحَ الرُّوحِ وكلَّ القلب، أحبُّك، ولا يمكن إلَّا أن أتمادى في حبِّكِ، لم يحدث بعد رحيلكِ أن مرّ يومٌ دون أن أذرفَ ذكرى وأجرعَ علقمَها على مهلٍ، لم يحدث أن أسقطتُ من جدول أيّامي الرتيب بعدك مساحةً من الوقت أمعنُ فيها في استرداد حماقاتنا وأشيائنا الصغيرة. عشرون عامًا وأنا أواظبُ على حبِّكِ، مئتان واثنان وأربعون شهرًا لم أكفَّ فيها عن رثائك، أكثر من سبعة آلاف وثلاثمئة وسبعين يومًا والجرحُ مفتوحٌ لا يضمّدهُ النسيان.

سيمون ليس أفضل منّي، أحببتُكِ أضعاف ما أحبّكِ، لكن كان لحبِّهِ تاريخٌ غائرٌ في روحكِ، وكان حبّي لقيطًا، لكنّه كذلك دفعَ بين أضلعكِ كلّ أسباب الحزن، وأولمتُ لكِ أفراح الدُّنيا. كان سيّدَ الماضي، وكنتُ سيّد الحاضر. أنضجتُ ماضينا وتاريخنا المشترك لولا أنَّ الموت سرقكِ، أحببتُكِ أكثر منه وأكثر مما أحبَّ أيّ إنسانٍ قبلي، ذلك أنّني لم أكن أسيرُ صوبكِ بإرادتي الحرّة، كانت إليكِ تسحبني حبال الربّ، وعليكِ كانت تحرّضني عناقيدُ عقدٍ نفسيّة منسيّة. انسحبتُ من بؤبؤ النسيان آلةٌ من لحم ودم، آلة بشريّة باردة، وحدكِ كنتِ صوت الإنسان فيّ، كنتِ كوّةً بحجمِ أنملة أو أقلّ، أتلصّصُ من خلالها على آدميّتي.

قاسٍ غيابكِ وقلبي كسيح، على حافّة الموت لا أشتهي إلّاكِ، ولا أريدُ من مآزق الغيب إلَّا أن تهبني وجهك في الدقائق الأخيرة، أو في سرمدِ ما بعد الموت، أشتهي في خريف هذا العمرِ أن نبتنيَ معًا أبديّةً أخرى، ولو في الجحيم، ثمَّ إنّني لا أعتقد أنَّ الربَّ سيكون بخيلًا كما يقولون لا أعتقد أنّه بعد كلّ هذه المسالكِ القميئةِ التي دفعني إليها سيلذُّ له الإمعانَ في خرابي، إذ يجعلُ من لحمي شواءَ جهنم!

«أحبك».. سنون طوالٌ وهذه الكلمةُ تخبطُ القلبَ بمديتها، سنون من النزف المتواصل... هادنتُ في البدء مدائنكِ، ولم أشأ أن أعبثَ بما بينكِ وبين سيمون، كنتُ أعرف أنّني ملكُ، إذا دخلتُ قريةً أفسدتُها، لكنَّ ما بيننا كان قدرًا، وكلُّ هروبٍ منكِ كنتُ أعرف أنّه لا بدَّ وأن يقودني إليك، في ذلك اليومِ الذي نضجَ فيه الجسدُ وأعدَّتنا الحماقاتُ لحادثة الشهوة اللَّذيذة، ما كنتُ أشتهي أن تسير الأمور على ذلك النحو، ما كنتُ أشتهي أن

آخذكِ جسدًا، لكنّ قلبي ضعيفٌ أمامكِ وقلبُكِ مسكون باللوثة، لم أشأ أن تسير الأمور بنا في طريقِ الآثام، لكنني حين ملكتُكِ قلبي، ملكتُكِ زمامَ كلّ شيء، وتركتُ للشيطانِ أن يقتادَ خطانا. كان الجسدُ مفتاحَ القلبِ، وإزميرالدا وعوالمُ الفسوقِ، توَّجتني في عينكِ الرجل الوحيد الجدير بالحبّ والجسد، لم أشأ أن تمضي بنا سفن أيّامني صوب ضبابٍ معرّش في الأفق، لكنّكِ شئتِ.

كان الإفراجُ عن سيمون خطأً فادحًا لا سلطان لي عليهِ..

كان يخزُ القلبَ بقيةُ شك؛ أنَّك تقيمين في حياتي سبيةً مسروقةً، لذلك كان لا بدَّ من تحريركِ بتحريرهِ، كان لا بدَّ من دمقرطة المنافسة من جديد بإطلاقِ سراحه، كنتُ أشتهي أن تنتمي إليَّ وتتخلّي عنه مرَّة أخيرةً وللأبد ، أردتُ أن أتحرَّرَ من جثّتهِ والهواجس في قلبي، فسرقتُ من قلبكِ بوصلتهُ وتركتُكِ تتخبَّطينَ في تناقضاته.

وما كنتُ أحسب أنّ نصف يوم من الحرّية كافٍ لينحرَني فيه سيمون وينتحرَ، ثمَّ يسحبَها خلفهُ ويبقي القلبَ في برزخٍ بين بين، ما كنتُ أعتقد وأنا أفكُّ الأصفادَ على حياته أنَّني أفسخُ خيوطَ قنبلةٍ وأمنحُ لانفجارها عمرًا غيرَ بعيد، نصفُ يوم فقط كان كفيلًا بأن يبدّدَ كلّ شيء، قبل أن أطلقَ سراحهُ كان رجال الموساد قد دفعوا في رأسه الكثير، كانوا يعرفون أيَّ نوعٍ من الرجال هو، ويعلمون مقدارَ ما تورّم في أعماقهِ من حقدٍ، لكنَّه حين زاروهُ في المستشفى أبدى رعونةً، وخاطبهم بصفاقةٍ، رغم أنَّهم يعرضون عليهِ إنعاشَ حياتهِ دون مقابل.. تراهُ أصرَّ على التشبُّث بأرضٍ كلُّ ما فيها ينبذهُ أم أنَّه كان قد اتَّخذَ قرار الرحيل عن الحياة، وطفقَ يحكمُ غلق أبواب التردُّد؟!

نصف يوم واحد فقط من الحرّيّة، أهدى فيه بقاياهُ قربانًا للبحر، ولغَّمَ قبل ذلك حياتينا، وقوّضَ كلَّ جميلٍ ابتنيناهُ معًا، كانت حماقةً بحقٍّ أن أفرجَ عنه، كنتُ أحسبُ أنّني دفعتهُ عميقًا في خندق التلاشي، ولم يعد أكثر من فكرةٍ وحفنةِ ذكرياتٍ أختبرُ بها ولاءَ جواهر، وأحسمُ معركتي معه بانتصارٍ رمزيّ يحفظُ لي أمامها ماء الوجه، لكنَّهُ كان يخبّئ بين العظام البارزة في ذلك الجسد الهشّ ألغامًا سيبثّها قبل أن يمضي في طريقنا، وفي جسدها سيودعُ أسباب الاندحار.

نصفُ يوم كان كفيلًا بأن يتوّجهُ سيّدَ قلبِها المطلقِ، فزّت بتذكرتي السفر إلى رفاتهِ في المستشفى، أولمت لهُ جسدَها وأفراحَ الدُّنيا، وبعد أن حسمت قرارها واتَّخذتهُ حاضرًا ومستقبلًا، قرَّرت أن تختلسَ من بقيةِ ليلها

وداعًا مسروقًا يليقُ بهبلنا، لم أكن في حياتها أكثر من نزوةٍ مسروقةٍ حتَّها عليها الفراغ والشيطان في أعماقها، اتَّخذت قرارها واختارتهُ وزفَت لي جسدها ودموعها في ليلة شاءت أن تنهي بها هبوطها في مهاوي الرذيلة.. نصفُ يوم كان كفيلًا لينتصرَ عليَّ فيه سيمون، ويخطفَ من بينِ يديَّ المرتجفتين قلبَها، قبل أن يكافئنا معًا على الخطايا كلِّها. قلبُ العاشقِ لا يعلمُ الغيب، لكنَّه يكاد. قلبُ العاشق قد تغافلهُ الخيانات، لكنَّ الأقدار تنتقمُ له، قبل أن يمضي. أرقدَ في القلب نصلًا مدبَّبًا حين اختارتهُ، وأرقدَ في قلبها رصاصةً حين بادر الموت المتربِّصَ به بموتٍ استباقيّ، أدخلها دوامة اضمحلالٍ، لم تستفق منها إلَّا على فضيحةٍ لا تقلُّ مضاضةً..

في بطنها، فقست بذرة الفضيحة، ذلك القلبُ الذي دفعتهُ خسارةُ سيمون كقطعة الحديد في فرن الأسى، حتى احمرَّ. دفعتهُ الفضيحة في مهاوي حزنٍ قارس، قالت إنَّها لا تعرف أيُنا أودعَ في أحشائها سِرّهُ، وأنَّ هذا المسخ الذي ينام في بطنها هو جزاءٌ تستحقُّهُ نظير فسوقها وخياناتها، ليلةً واحدةً كان فيها الجلَّاد والضحيَّةُ شريكيّ جسدٍ واحدٍ، المغتَصِبُ والمغتصَبُ معًا نثرا بذورهما في حقل متنازعٍ عليه، فانفجر بالخصب غير آبهٍ بحبوبٍ، يقال إنَّها تتربَّص بكلِّ بذرةٍ تهزُّ طينَ الحقل وتئدها قبل التكوين!!

أنست إلى فكرة الإجهاض، وفي اللَّيلة التي كان مقرَّرًا أن يُسقطَ فيه الطبيبُ تلك النطفة التي تتبرعمُ يومًا بعد آخر، انتعلت جنون الدُنيا، وتركت المدينة، فتَّشتُ عنها في كلّ مكانٍ، لكنني لم أعثر لها على أثرٍ، قيل لي إنَّهم رأوها آخر مرّة قرب قبر سيمون، ترشُهُ بماء الزهر، وتخطُّ على جنباتِ القبر كلمة «أحبُك». تركت فوق القبر باقة النرجس ومضت، لا أحد يدري إلى أين! ولم أكن أشتهي هذه النهاية، كنتُ أشتهي أن تتخلَّص من ذلك الجنين الذي يسبحُ في أحشائها، لأنّي لا أستحقُّ أن أكونَ أبًا، ولا أشتهي أن ينتسبَ إليّ طفلٌ بنسبة خمسين في المائة!

لكنَّها غادرت المدينة، غادرت وفي أحشائها نطفةٌ، وعادت بعد شهورٍ طوال، أرقُّ من عود الخيزران، تخفَّفت ممَّا في بطنها، كنتُ قد تركتُ المدينة شهرًا وأنا أجوب المدن، أقتفي سيرتَها، وأسألُ هنا وهناك علَّني أهتدي إليها، عدتُ لأجدها قد سبقتني، قيل لي إنَّها عادت تحملُ بين ذراعيها رضيعةً، لكنني كلَّما سألتُها عن مصيرها، أجابت بسعالٍ تكاد تُزهقُ له روحها. قال لي الطبيب بأنَّ سيمون لم يهمل في أحشائها لوثةً محتملةً وحسب، بل في رئتها كذلك نصبَ قنبلةً موقوتةً، كانت لا تكفُّ عن السعال،

هدهدتُ مرضها بالكثير من الأدوية، وتناوبَ على حالتها أطباءُ كنتُ أستجلبُهم من كلّ المدن، لكن لم يقدر أحدهم على إيقاف تلاشيها، جسدُها المخرّمُ يتضاءلُ كلَّ يوم أكثر، تذوي وتتساقطُ بين يديَّ كحفنةٍ من أوراق الخريف، لم أعد معنيًا وأنا أراها تخبطُ بإلحاحٍ على أبواب قيامتها بالسؤال عن مصير الطفلة، لكنّها في تلك اللّيلة العصيبة التي خلتُ أنَّها ستطرحُ فيها رئتيها كاملةً من فرطِ ما سعلت وبصقت دمًا، قالت بكلام يشبهُ الحشرجةَ إنَّها أعطت الطفلة النغلة لسيّدةٍ عقيم، لم تقل أكثر من ذلك، ولم أستحثَّها لتفعل، كنتُ منشغلًا عن كلّ شيء، بالبحثِ عن سبيلٍ أستوقفُ به احتضارها، قالت في اللّيلة الموالية:

«كان يجدرُ أن يقتلهُ السعالُ، ويخطفني بعدهُ انتحارٌ باردٌ، لكنّ ما حدثَ هو العكس».

ثمَّ قالت:

«أنتَ لستَ آدميًا يا قاسم، أنتَ وحشٌ يلبسُ زيَّ البشريّ..!»

وغفت قبل أن تقول كلامًا يقضُّ شريطهُ السعال:

«لكنّ... قلبي... المهبول... أحبّك!»

في ليلتِها الأخيرة... كنتُ الغائبَ الأكبرَ عن هذيانها، كان السلُّ حفنةً من الديدان تتدافعُ في صدرها وتعضُّ أكثر من وريد، سيمون كان كما لو أنَّه كاملُ الحضور، تذرفُ في حضرته دموعها واعتذاراتها، أمَّا أنا، فلم أكن أكثر من وهمٍ يقفُ بين عاشقين. في الهزيع الأخير من اللّيل، فاضت روحها. غسلتُ جسدها بدموعي، ونمتُ متدثّرًا بعناقها البارد، ورأيتُ في ما يرى النائم بقعة الدم الشاسعة تفترش بساط الثلج، ورأيتُ حصانًا يصهلُ وحيدًا..

سيمون

١٣ ٠٦ ١٩٧٤

على حافةِ البحر

فلتغفري يا جواهر...

هي حماقةٌ أخيرةٌ لا بدّ منها، أعلمُ أنّي سأدمي بها قلبَكِ أكثر، لكن ليس في اليد حيلةٌ أدفعُ بها حياتَكِ بعيدًا عن حياتي، أدميكِ بجسدٍ صحيحٍ، ولست أشتهي أن أدميكِ أكثر بجسدٍ معطوب، لا أريد أن ترافقي حياتي جليسةٌ تدفعُ بي الكرسيّ المتحرّك وتدفعُ في فمي ملاعق الدواء، أشتهي أن أحرزكِ منّي إلى الأبد، سأمتهنُ جنون الحيتان معكوسًا، حين يضيق بها البحر على رحابتهِ تدفعُ بأوجاعها وأيّامها إلى اليابسة، مثلها ضاقت بي اليابسة، لذلك سأخمد الجمرَ الكاويَ بين الضلوع في البحر، وسأطفئ بقيّة أيّام لن نعيشها سويًّا، لأنّي لن أعيشها سويًّا ما دمتُ أحملُ في الجسد أسباب انهياري.

الحياةُ بنتُ كلبٍ أجرب، والمجدُ للعدم!

الحياة مومس عجوزٌ تشتهي من يهبها فيضةً في حلكة اللّيل، دون أن يلفتَ انتباهها إلى مقدار بشاعتها. الحياةُ غولٌ تسارعُ إلى الزجّ بك بين أشداقها كلّما انتبهت إلى أنّك نقدت إلى حقيقتها، الحياة... آه كان يجدر ألّا نمعنَ في مساوئها النظر وأن نأخذها على بساطتها، كما يأخذها عموم النّاس عروسًا بهيةً، ونستلذُّ بسفح دمها على سرير واقعنا. كان يجدر أن نغضّ الطرفَ عنها كلّما تخفّفت من زينتها...

فلتغفري يا جواهر، يا أبهى ملاك..

لا أملك إلّا هذه الكلمة، أعالجُ بها ما في الرّوح من قروح، أحببتُكِ والربُّ في أعاليه لا بدّ أن يخبركِ يومًا بأنّي ما أحببتُ سواكِ، وأنّكِ المبتدأ والمنتهى، وأنّكِ فاتحةُ الأيّام والخاتمة.. أحببتُكِ، لكنّ الإحساسَ لا يكفي، لا خيرَ في مشاعرَ لا يصدّقها العمل، وأنا لم أقم بشيء من شأنه أن يقومَ برهانًا على صدق مشاعري، منذُ ورّطتكِ فيّ وأنا أجرجرُ قلبكِ في دروب المحن، لا أكادُ أنتشلُ هذا الحبَّ من مستنقع آسنٍ حتى أقذفهُ في أرض سبخة، أحببتُكِ مثلما أحببتِني، لكنّكِ وقفتِ على هذا الحب كلَّ شيء، أمّا أنا، بعد أن خمدت حرائقُ هذه المدينة، وسقطت تلك الأشواكُ التي كانوا يرشقونَ بها ظهورنا، انسحبتُ إلى حروب أخرى، لم أنتبه إلّا بعد فوات الأوان إلى أنّها حروبٌ غيرُ ذات جدوى.

انسحبتُ بكلّي إلى اليسار وسحبتُكِ خلفي، جرّعتُكِ علقمَ النظام وتأذّيتِ ببطشهِ، سرق منك السجنُ لحملكِ والنّور، ثمَّ طوّحَ بكِ في المنفى سنتين، سنتين من الهبوط، وقبلهما زمنٌ ضاقَ فيه سياج واقعنا بقلوبنا فأدماها، وبعدهما كنتُ أكثرَ بخلًا حين باركتُ هبوطكِ بمزيدٍ من الهبوط والتلاشي..

بخيل كنتُ دائمًا...

ما إن استحكمتُ بنياطِ قلبِكِ، وآنستُ إلى أنّكِ ملكُ يميني، حتّى انسحبتُ إلى الحروب الزائفة، كنتُ بخيلًا في كلّ ما يتعلّقُ بالعاطفة، وحتى الجسد، سفكتُ دمَ البدايات (التي ترى فيها الشرقيّةُ الدُنيا وما فيها) وخلّفتكِ بعد ذلك نهبًا للحرمان وأيّام القحطِ، دون أن أمنّي انتظاركِ بوعدٍ، مجرّد وعدٍ بالزواج واستئناف البهجة.

الآن، على حافّة بحرٍ يرمي شباك موجه فترتطمُ بقدميّ دون أن يعود بي، أقولِ للكِ، كم كنتُ طوباويًا غبيًا حين لم أنتبه إلى ما يقوم بين أحلامي وواقعي من بونٍ، حملتُ في القلب حلمًا أخفّ من نكتةٍ متفحّشةٍ، وأردتُ به أن أفلّ حديد هذا النظام. حالمينَ أنا والرفاق كنّا وسذّجًا، حين أردنا أن نرفع عن المدينة أغلال الميرِ ونهبها الحريّة التي تستحقّ، شجّعنا ماركس، ماو، لينين، غيفارا... وكتبهم الحمراء على الحلم، فاقترفنا أجملها، وحلمنا بأن نربك كؤوس الكذب الزجاجيّة التي شكّلت بُنيانَ النظام بأوهام الثورة السلميّة التي كنّا نُمنّي بها النّفس، لم ننتبه إلى أنّ رصاصَ النّظام كان متربّصًا، وأنّه كان يعدُّ لأقدامنا الحافية بساطًا من الجمر، إلّا بعد فوات الأوان. ذرّ البعض خياناتهم على أعيننا، فسيّرنا النّظامُ إلى سراديبه المعتمة، هناك حيث أفنى في لحمنا أساليبَ تعذيبهِ الوحشيّة.. هذه الكلمات على شحّها قد تختزلُ حكايةَاغتصاب الحلم!

أحبّكِ يا جواهر.. لا أتعسّ منها كلمةً! اهترأت من فرط ما لاكها القلبُ دون أن يُسعفها يومًا فعلٌ، أحبّكِ، لكنّ الجبّة التي آوت الرّوح ما عادت تقدرُ على حملي، ولا عاد الدّربُ يمنحني الضوء. فلّ حديدُ النّظام صوانَ إرادتي، دكّ الجسد، وقصّ خيوطَ القلب، وهذه الرئةُ المتعفّنة التي أحملُها داخل قفص الصدر، تفسّخت وطفحت بدمها... أعلمُ أنّ حياتي بعد كلّ هذا الخراب الذي انتهى إليهِ جسدي لن تكون أكثر من خلاءٍ تدهكُهُ عجلاتُ الكرسي المتحرّكِ الذي يقلُّ عجزي..

أحبّكِ... ها أنا للمرّة المليار أقولُها، لا أملكُ غيرها كلمةً أذيبُ بها صقيع دواخلي، هي كلمةٌ أعرف أنّها لن تعيش أكثر ممّا أعيشُ، وأنّها حين

يستلمُ الموجُ جسدي سُسلمُ نفسها معي للموج ، وأنَّها ستتبدَّدُ مثلما تتبدَّدُ دوائرُ حصاة في بحيرة هادئة. أخطأتُ في متاهات الدُنيا إليكِ السبيل، سرنا معًا، وكان النضال ينتصبُ بيننا جدارًا، كان يجدر أن أقدِّرَ منذ البدء كلَ الاستحالات التي تشقُّ الهوّة بيني وبينكِ، وأهبكِ منذُ البداية السراحَ، بدل أن أغذّيَ عنتَ الرُوحِ بحلمٍ بليد لا ترسخُ له قدمٌ في الواقع؛ أن أجمعَ بينكِ وبين النضال...

لو كنتُ ذكيًا لتنازلتُ منذ البدء عنكِ، ولو كنتُ أذكى لتنازلتُ عن النضال لأجل عينيكِ، لكنني كنتُ غبيًا حين راهنتُ على كلَ شيء. من أراد أن يربح كلَ شيء، لا بدَّ وأن يخسرَ كلَ شيء.. أفلست حياتي، لكنني لستُ نادمًا على ذلك، كلَ ندمي أنَّني ورّطتُكِ معي في هذا الخبلِ، واستدرجتُ أيّامكِ في درب الخسارات، حتى أفسدتُ حياتكِ. كان حبّي يشينُ سيرتكِ في هذه المدينة العاهرة، كان سببًا في موتِ والدكِ ورحيلِ أهلكِ، في سجنكِ، في نفيكِ... في تحطيمِ قلبكِ..

البحرُ يمسحُ بلسانه بنطالي، يسكبُ لعابَهُ فوق قدميّ دون أن تعود بي أنيابه. على رسلك أيُها البحر، ستفوزُ بعظامي، فأمهلني عمر هذه الزجاجة وعلبة السجائر، أريدُ أن أسكبَ على مسمعيك ألمي لتعرف أيَّ جسدٍ مزَّ سيستعصي على أسماكك لحمُه، أمهلني أيُها البحر السكرةَ الأخيرة وعمرَ ما في العلبة من سجائر، لأسكبَ على موجك وجعًا خالصًا.

أمهلني، ولا تدفع موجك صوبي، لأنّي سأندفعُ بجنوني صوبك.أشتهي قبل أن أفعل، أن أمعن في خراب الجسد. هذا الخمر! أشتهي أن يذهب عقلي تمامًا، لا أريدُ أن أموت وأنا في كامل قوايَ العقليّة. العقلُ جبانٌ أمام الموت، والأفضلُ أن يغيب.. وهذه السجائرُ أريدُها أن تدفع السلّ، هذا الدودَ الذي يتزاحمُ في تجاويف الرئة إلى نهشها أكثر، أريدُ موتًا سريعًا وحاسمًا، أريدُ ألّا أبقيَ للموج منّي أكثرَ من ضربةِ الحسم الأخيرة.

غفرانكِ يا جواهر... سأدمي قلبَكِ مزةً أخرى وأخيرة، أعرفُ أنَّ الأمر سيتركُ في قلبك جرحًا فجًا، ستلعنين اليوم الذي زلَّ به قلبك في مستنقعي، وستعلنين أكثر من مرثيّةٍ، ولا بدَّ أن تنفقي في الحِداد عليَّ شهورًا، لكن بعدها، ستتخفّفينَ من وجودي في حياتكِ، سيعبُّ صدرك هواءً جديدًا، في أحسن الأحوال لن يبقى فيك من حبّي أكثرَ من ندبةٍ طفيفةٍ على سطح قلبك، ومقدارَ كمشة أو أكثر بقليلٍ من الذّكريات، لم أودع فيك سوى القليل ممّا يستحقُّ الحنين. ستبرئين لا بدَّ منّي... ولن أغدو أكثر من

وجهِ شاحبٍ يلوحُ من ثقوب الذاكرة من حين لآخر.

أفضلُ ما يقوم به مفلسٌ مثلي، أن يملّك الموج عظامه، أن يريح ويستريح! وحدها شجاعة ركوب الموج بعظام أثقلها المرض فصارت أشبه بمرساة سفينةٍ عملاقة، سيمحو حماقاتي وخطاياي، ويقيم نفسه الصواب الوحيد. الحقيقة، أنَّ الحياة توقَّفت منذ دخلتُ الزنزانة ٠٩، أصيبت بشللٍ فادحٍ، وعمري تحنّطَ، وكلُّ ما جاء بعد تغريبة الزنزانة ٠٩ ليس أكثر من تجديفٍ في الفراغ، ليس أكثر من تحريك القدمين في درّاجةٍ هوائيّةٍ فقدت سلسلتها، وما عادت تقدرُ على أن تهربَ بك أبعد من مكانك..

هنا... كوتد مدقوق على حافّة الموج أقف، البحرُ يهدرُ وتصطخبُ أمواجه، يمدُّ لي ألسنتهُ الباردة دون أن يعود بي.. أمهلني يا سيّدَ الغوايات، يا سيّد البدايات عمر ما في حوزتي من سجائر، وما في الزجاجة من ويسكي، ودعني أنزف في حضرتك بعض أوجاعي لتعرف أيّ إنسانٍ سيتقضّفُ بين أمواجك كقصب يابس، وأيّ لحم عصيّ سينداحُ بين أشداقك دون أن تجد لابتلاعه سبيلًا! مصيري أن أتدثّرَ ببردك وأنتفيَ في سوادك، لن يتفتقَ من ضلعي شراعٌ ولن تمتلئ بي الخيبةُ فأطفو. من حسنات الموت أنّه يشغل المرء عمّا سواه، لا يكون في الوقت متّسعٌ ليتهجّى المرء وداعًا شاحبًا أو يستعيد وجهًا عزيزًا. حين يكون الموت، فإنّنا نندفعُ فيه قبل أن يندفعَ فينا، نبادرهُ باستنزافِ قوانا ونحنُ نفكّرُ فيه، علَّ ذلك يخفّفُ أوجاعنا أوّل ما يناغي تعبَنا بضربة الحسم الأخيرة.

لم أكن سعيدًا، أنفقتُ جهد البدايات في حرب جواهر، قاومت حبّنا المدينةُ، وأضحينا مضغة سائغةً لكلّ الأفواه، كرةٌ من لهبٍ كنّا في هذه المدينة/الملعب، تتقاذفنا الأرجل، وبين شباكِ المسلمين وشباكِ اليهود تعفّرت حياتينا. معًا كنّا سببًا في خراب عائلتينا ونزوحهما عن المدينة. ولم نكد نروّضُ الحياة على الاستجابة لمطالبنا البسيطة، حتى شدّتني الكتبُ الحمراء بحبالها الغليظة إلى صهوة النضال، هذا الثور الهائج، وجدتُه يهتزُّ بي غاضبًا، ويحاولُ المرّة تلو الأخرى سحقي تحت حوافره، لكنّه بدل أن يفعل ذلك طوّحَ بي في زنزانة المير الجديد، مثلما طوّح بالمئات غيري، وكان يجدرُ أن أموت سجينًا أو تحت التعذيب، لكنَّ هذا الجسد، هذا القفص الطينيّ، بقدر ما تعذبني آلامهُ بقدر ما يبدي أمام الجلّاد رباطةَ جأش.في الأيّام الأخيرة، أحسستُ أنَّ الجدران الخشنة للزنزانة ٠٩ ليست هي سجني، بل جسدي هو السجنُ. فخٌّ قميء لا مناصَ منه، لا آلامهُ تهادنك ولا هو يستسلمُ لحفرِ الجلّادِ فيه..

ما يسخَرهُ الربُّ لنا قد يكون أكبر أعدائنا: الجسد. لا أسوأ من أن ينتصرَ جسدك لأعدائك، حين يحينُ الجدُّ تراهُ أكبر الخونة، وأوَّل من يشرعُ أمامهم أبواب هزائمك. ما نفعُ ثقافة المرء، ما نفعُ نبوغه ونضالاته، وما جدوى روحه الجامحة ما دامت لا تسندُ وقفته كي يسير إلى دورة المياه! لا أتعسَ من أن تعيشَ في قفص جسد يجبي من صبرك ضرائبهُ كلّ يومٍ، لا بدَّ من أن تشحنَ بطّارياتِ معدتك على نحو منتظم، لا بدَّ من أن تهبهُ راحةً يوميَّةً، لا بدَّ وأن تذهبَ به إلى المرحاض على نحو دائم، ناهيك عن إضراباته الموسميَّة وما قد يطاله من آفاتٍ وأمراض.. الجسدُ عالةٌ على الرُّوح، رديفُ الضعف والعجز في الإنسان. أودعَ الربُّ فائضَ روحهِ في أجسادٍ مبرمجة على الزوال!

أيُّها البحر الشقيّ.. بلّغ البهيَّة جواهر اعتذاراتي، قل لها يا بحرُ إنّي وإن أخطأتُ إليها الطريق لم أعشق سواها، ظللتُ أحملُها في القلب أجملَ واقعة حبٍّ، وأوْجَلُ سعادتها يومًا تلو آخر.. خبّرها أيُّها البحر أنَّ رحيلي ذبحةٌ في قلبها، أدري، لكن لا بدَّ منها، لتتخلَّصَ منّي.. قل لها يا بحر إنّي ما كنتُ أشتهي أن تحمل عجزي، لا أريدُ أن تنفقَ عمرها هدرًا وهي تدفعُ بي كرسيًّا متحرِّكًا، لا أريد لأيّامي أن تكون عالةً على حاضرها ومستقبلها.

قل لها أيُّها البحر إنّي حزينٌ جدًّا، وقلبي اهترأ وانفتحَ فيه أكثرُ من ثقبٍ، خبّرها إن شئتَ بما رأيتُ في غياهبِ السجن علَّ قلبَها يلينُ وتجودُ بالغفران، خبّرها بأنّي رأيتُ الموت يغمدُ بيارقهُ في أكثر من جسد، لم يحدث أن مرَّ يومٌ دون أن أرى الموتَ يذرعُ الزنزانة ٠٩، خبّرها أيُّها الكبير بأنّي من فرطِ ما رأيتُ الموت، ما عادت تنطلي عليَّ أكذوبةُ الحياة، وأنّي من فرطِ ما ضاقتِ بي الدنيا ما عدتُ أنشد غير الموت.

جواهر.. يا سيِّدةَ الدهشة ويا ربّة الحياة، صرعني الميزُ الجديد، ذاك الخنزيرُ البرّيُّ، لكنّي لم أوتَ حظًّ تموز لأموت، ولن تنالي حظَّ عشتار لتُنعشي عطبَ أيّامي بقبلةٍ... العالمُ السفليّ يفردُ ذراعيه لعناقي، وفي عناقه أرى انعتاقي. جواهر.. يا أكثر من إلهة حُشرت في جسدٍ بشريّ، أحبُّكِ، لا أشتهي بعد أفولي أن تسعي في طلبي، كلُّ ما أرجوهُ أن تجدي بعدي من يرمّمُ حياتك المتهالكة ويرفو قلبكِ المثقوب. الأيّامُ أمامك لا تزالُ رقراقةً، رغم أنّ بداياتها تأسّنت بوجودي...

سعال... سعال، أكادُ أسكبُ على المنديلِ رئتيّ، تخثرت حياتي مثل الدم في فمي، أبصقهُ في الموج الذي يلطمُ قدميّ، فيظلُّ عالقًا بين الماء وبين فمي، أستجمعُ الدم المتجلّطَ في الفم ثمَّ أبصقُه دون أن ينقطع، كأنَّ

في دمي توقٌ مبهمٌ إلى الماء، كأنَّ بين ملوحةِ الدم وملوحة البحر حنينٌ ما قديمٌ قدمَ الإنسان!! أكسحُ الدمَ في فمي بفيضٍ من الويسكي، ينزلُ حارقًا، فأصابُ بالدوار، تراهُ دوارُ البحر أم دوارُ الويسكي، وأيُّ حنينٍ ملغزٍ يجري بينهما؟ أترنَّحُ على الجرف، لكن سرعان ما أتماسك، أشتهي الموت سكرانًا دون ذلٍّ، أشتهي أن أقابل الموج هازئًا من الحياة، لا مدحورًا ولا خائبًا...

قلبي عليلٌ والهزيمة ليست هزيمة شخصي فقط، بل هي هزيمة جيل... ربَما يكون الناجون أقلَّ حظًا، لأنَّ الحياة لا تزال تضرب عليهم طوق استحالاتها، والذاكرة كلَّ دقيقة تنتح بفيضٍ معذِّبٍ من الأهوال والبؤس، المعذبون في الأرض هم من استبقتهم الحياة، ليحملوا في ذاكرتهم تلك اللوثة وذلك الألم الهائل، دونَ أن يستطيعوا البوح لشخص أو لمجرد ورقة تافهة.. منذورٌ للضياع الكبير من استبقتهُ الحياة لتمعنَ في خرابه، وتجرجرَ لحمهُ عرباتُ أيّامها على قارعة الحياة.

المحظوظونَ أسلموا أوجاعهم وتعبهم للمقابر الجماعيَّة، ناموا هانئين، والتعساء هم من انتدبتهم الدنيا للبقاء، كلُّ ساعة في جبة جسد مهترئ يعلنُ عليك فضائحهُ، ثقلٌ لا طاقة للإنسان به، وذلك الوحش الذي لا أدري أيَّ ربٍّ شحيح سلّطهُ على المدينة. كان يعرف بؤس شعاراتنا، وتلك السلميَّة التي كنّا نتشدَقُ بها، كان يعرف أنَّها لا تصنعُ الثورات بقدر ما تملأ السجون، جزٌّ الحركة النضاليَّة من تربة الجماهير الشعبيَّة وتركها تتعفَّنُ في مياه السجن الضحلة وتتآكلُ، كلٌّ ينشدُ الموت حين ينحتُ إزميل الآلام أعماقهُ، كلٌّ يطلبُ الخلاص ولا يجدهُ. كان ذلك الاغتصابُ الوحشيّ الذي قدَّ لحمَ السجناء جميعًا، كفيلًا بدحر أرواحهم، ودفعهم إلى حافَّة الموت، وكلّ تلك العذابات التي تلتهُ كانت مجرَّد فيضٍ لا يغذِّي إلَّا ساديَّة المير. الهزيمةُ وقعت حين استطاع أن يقترف الآثام، ويمزغَ أنوف الرجال في أوحالٍ كلّما تخبّطوا فيها امتصّتهم. صعبٌ أن يواصل المرء هذه الحياة وذاكرتهُ موشومةٌ بحادثة اغتصاب.

الميزُ الجديد يعرف كيف يقتصد الوقت والجهد، ويعرف أقصرَ الطرقِ إلى هزيمة الإنسان. تقول المدينة إنَّني الشخص الوحيد الذي لفظهُ السجن، بعضهم لا ينفكُ يردّدُ كما لو أنَّه يحدِّثُ نفسه «الداخل مفقود، والخارج مولود». الأمهات والشيوخ المسنّون تلبسُ وجوههم الحداد، وهم يسألون عن أبنائهم الذين ابتلعهم بحر المير، وأنا لا أجد في فمي كلمات عزاء مناسبة، أردُّ على أسئلتهم بالصمت، فتنقلبُ أساريرهم وتقدح أعينهم بشررٍ غامض، تغصُّ حلوقهم بكلمات إدانةٍ، أقرأ في أعينهم ذلك، وإن لم

تجد تلك الكلمات سبيلًا إلى أفواههم..

أنا، أيُها الطيّبون، من غرّر بأبنائكم، أنا ولفيفٌ من الرفاق الآخرينَ نتحمّل المسؤوليّة التاريخيّة في ما آلت إليه الأوضاع. لم أكن أؤمنُ بتلك السلميّة السمجة، وأرى في الحلّ الثوريّ الخلاص. كنتُ بدل أن أرصّ انتظاركم في طوابير طويلة أشتهي أن أهبكم دم أبنائكم طازجًا، ومعه وعدٌ بأنّ المستقبل سيكون أفضل، والحياة الرغيدة تلك التي طالما وعدتكم بها كان مقدورًا عليها لولا أنّنا أخطأنا إليها الطريق، كان لا بدّ من دمٍ يشخبُ في الطرقات، كان لا بدّ من رصاصٍ يعلنُ الثورة.

أيُها الطيّبون عذرًا، لقد غرّرنا بأبنائكم، وهذه حقيقة لا بدّ أن أكاشفكم بها قبل أن يعمّدَ بقاياي هذا البحر، نحن من زجّ بهم في فقص حلم أبعد ما يكون عن واقعهم، كان يجدر أن نوزّع مع الأفكار أسلحةً، وأن نصقلَ أجسادهم الرخوة ونحن نشحذ أذهانهم، أخطأنا إلى ما نريد السبيل، كان لا بدّ من ألف حربٍ وانتصار، كان يجدر بدل أن تصدح أفواهنا بالشعارات الجوفاء، أن يلعلع رصاصنا أمام رصاصهم «هزّ قدم وحطّ قدم الشوارع عامرة بالدم..» دمنا وحده من يملأ الشوارع، نبارك بشعاراتنا ما يفعلُه بنا النظام، كان لا بدّ من الاندحار لنزفّ للخونة، وباعة ضمائرهم، سدّة المدينة تحت قيادة المير.. فعذرًا أيّتها الأمهات الطيّبات، وأيّها الآباء الطيّبون، لا كلام لديّ يرمّمُ انتظاركم المتهالك...

جواهر.. يا وميضًا في باطن الرُوح، أحبّك، يا إكليل وردٍ فوق هذا القلب الخرب، فلتغفري. جفّت زجاجة الخمر والعمر جفّ، ما عاد فيه أكثر من سيجارة أخيرة. آه.. لا أتعس ممن يمتصُّ عمرهُ بصدرٍ منخور، لا أبشع ممن يدفعُ بنفسه إلى الهاوية، السيجارة عمرٌ أخيرٌ، أسحبُ احتراقها لئلّا تسحبَهُ الريحُ، أشتهي أن أستنزف العمر دون أن يكون لي في ذلك شريكٌ.

تلوح جواهر في دوخة آخر العمر، تلوحُ ملاكًا عذبًا أبيض، ملاكًا تضعُ فوق أذنها زهرَ الجلّنارِ، وفوق رأسها طوقًا من الفلّ والياسمين، ترتدي البياض وتمدّ لي يدًا من وهمٍ.. أودُّ لو أدركها، لكنّ أعطاب الجسد تحول دون ذلك.هيَ أخفُّ من ريشةٍ في نهارٍ رائقٍ، وأنا أثقلُ من وتدٍ دُقّ كاملًا في الأرض، هي توقٌ للأعالي وأنا انغماش في الأرض، هي فيض من الرُوح وقليل من الطين، وأنا كثيرٌ من الطين وذبالةُ روحٍ أشبه برأس سيجارتي تنسحبُ رويدًا رويدًا صوب الانطفاء، للموج أن يعرك بعدها جسدي كما يشتهي.. ما أتفهَ الإنسان حقًّا حين يموت!

كان الماءُ باردًا..

لم أكن لأنتعل جنون فيرجينيا وولف وأملأ جيوب معطفي بالحجارة، جسدي ثقيلٌ بما حمّلني الميزُ من خسارات، والأطلسيّ هذا الذي أسماه العرب قديمًا بحر الظلمات، ليس نهر أوس. داهمتني رعشة النهايات، اقشعرَّ بدني، عظامي خفيفةٌ، لكنَّ قلبي ثقيل يسحبُني إلى الأسفل، باعد البحر بيني وبين اليابسة، كذئب يسحبُ ضحيّتهُ بعيدًا عن الأنظار قبل أن يشرعَ في نهشها. كانت المدينة تبتعد، البحر يبثُّ في جسدي خدرًا، وتقف بي عرامة الدَّهشة على الذاكرة وانهياراتها الأخيرة، تبرقُ في سديمها ذكرياتٌ لا حاجة لي بها، وأخرى هي كلّ ما لا أشتهي أن أراهُ وأنا أموتُ، وأنا أقاومُ الموت. كلُّ موتٍ وإن سرنا إليه طواعيةً يولدُ في أعماقنا سيلًا من الخوف والمبهمات، تدفعنا إلى التعلّق بأهداب الحياة الواهية.. أحبُّكِ يا جواهر، لا أعرفُ ما وراء الموت. لكنّني أشتهي فرصةً أخرى، بدايةً جديدةً أتخفّفُ فيها من أخطائي الجسيمة، وأكون للكِ وحدكِ. لو يأذنُ لي الربُّ بميلاد جديد، سأسعى إليكِ، أينما كنتِ وسأبتني معكِ الحبَّ دون أنانيّاتٍ صغيرة، ودون حسابات الرّبح والخسارة، سأكون للكِ وحدكِ. ليكسوس أرضٌ عقيمٌ، وكان يجدر أن نهجرها إلى أقرب منفى، وأن نحبّها بعد ذلك كما نشتهي ونُفنيَ في مديحها كلَّ القصائد.. هذه الأرضُ السبخةُ لا تقدر على إنضاج حلم تافه؛ كأن نهجع دون أن يزعجَ نومنا وقعُ الأحذية العسكريَّة، وهي تدهكُ الأزقَّة ليطمئنَّ قلب ربّها الصغير..

فلتغفري يا سيّدة البهاء.. سأفجعُ قلبَكِ، لكن لا بدَّ أن أفعل. لي أكثرُ من عذرٍ، فليتك تتفهّمين! وليت قلبكِ، يا سيّدة القلب، يلين..

الرسالة (١١)

من جواهر إلى سيمون

شتاء ١٩٧٥

«كلّ قصةِ حبٍّ عظيمة لا بدَّ وأن يحمِلَ طرفاها في أعماقهما الأسباب التي ستعصفُ بها؛ كنتَ تُشركُ بحبّي نضالاتكَ وكلَّ غضبِك وأنا.. أنا يا حبيبي، كنتُ حبلى بشيطان رجيم، غيّبهُ في غياهب الذات الأشدَ حلكة حبّكَ الرائع. فاغفر أيُها الكبيرُ هبلي، اغفر خياناتي الجمّة، كنتَ بعيدًا وحبلُ الوفاء قرضتهُ الشهورُ العجاف والخيبات التي تفترعُ في الأضلع كلَّ يومٍ ثقبًا فجًا.

كنتُ معدّةً لاقتراف تلك الشنائع، والفتق. فتقُ الطفولة ربّى النَّفسَ على كسرِ شغلني عنه حضوركَ، ولفتَ انتباهي إليه غيابُكَ، ذلك الحدثُ الدامسُ الذي اعتورَ الطفولة لم أبرأ منه، حملْتهُ كسرًا في أعماقي، وحين تخلّيتَ عنّي، وجدتُ غوايةَ قاسم تنكأ الوجع و«هيبيّاتهُ يضعنَ أصابعهنَّ على الجرح»، انحرفتُ جهة السَّوادِ لأنَّ لاوعيي كان يستبطنُ جرحًا نفسيًا بالغ الضراوة، وحدكَ كنتَ قادرًا على ترويضه.. حين تغيّبتَ عنه طفح بموبقاته.

أحبُّكَ لا بدَّ أنّني أتفهُ من ببّغاء وأنا ألوكُ هذه الكلمة وأعلمُ أنَّ المستحيل يقفُ بيننا، موتي مسألةُ وقتٍ لا غير، لكنْ أشتهي أن يكون الموتُ كريمًا، ويحسمَ أمري قبل انبلاج قطعة اللَّحم التي أحملُها في بطني، لا أريدُ أن أحمّلها فوق ما تطيق، لا أسوءَ من أن يفتح الواحدُ عينيهِ على دنيا يكون مستهلُّها أفولَ تلك التي جاءت به للدُّنيا! لا أشقى على المرء من أن تقترنَ بدايتُهُ بنهاية أمّه، وأسوأ من ذلك أن تطويها الأجداثُ وفي جيوب قلبِها السريَّة مفاتيحُ أسئلةٍ لا بدَّ وأن يكابدها العمر كلّه.

كأنّكَ كنتَ تعاقبُ في ليلة النهايات الحياة قبل أن تهجرها، أمعنتَ بالسجائر في خراب صدركَ، أغرقتَ قلبَكَ خمرًا، ودفعتَ بجسدكَ إلى السرير، مارستَ الحبَّ بخشوعٍ، لربما كنتَ قد أبرمتَ صفقَتكَ مع الموت، فأمهلكَ رويدًا لتبالغَ في استنزاف الحياة ومعاقبَتها، عاقبتَني بكرمكَ مثلما عاقبتها، معًا دشّنًا في ظهركَ أكثر من نزفٍ وخيانة، معًا استنزفتَ في حبّنا ذبالةَ النور في قلبِك.

نم يا حبيبي، فغدًا أو بعد غدٍ لنا لقاء..

نم، ولا تستجدي السَّماء مفاتيحَ ما فاتكَ وأنتَ في غياهبِ السجن، دع عنكَ معمّيات الدُّنيا وأسرارها، وانتظرني بذاكرةٍ عذراء لا غيبَ أنبتَ فيها حرائقَ ما لستَ تدري... نم يا عمري، ودع عنكَ سرّي وأقفالهُ».

قاسم

٠١ ٠٣ ١٩٩٦

الزنزانة ٠٩

انتظارُ الموتِ أسوأ من الموت، وعقوبةُ الإعدام تؤسَنُ نهايات المرء، لأنَّه يعرف أنَّه يسيرُ صوب النهاية، ويعرف أنَّ كلَّ دقيقةٍ تمضي معناها أنَّ الموت يزحفُ أكثر صوبه، لا أقسى من أن يسيرَ المرء إلى موته! سعداء من تقدُ وقفتهم رصاصةٌ غادرةٌ، أو سكّين صقيلٌ، المغدورون بالموت والمرضى والعجائز كلّهم محظوظون، إمّا لأنَّ الموتَ باغتَ حيواتهم من حيث لا يعلمون، وإمّا لأنَّه هادن أوجاعهم، ودون أن يشعرهم بذلك قطف حيواتهم.

لا أتعسَ ممَّن يسحبُ بكلّ دقيقةٍ يهدرُها الموت نحوه! والقضاة إن صدق ما حكموا به، فاليوم موتٌ، انتظارُ هذا اليوم نهشني كثيرًا، لكنَّ اليوم أحسُّ كما لو أنَّني تخفّفتُ.. القلقُ خفَّ والجسدُ خفَّ، لكنَّ لا شيء يشي بأنّي على موعدٍ مع الموت. دُفعَ إليَّ صباحًا بصحن الأكل، لكنّني لم آكل منه، لا أريدُ أن أموتَ وفي بطني حفنةُ خراء!

الحياةُ كلبٌ أجربُ لا ينفكُّ يلهثُ خلفك، حتى إذا استدرتَ تطلبهُ جفلَ وولّى هارباً.. وأنا لا أستحقُّ الموت، أعلم، لكنّني كذلك أعرف أنَّه لا شيءَ يمكن أن يحول دوني ودونه.. أنا ربُّ هذه المدينة، ربُّها المخلوع، وأعرفُ أنَّ دمَ الضحية قد سُفك بمجرَّد النيَّة في سفكهِ، قيل بأنَّني سأموتَ اليوم، لكن لا شيءَ يشي بذلك، تراهم يريدون مباغتتي أم أنَّ نبوءة العرّافِ تستبقيني رويدًا؟! البارحة، حين سألني السجّانُ إن كنتُ أشتهي شيئًا قبل أن أموت، أجبتُ بحسم: أريدُ لقاء طبيبتي النفسيَّة، الدكتورة ليلى. انفلقت شفتاهُ عن ابتسامة كما لو أنَّها مغصوبةٌ، غزلت عيناهُ بريقًا مبهمًا، ثمَّ قال: هي أيضًا تطلبُ رؤيتك... عسى أن يأذنَ الجنرالُ بهذا اللّقاء، ومضى.

قال القاضي إنّي سأموتُ رميًا بالرصاص، كنتُ أشتهي ميتةً حاسمةً، وها قد حصلتُ عليها. كنتُ أخاف من ميتةٍ تمرّغُ أنفي في التراب، حكمتُ المدينة بقبضةٍ من حديد، ولا أطيقُ تشفّي الآخرين بي، ثمَّ إن أبي قد مات مثلي رميًا بالرصاص، والذي قرّر لي هذه الميتةَ لن يكون غيرَ مستر هارفي، يعرف تاريخي جيّدًا، ويريدُ أن يبالغَ في نكء الجرح الفجّ الذي افترعهُ في أعماقي الغزاة، يريدُ بذلك أن يقول إنَّه لا مفرَّ من الحكاية التي غزل بمكر حبكتها: صبيًا دفعني إلى كسر عظام أسلافي من الجردان التي

لم تستجب لتجاربه على جروف البحر الناتئة، وبعدها زرع في الذهن ما يحرّضني على فلقِ دبرِ المير السابق، وها هو يحرّضُ عليّ آلتهُ الجديدة، وينتقي لي من الذاكرةِ القصيّةِ ميتةً تختزل عذاباتي.

أبي، يا أبي..

ما كان يجدر أن تموت، ما كان يجدر أن تصمَّ أذنيك عن تحذيرات أمّي وخوفها، ما كان يجدر أن تستبدَّ بك أنفةُ أجدادك الغابرين، وأنتَ تواجهُ مفردًا جيشًا مدجّجًا بعتادٍ قاتل. كان الرحيل مهنتك الأثيرة، فلماذا لم تجد فيه مندوحةً عمّا ورّطتنا فيه جميعًا!؟ أبي ما كان يجدر أن تقف أمام جيشٍ يحفلُ بقطيع غنم أكثر مما يحفلُ بحيواتِ أسرة كاملة. أبي، كان أفضل أن تجهزَ علينا قبل أن تخرجَ إلى حربك، استبقيتنا لنشهدَ موتك ونُزَجَّ بعدك في الجحيم.. تركتَ الخيمة محتزبًا بندقيّتك، تركتَ الخيمة كأميرٍ يخرج إلى حرب مضمونة.. لم تلتفت إلينا، لم تنبس ببنتِ شفَةٍ، خرجتَ إلى جيشٍ أخضر يطمسُ بياض الثلج وحيدًا.

أعرف أنَّ لجذورك تاريخًا من الحروب، أعرف أنَّ الموتَ أهون حين يتعلّقُ الأمر بشرفٍ يعفّرُ، أعرف أنّك لا تهابُ الموتَ، لكنْ لم تكن حكمةً يا أبي أن تهبَ نفسك للموتِ مجّانًا، وتدفعَ معك أروحنا قربانًا لتلك الأفكار التي شحذتْ ذهنك زمنًا. ليس عيبًا أن يجبُن المرء أحيانًا، الجبنُ حين يطلقُ زغاريدهُ في روع المرء هو حيلةُ جسدٍ يرى نفسهُ على أشفاء موتٍ مؤكّد، الخوف حكمة الجسد حين يتخلّى عنه صاحبهُ في المآزق الصعبة. لكنّك أبطلتَ مفعولهُ باعتدادك المبالغ فيه بنفسك وبحكمة الأجداد.

مثلك، سأموتُ يا أبي، لا أشتهي الموت ولا أشتهي أن أهبهُ لحمي، ولو كنتُ مكانك للذتُ بالفرار، سأكونُ سعيدًا لو تعضّ الظهر رصاصةٌ غادرة، سأموتُ وفي النّفس أملٌ في الحريّة والبقاء. أمّا الآن، فالرصاصة التي ستقتلني سأكونُ على مرمى نيرانها، سأراها وهي تسافرُ صوبي، ولكم ستكونُ تلك اللّحظات التي تسبقُ وصولها إلى جدران الجسد قاسيةً، ولكم سأتعذّبُ وأنا أراها تشرعُ فيّ خندقها! أعتقد أنَّ أكثر ما في الأمر إيلامًا هو التفكير، أسوأ ما في الإعدام أنّك في كلّ جزء من الثانية تعي أنّك ستموت؛ وذلك الهلعُ النفسي والاستنفار العقلي أكبر بكثير من قبلة الرصاصة على الجسد، بل وذلك القلقُ الذي يعتصرُ صاحبهُ شهورًا قبل الإعدام أكثر ضراوة من أيّ شيء عداه.

كان جبنًا صريحًا أن أهَبَهُم أمام فوّهة المدفعيّة ذلك الاستسلام البارد، كنتُ ضعيفًا. الإنسان حين يضعفُ يجبن.. كان الموتُ هناك ليكون

أهون من الإعدام، الجرحُ الذي أشرعتهُ الرصاصةُ في كتفي سرقَ منّي الكثير من الدم، وكان ليُنوّمَ كلَّ أوجاع الموت لو أنّني تماسكتُ وأبديتُ رباطةَ جأشٍ، ولم أتعلّق كطفل صغير بتلابيب الحياة.

آه.. هارفي كلارك مسكونٌ بحلم ربوبيّة يبزُّ به الربّ، يسير إلى ما يريد على الجثث، الغايةُ النبيلةُ تبرّرُ فساد الوسيلة، يقول. هارفي كلارك ليس أفضل من ملاك الموت, جوزيف منغلي ذلك الطبيب النازيّ الذي ساق إلى مختبراته أكثر من ثلاثة آلاف طفلٍ، ولم تلفظ منهم سوى مائتي ناجٍ, مثلهُ انتعل مستر هارفي جنون الدُّنيا وقرّرَ أن ينشر على أسرّته الطبّيّة, عددًا من الأطفال، وحدهُ الربُّ يدري تعدادهم. الفرقُ بينهما أنّ الأوّل كانت تجاربُهُ شوفينيّة تحاول بطريقة أو بأخرى أن تؤكّدَ تفوُّق العرق الآريّ عمّا عداه, أمّا هارفي، فلم يخرج عن النسق الإجراميّ، لكن على مشجب «مستقبل الأم أوروبا». كان يعلّقُ أعذارهُ، وصراعُ الحضارة كان يلهمهُ الذرائع.

هارفي كلارك ليس أفضل من يوجين سينجر, هذا الأميركيّ الذي قامَ بإيعاز من البانتغون الأميركيّ بتجارب تسليط زهاء العشرين ألف دفعة أشعّة على ثمانية وثمانين إفريقيًا، فقط للتعرُّف على أثر الإشعاع النوويّ على البشر, مات ربعهم ليوشّحَ القاتل في ما بعد بالميدالية الذهبيّة، ويكرَّمَ خير تكريم!

في سنة ١٩٣٢، سيقَ إلى مقاصل التجارب الدمويّة في توسكيجي في ألاباما الأميركيّة الكثير من الزنوج من أجل أن تكون أجسادهم حقلًا لتجارب مرض الزهريّ, تجارب أزهقت أرواح ثمانية وعشرين زنجيًا، وأودت بشكل أو بآخر بأكثر من مائة آخرين إلى حفرة النهايات.

وفي الثلاثينيّات والأربعينيّات، دشّن الأمبراطور الياباني حربَهُ البيولوجيّة التي راح ضحيّتها أزيد من مائتي ألف شخص، تمّ العبث بحيواتهم على نحو ممنهج, بتعريضهم للكثير من الآفات في إطار ما يعرف بالوحدة (٧٣١)... لهذا الخبل تاريخ، تاريخ من الجنون, ما كنتُ قبل أن تنتعش الذاكرة أشعرُ أنّني معنيٌّ به, إحدى خديعات النّفس أنّنا لا نستشعرُ عمق مأساةٍ ما إلّا حين نكون معنيّينَ بها بشكل أو بآخر!

قيل إنّ اليومَ يوم إعدامي، لكنْ لا شيء يشي بهذا، لو فقط يستجيبُ الجلّادُ لأمنيتي الأخيرة، ويهبني اللّقاء الذي أنشده بليلى، أريدُ قبل الرحيل الكبير أن أهبَها مفاتيح حياتها، لم أكن أريدُ أن أفسدَ أيّامها، لكن الآن، سأموتُ ومعي ستموتُ حقيقتُها. أعرفُ أنّ الأمر بالغُ الإيلام،

وأدري أنَّني سأنفثُ في روحها حريقًا قبل أن أمضي، لكنْ هذا أفضل من أن أبقي في قلبها جمرةً تنخرُ فيها كلَّ جميل. آه، يا ليلى.. لو تعلمين أنَّني أنضجُ لكِ فضيحةً، لا بدَّ وأن تعبثَ بروحك كثيرًا.

قال السجَّانُ وهو يضع الغداء على الأرض: اللَّيلة سأموت، قالها ببرودٍ، كأنَّه ألفَ أن يقولها. سألتُ إن كانوا سيأذنون لي بلقائها، فكان الردُّ حاسمًا «لا أدري»، وجلجلَ الباب بعد أن سحبهُ بقوَّة. لم آكل، وفي اللَّيل، قيل لي تأجَّلَ الإعدام إلى صبيحة يوم غد، ومن لحظتها بدأت اللُّعبة، كنتُ أعرف تفاصيلها، لأنَّني كنتُ سيِّدها: تجويع المحكوم بالإعدام للموت، طريقةٌ تدفعُ المعنيَّ بها إلى التآكل، وتزرعُ في ظنِّه وسواسًا ينخرُ تفكيرهُ، ويجعلهُ في حالة استنفارٍ دائم. بكيتُ ذلك اليوم، بكيتُ مثل الصبيِّ الصغير الذي كنتُه، مثل الصبيِّ الذي **يواجهُ بعجزه** استغاثات أمّه، وأولئك الرجال الخشنون يتناوبون عليها. ضجّت بقلبي الفجيعة، حين أدركتُ أنّ ذلك العجز القديم، والحذاء العسكريّ الثقيلُ يكاد يزرعُ رأسي في الثلج، قد استأنفَ من جديد.

أشتهي موتًا يخرسُ طنينَ هذا الوسواس في رأسي، ويستوقفُ دفقَ الذكريات الآسنة.. أشتهي السلام الأبديّ، عشتُ ظالمًا ومظلومًا، عشتُ دور الجلَّاد مثلما عشتُ دور الضحيّة، أعتقد بثقةٍ أنَّني كنتُ ضحيّةً أكثر ممّا كنتُ جلَّادًا. تقول الإحصاءات إنَّي دفعت للموت أكثر من ألفي روحٍ، لكنّني بريء منها براءة الذئب من دم يوسف، الرأسُ كان محشوًا بأفكار دخيلة، لم أكن سيِّد نفسي لأقتلَ أو أمتنعَ عن القتل، مدفوعًا كنتُ إلى كلّ تلك الجرائم، حتى تلك الفضائح الجنسيَّة لربّما كانت أعراضًا جانبيَّة للتجارب التي كنتُ ضحيَّتها، ما اقترفتُه من بشاعات جنسيَّة، لم ترتبِهِ فيَّ العلاقات غير السويَّة التي دشّنتُ بها الجسد وحسب، بل كان للأمر تاريخ غائر في النَّفس، شديدُ الصلةِ بجوزفين، تلك التي بشذوذ طبعها ربّت في أعماقي شذوذًا، وجعلت حياتي الجنسيَّة لا تستقيمُ دون اغتصاب... طبعًا وجدت في طريقي من يشجِّعُ هذا وينسيني ما اعتورَ نفسيّتي من فتوق، إزميرالدا أوَّلًا، ثمَّ فيلقُ الهيبيَّات المجنونات.

وحدها جواهر، سيِّدة القلب وحارسةُ شراييِنه، من لم آخذ اغتصابًا. شاءَ القلبُ أن تكون أروع استثناء، وأجمل حادثة حبّ تتوَّجُ بحالات تبتُّل جسديَّة غامضة. ربعُ قرنٍ وأنا أجثمُ على صدر هذه المدينة، ربعُ قرنٍ وأنا أستودي رجالها إلى حفر الموت، يساريِّين كانوا أو إسلاميِّين، لا فرق عندي، كلُّ من يهزُّ رأسهُ يجد في انتظاره الأجداث.. ونساؤها!! ربعُ قرنٍ وأنا على

حوافُ السَّرير أسفكُ دماءهنَّ وأنشر أجسادهنَّ عاجزةً تتدثَّرُ بالخيبةِ، مثلما أنشرُ على أجسادهنَّ خارطةً من الندوب والكدمات، لم أكن أنا، لم أكن في أنايَ بما يكفي لأكفَّ عند ذلك الخبلِ، كانت لي حالات أنطفئ فيها أو أكاد، حالاتٌ يضمرُ فيها وعيي، يضمرُ فيها «أنايَ» مفسحًا المجال للوحش فيَّ. هارفي كلارك، كان يقول لي إنَّ الأمر فصامٌ.. الدكتورة ليلى التي كادت أن تكون ضحيَّتي قالت إنَّ الأمر فصامٌ! كنتُ مدفوعًا بمشيئة أورام مفخَّخة في نفسيَّتي إلى كلِّ تلك الآثام، ولأنَّني كنت فرعون المدينة وإيفانها الرهيب، لم أجد من يزجرُ فسوقي، ويحول دوني ودونهنَّ، في كلِّ بيتٍ من بيوت هذه المدينة فقيدُ ومغتصبة! في ربعِ قرنٍ قتلتُ المئات، واغتصبتُ عددًا من النِّساء كلَّما حاولتُ عدَّ أخطأتُ، خمسمائة وعشرون منهنَّ فقط وثَّقتُ لحظات اغتصابي لهنَّ في أشرطة!

سأل المحامي مرارًا عن السرِّ وراء حرصي الزائد على توثيق تلك الجرائم في أشرطة، سأل واستحثَّني على الجواب علَّ ذلك يخفِّفُ الحكم من موتٍ شاقٍّ إلى موتٍ أقلَّ شقاءً. وفي السرِّ قلتُ: ألم تفكِّر في سبب حرصي على أن أغلِّفَ غرفةَ نومي بالمرايا؟ الكسرُ في النَّفس كان قائمًا منذ الطفولة. صحيحٌ أنَّ هارفي كلارك طمرَ ذاكرتي، لكنَّ كانت تصلني منها رسائل مشفَّرة. اغتصابهنَّ كان انتقامًا لعجزي أمام جوزفين، تلك التي ربَّت في النَّفس اعوجاجًا حادًا، على ذلك الكرسيِّ الخشبيِّ البارد الذي يشدُّني إليها، كان يقدحُ شهوتي، بأصابعها كانت تُنضجُ عنفواني، حتَّى إذا انتصب الجسد كاملًا دفعتني بالأصابع نفسها إلى ارتكاسٍ موجع؛ وأنا في مستنقعها الضحل، كنتُ أشاهِدُني في الشاشة المقابلة **كأنِّي غيري**، كان النظر إليَّ وأنا في عزِّ الشهوة إمعانًا في اللَّذَّة، وكان النظرُ إلى تلك الشاشة وشهوتي تنكسرُ وتضمرُ مبالغةً في الخزي. أدمنتُ تصويرهنَّ، أدمنتُ المرايا التي تحفُّ بشاعاتي، لأنَّ هرسًا بالغ الفداحة كان ثاويًا في الأعماق السحيقة، وكان الفصامُ نافذتهُ الوحيدة على واقعي.

اغتصابُ هذا العدد من النساء على مدار أزيد من ربع قرن جريمةٌ ضدَّ الإنسانيَّة، أعترف صاغرًا بهذا، لكن أرفض أن أُدانَ بهذه الجريمة فقط.قَتَلتُ من الرجال أضعاف عدد النسوة اللواتي نحتَ إزميلي أرواحهنَّ، وأستحقُّ أن يخلِّدني التاريخُ قاتلًا وسفَّاحًا على أن يخلِّدني جنرالًا مهووسًا بالجنس. أرفض مغالطةَ التاريخ، إذ يستحضرون الآثام الفادحة، وعن سبق الإصرار يهملونَ الآثامَ الأفدح.

«لن تموتَ اليوم، لكن غدًا..»

قالها سجّانٌ وضيعٌ، كان للأمس القريب يلمّعُ أحذيتي بلسانه. أغمدَ فيّ الجملة وولّى هاربًا، نكأ في أعماقي عجزًا منسيًا، جرّحَ قلبًا أتعبَهُ انتظار رصاصة الموت! لن أموت اليوم، يريدونني بمديةِ الدقائق والساعات أن أنذبح أكثر، يريدونني أن أستبقَ فناء الموت الجسديّ بانتحارِ نفسي.. يعرف المستر هارفي خارطة روحي جيّدًا، ويعرف كيف يدفعُ كرسيّ قلبي المتحرّكَ إلى حافّة الموت، يعرف آلتهُ التي تمرّدت عليه، يعرف مغاليقَ روحها، كما يعرف طريقةَ إخراسها.

أخطأتُ إلى الانتقام السبيل، كان يجدر أن أهادنَ السيلَ الهادر الذي اندفع من جوف ذاكرتي، وتلك الحقائقَ التي اندلعت فيّ حرائق، ما كان يجب أن أتركها تسرق اتّزاني وتخلّفني مجنونًا يحرنُ في كلّ الوجوه ويلعنُ الدُنيا، كانت مهادنةُ الحريق ريثما أستعيدُ بوصلة التفكير السديدِ أمرًا ضروريًا، وكان يجب ألّا ألفتَ انتباهه إلى أنّني اندفعتُ من ردم النسيان رجلًا كامل الذاكرة، حتى إذا وقع بين يديّ جرّعتُهُ من المرّ الذي جرّعني، وأشرعتُ في شيخوختهِ ألف ثقبٍ بحيث لا يجمعَ مزّق جسده سوى الكفن!

حزينٌ، لأنّ الحكاية ستموت معي، ولن يعرف النّاس، لن يعرف النّاس البسطاء الذين كنتُ أسحقهم أنّ من كان يحكمهم خائنٌ جاء إلى البلد متأبّطًا أجندة أجنبيّة، لن يعرف البسطاء أنّني لم أبالغ في دمارهم إلّا استجابة لحشو من الأفكار، التي وأدها هارفي كلارك في رأسي، لن يعرفوا أنّني لم أكن أكثر من كركوزٍ تحرّكهُ في الخفاء الأيادي.. خائنًا كنتُ مثلما كان الميرُ السّابق، ومثلما سيكون من جاء بعدي. نحن لسنا أكثر من امتداد لأمبرياليّة زعموا أنّ الوطنَ تخلّص منها... الحقيقة ستموت معي، والحياة لا بدّ أن تستمر، السفن تُسرجُ كلّ يومٍ خيرَ هذا البلد إلى الشمال، والجنرال ينذُ كلّ ثورة في مهدها، والبسطاء المعدمون سيواصلون تدحرجهم الصعب في منحنيات الحياة الشائكة، كلٌّ يطلب قبرًا يأويه... في وطنٍ يسرقُ منه كلّ شيء، ويحقلهُ بعد ذلك ما لا يطيق، حتى إذا ناءَ الطهرُ بأحمالهِ وجد الضيمَ والفقر والأيادي الخشنة تدفعهُ حيًا صوب حفرة المنتهى..

بإعدامِ إيفان الرابع، سيموتُ السرُّ الذي كان من الممكن أن يكون مشاعًا، لولا أنّني أصختُ السمعَ لتقصف الرُوح أكثر ممّا ينبغي.. المؤامرةُ الحضاريّة الكبرى ستستمرّ، أسقطوا صنمًا ووضعوا بدلًا منه، صنمًا وتستمرُّ الحياة.. ما دامت رياحُ الشمال تهرب بخير البلاد، فالأمور تسير على ما

يرام.

لن تموت اليوم، لكن غدًا. وحين حلَّ الغدُ المنشود قيل غدًا تموت. الأيّام كانت تسير بي صوب نبوءةِ العرّاف، تُرى! أتصادقُ الدُنيا على كلامه؟ ذلك الشَّيخُ اليابس كجذع شجرة معمّرة. أشتهي الموت في أقرب يوم ممكن، لا طاقة لي بعمرٍ إضافيّ، لكن إن كان لا بدَّ من أسبوعين إضافيّين ليختمَ الجلّادُ على نبوءة العرّاف، فلا مانع لديّ، على الأقلّ سأعلّقُ على مشجب الغيب سيّئاتي..

لو فقط يأذنُ الجلّادُ بلقاء أخير مع ليلى، أريد أن أذرف في حضرتها سرَّ الأسرار، أريد أن أهبها الحقيقة التي استجلَبتها إلى هذه الأرض اليباب، أريد أن أكافئ بالألم الكبير صبرها عليّ، وفكّها لطلاسم شخصيّتي.. أعلم أنّني سأدمي قلبَها مثلما أدمت قلبي، إذ أيقظت تاريخي، سأهبُها مفاتيح ماضيها ما دامت ملحَّةً! أعجبُ من الإنسان... يطلبُ فكَّ تشفير ماضيه، حتى إذا اندفع التاريخ من قمقمه ماردًا لا سلطانَ لهُ عليه، وجدتَه يعضُّ على أصابع الندم قائلًا: ليتَ الذي كان ما كان.

ليلى.. أدينُ لكِ باعتذار كبير. قاسيةٌ بحقٍّ هذه الدُنيا، تلفظُنا إلى مسرحها الكبير، تحمّلُ كلًا منّا فوق ما يطيق، وتزجُّ بنا في تناقُضاتها، ثمَّ تستدرجُ خطواتنا بمكر صوب فخاخ الصدفة، ترخي أزمّتنا حتى إذا آنسنا إلى حريّتنا، سحبتنا صوب ارتطامات قدريّة عنيفة، لم أشأ أن أفسدَ حياتكِ بهذه الحقيقة المرّة، لكن، أحسُّ الآن، أكثر من أيّ وقت مضى أنّني مطالبٌ بأن أعتقَ ماضيكِ من مقصلة النسيان. وحدي أملكُ حقيقتكِ، ولا أريدها أن تموت معي مثلما ستموتُ معي مئات الحقائق.

أخبئ لكِ في القلبِ عبوةً ناسفةً!

أعلم أنّه لا يليقُ بي أن أودّعك بانفجار، لكنْ شاءت الحياة ألّا أماطل مزيدًا من المماطلة، نضب معينُ العمرِ وجفّت الأيّام، والأفضل أن أضع بين يديك بريد القيامة والرصاصة، رصاصة الرحمة.. وليكن ما يكون. كان يجدر مذ التفتُّ إلى الأمر أن يكون لي معكِ شأنٌ ثانٍ، لكنّني لم أكن ملء نفسي، لم أكن أنا في هذا الجسد وحدي، كان الشيطان يزاحمني، وفي كثير من الأحيان يقتادُني صوب ما لا أشتهي.

ليلى...

الدُنيا على ما تبديهِ من شساعة ضيّقةٌ، ضيّقةٌ كأنّها أثرُ مسمار في الجدار، شاءت بعد عمرٍ من التيه أن تعلّمني ألّا أحد يتمرّدُ على نصِّ ألصقَهُ

الربُّ في ظهره. وبمآزق الصدفة، ها هي تعلّمني بأن لا فكاكَ من بطشها بنا، بأيّ وجه سأقابلُك، وأيُّ كلام سيسدُّ خندق الأسى الذي سأفترعهُ في قلبك، ما كان يجدر أن تسير الأمور على ذلك النحو، ما كان يجدرُ بشيطان فصامي أن يحرَضني عليك!

ترى، أأستطيعُ أن أقول لها إنَّ كلَّ ما كنتُ أبكيهِ من كلام كنّا شريكين فيه؟ ترى، أتفهمُ أنّها معنيةٌ بالحكاية أكثرَ منّي؟ تراها تصدّقُ أنَّ تاريخي المضمَّخ بالخيانات والبؤس والآثام يعنيها؟ ترى، أتستسيغُ ورطتَها في مآزق ماضيّ؟ وكيف ستنظرُ لهذا الرجل الذي تستمهلهُ الرصاصة ريثما يضربُ على خصرها الحزامَ الناسف؟

من أين أبتدئ الحكاية، وأيُّ بلاغةٍ تلزمُ كي أقول لها الحقيقة دون أن أصيب أعماقها بذبحة؟ حزينٌ جدًا، لأنّه كان يمكن أن أرمّمَ ماضيها على مهلٍ، وآخذها رويدًا رويدًا، كلمة هنا وأخرى هناك، حتّى تكتمل الحقيقة في داخلها بأقلِّ قدرٍ من الخسارة... الآن، لا بدَّ أن أتجرَّع مرارتها وأنا أفارقُ الحياة، لابدَّ وأن تكون نظراتها المكسورة آخر ذكرى تسحقُ القلبَ ودموعها لا بدَّ وأنّي سأغرقُ بها.. حزينٌ لأنّني سأنفقُ أمنية المحكوم بالإعدام الأخيرة في شطبٍ آخر.

ثمَّ أيّ الكلمات ستقول حقيقتها؟ وهل تلك الدقائقُ الشحيحةُ التي سيأذنُ بها الجلّادُ كافيةٌ حقًّا؟ هل أستفيضُ في الحكي أم أقتصدُ استجداءً لغفرانِها؟ وهل سيتّسعُ المقامُ لغير الفجيعة؟! سأقول لها ببساطة إنَّكِ **تضعين في أذنيكِ أقراط أمّي!** ثمَّ أسكتُ. لا بدَّ من صمتٍ نتخبّطُ فيه معًا كغريقين... تلك الأقراط التي هرّبتها يدٌ مجهولةٌ إلى جيب الطفولة، كانت لا تزال مضرَّجةً بدم أمّي! تلك الأقراط الأمازيغيّة الأصيلة سافرت معي (لا بدَّ أنَّ ذلك كان جزءًا من خطّة المستر هارفي)، وكانت شاهدةً على تغريبتي بين ثكنات المستعمر وفي تلك الجزيرة الصغيرة المتاخمة للقارة العجوز، حين صحوتُ في السَّفينة بذاكرة عذراء، كانت الأقراط تنام في الجيب، لم تكن تنكأ في الذاكرة أيَّ وجعٍ، فقد طمرَ مستر هارفي كلَّ ما فيها. وحين بطش بي حبُّ الجميلة جواهر، قرّرتُ أن تكون تلك الأقراط هديّتها الأولى، هكذا هرّبتُ إليها دون أن أدري تاريخي، وحين أسلمت تلك السيّدة طفلتَها ومعها الأقراط، هرّبت إليها تاريخنا معًا..

أيُّ لغةٍ ستسعفُ هذا الوجعَ على مغادرة جوفي إلى قلبِها؟ أيُّ كلام سيُطاوعُ هذا الدمار الذي أضمرُهُ لها؟ كيف أقول لها إنَّ جواهر، تلك البهيّةُ التي أفنيتُ فيها مراثيّ، سيّدةُ القلبِ والخطايا، هي أمّها، وإنّني أنا الذي

حين عضَّ الفصامُ عقلي، حاولت اغتصابها لولا أنَّ عِيًا فجائيًا أصاب الجسد أنَّني شريك سيمون في أبوّتها، شريكٌ بنسبة خمسين بالمائة! أيُّ حروفٍ ستقول كلَّ هذا الشطط؟

شركاء كنّا في ميلادها، سيمون الأمير وأنا الساحر والبجعةُ جواهر.

تواطأت معنا الأقدارُ، فجاءت ليلى للحياة، من مخاض أغرب تناقضات هذه المدينة الآسنة جاءت للحياة، من قصّتي حبٌ تقفُ فيهما جواهرُ حائرةً بين نداءات الملاك وغواياتِ الشيطان.

ليلى لوثةٌ تسلَّلت بحذق إلى رحم جواهر، في غنًى عنها كنّا، لولا أنَّ القدر كان يحفُّنا بلعناته ويَعِدُنا بجزاء مستحقّ، انبثاقُ تلك البذرةِ في رحمِها كان تتويجًا لفسوقٍ اخترناهُ أنا وجواهر، أمَّا سيمون فقد كان ضرورةً لنستكملَ اللّعنة، ليلى إدانةٌ وجنايةٌ في آن...

أيُّ لسانٍ سيرشقُ جرحكِ بسكاكينه يا صغيرتي؟ وأيُّ اعتذارٍ بعد ذلك سيرمّمُ ما افترعتُهُ في قلبك من جراح؟ الحياةُ ضيقة، الحياةُ بنتُ كلبٍ أجرب، أكثر ما تجيدهُ هو جزُنا صوب تناقُضاتها؛ وليلى، لقد تهوّعتُ في حضرتها الحكاية كاملةً، ويجدر أن أهبها كلمة السرّ فقط، ثمَّ أمضي بعدها إلى منتهايَ، منتكسَ الهامةِ مفجوعَ القلبِ... سأمضي، لو فقط أنتزع منها كلمة غفران يتيمة، كلمة واحدة ستقطّبُ بها جراحاتي المفتوحة كاملةً وتهبُني نهايةً سعيدةً..

هي درست النّفس البشريّة، وتدري أنّني سرتُ على الهوامش الشائكة للحياة ولم أعشها، كنتُ أكذوبةً، أكذوبةً من لحم ودم وعظام، أكذوبة تشبه الإنسان إلى حدٍّ بعيد، هي إن كانت قد صدّقت نزفي وتلك الذاكرة التي أنعشتها أدرى بمحنتي وأقدرُ على الغفران، تعلمُ أنّني أحمل ذاكرةً منكوبة، وأنّني لست أكثر من صناعة غربيّة، تعرفُ أنَّ هارفي وكتيبة الأطباء الذين كانوا معه قد عبثوا بالذاكرة، وأصابوا القلبَ والرُّوح بالتلفّ. أكثر من غيرها، تدري ليلى أنّني كائنٌ مشوّه، مسخٌ سُلّط على المدينة، وأنّه لا سلطان لي على نفسي، وجدتُ تناقضاتي تزجُّ بي في مهاوي الجرائم، فاستسلمتُ لها، حتى حبّي لجواهر، ذلك الحبّ الجارف، لم يكن أكثر من انعكاسٍ لإخفاقِ عشقيّ اعتورَ مراهقتي. عشقتُها، لأنّها حين لوّحت لحبيبها بمنديلها وخزت ذكرى نفسيّة تقعُ خارج نطاقات الذاكرة، هناك في اللّاوعي، تقفّي أثرها، ثمَّ ذلك الهبلُ الذي حلَّ بعد ذلك لم يكن أكثر من انتقامٍ نفسيٍّ **لعجزي** عن تقفّي أثرِ جوزفين..

حياتي كذبةٌ، عمرها ينوف عن الخمسين ببضع سنين، ويجب أن تصدّقَ أنّني لم أكن أنا، وأنّني بريء من مأساتها ومن محاولة اغتصابها، بريء من كلُّ الخطايا التي أدنتُ بها، حقيقتي الوحيدةُ معلّقةٌ في أذنيها، تلك الأقراط سيّدةُ الأدلة جميعًا... كان ذلك اليوم الذي اقتُطِفت فيه الأقراط من أذني أمّي تاريخ وفاتي، لكنَّ مشيئة الجلّاد آثرت أن تستبقيني كفأر للتجارب، بعد الوعلِ الصغير الذي كنتُه صرتُ التجربة (١٤) أو إيفان الرابع.

لم تكن مصادفةً أن أكون العميل إيفان الرهيب، كان يعرف أيّ علقمٍ سيغرسُه في حقول الذاكرة بعد قلبِها, يعرف أيّ وحش يعدُّ للجنوب، والتسمية لم تكن اعتباطًا. اختار من التاريخ طاغيةً لأكونهُ, قيصرًا مجنونًا لا يرحمُ، ألم يقتل ابنه وقبلهُ قتلَ كلّ معارضيه؟! تولّى الحكم صغيرًا مثلما سُميّتُ على المدينة جنرالًا على حداثة سنّي، ألم أكن مثلهُ رهيبًا أقمعُ بقسوةٍ كلّ ثائر على سلطاني، ومثله كنتُ مجنونًا وارتيابيًا وساديًا جنسيًا؟

لست أكثر من جسد تمَّ العبثُ بآدميّتهِ على نحو ممنهج، كلُّ ما اقترفتُهُ لم أكن مسؤولًا عنه، لم أكن أكثر من فرانكشتاين هارفي كلارك، مجرّدُ مسخٍ أفرغ من أشياء صميمة. يدَ الغربِ في المدينة كنتُ، وكنتُ تجربة عقيمة.

ليلى...

أدينُ لكِ بأكثر من اعتذار، فأنا من وزّطكِ في البدايات الآسنة، وأنا من حطّ جسدكِ على مهدٍ من رماد، أضمنُ لك أنّكِ ابنةُ جواهر، وأنّ أبوّتكِ عالقةٌ بيني وبين غريمي سيمون.. تراهُ قبل أن يمضي صوب منتهاه أودعَ في رحم الجميلة بذرة الحياة، مثلما أودعَ في رئتها قنبلة الموت؟! أم أنّكِ تنتمين إليّ؟ أخافُ من هذه الحقيقة، تصحو في أعماقي كنصلٍ يمزّقُ كلّ شيء يقفُ في طريقه، لا أستحقُّ أن أكون أبًا مثلما لا تستحقّين أن تكوني امتدادًا لأكذوبة، ثمَّ إنّه لا يليقُ برجلٍ حقيقيّ مثل سيمون أن تنطمسَ سيرتهُ، أشتهي أن يظلَّ منه القليل في دمك.

ليلى الوديعة دائمًا.. كلانا جاء إلى الحياة يحملُ ذاكرةً مهشّمةَ البدايات، كلانا يتحرّى ما لا يعرفهُ من ماضيه، كلانا سار في الحقل الملغوم: أنا حمَل أشلائيَ اللُّغمُ أمتارًا في السماء، وأنتِ، آه.. أيّتها الوديعة، سأنصبُ في طريقك الكمين مضطرًا، وسأستدرجُ له خطواتكِ... لو فقط يأذنُ الجلّاد، أن أذبحَ على حافّة موتي قلبكِ بنصلِ الحقيقة المرّة، جلطةً حاسمةً أهون من أن تنفقي العمر في جرّ علامة استفهامٍ تكبرُ كلّ يومٍ أكثر!

ليلى

١٩ ٠٣ ١٩٩٦

كورنيش المدينة

اللّيل يزحفُ ككلبٍ هرست حادثةُ سيرٍ قوائمهُ الخلفيّة، بطيئًا حتى ليظنُّ المرء في كثير من الأحيان أنّه سيتوقّف، اللّيل وغصّةٌ بحجم يد مضمومة تقفُ في الحلقوم.. حدث كلُّ شيء سريعًا. في يوم واحد، انفجر كلُّ شيء. أذنوا له أخيرًا بلقائي، ثمّ أعدموهُ. قيل إنّني كنتُ زفرة أمانيه الأخيرة، وحين التقيتُه فهمت الشبب، دش في القلب رصاصة سامّة ومقدار كمشة من كلام ذابلٍ، وسار باكيًا إلى موته. ألقى في روعي بذرةَ الشكّ وتركني أسقيها بالتفكير المتواصل، صحيحٌ أنّني وبحكم دراستي لنفسه أجد صعوبةً في تصديق ذلك الفيض من الكلام الذي كان ينزفُه في حضرتي، لكنّ الشكّ لوثةٌ في الرّوح، وللأمر هشاشةٌ مفرطةٌ في القلب.

منذ اعتقاله، ثمّ إدانتهِ بالإعدامِ بعد اندلاع فضائح الشرائط الجنسيّة، وأنا أناضلُ من أجل أن أعتقَه من رصاصة الموت، ليس لأنّني أناهض عقوبة الإعدام وحسب، بل أيضًا لأنّني أجد أنّه لا يستحقُّ الموت. صحيحٌ، أنّ ما اقترفهُ شنيعٌ بحقّ، أعرف مرارته، لأنّي كدتُ أكون ضحيّتهُ، لكنّ الحقيقة أنّ الرجل مريضٌ، وروحهُ منكوبةٌ. وفي الوقت الذي كان يقترفُ ذلك الدفق من الجرائم، لم يكن في كامل قواه العقليّة، كانت تتلبّسُ به «أنا» ثانية دخيلة، هي التي تستلمُ مقود جسده، وهي التي توزطهُ في كلّ ذلك الخبل. أملك أكثر من دليلٍ، لكنّ كلّ الآذان صمّاءُ عن كلامي، كلٌّ يشتهي أن يتخلّص من هذا الرجل مرّةً واحدةً وإلى الأبد، يعرفون أنّه صندوقُ المدينة الأسود.

ما كان يجدر أن يُقتلَ، أعرف أنّه ليس بريئًا، ليس بريئًا بما يكفي، لكنّهُ لا يستحقُّ القتل. أعماقهُ يتنازعها البياض والسواد، أعماقه كانت صراعًا متواصلًا بينه وبين لوثةٍ تنازعهُ زمام حياتهِ، كلّ البشاعات التي اقترف لم يكن هو أكثر من شاهد عليها، شاهد يراقبُ ببلاهة جسدهُ وهو يخرج عن طوره ويقترفُ كلّ الخطايا، حتى إذا عاد إلى طورهِ، وجد نفسهُ في مستنقعٍ ضحلٍ، ويداهُ معفّرتان بدمٍ لا يدري كيف تلبّس به.

حين التقيتُه، كدت أنكره، جفّف عودةُ النحول، قابلني بشعر أبيض منكوش ولحية كثّةٍ مشعّثة، كانت تلك الملابس التي تفيض عنه دليلًا على أنّ السّجن سرق منه الكثير، يداهُ كانت ترتجفان، جسدهُ كلّ الجسد، كانت

له تاراتُ يهتزُّ فيها، كان حاله يشي بتدهور نفسيَّته، قال إنَّهم جوّعوهُ إلى الموت، قال إنَّه ما عاد ينشدُ غير اليوم الذي تُخرِسُ فيه الرصاصة أيّامه. جال بيننا صمتٌ قصيرٌ قبل أن تلتمع عيناهُ بدمعةٍ، ويقول إنَّه قرَّرَ أن يسلّمني قبل اندحاره مفاتيح خيبتي الكبرى، ودون مقدّماتٍ نفثَ في القلب تلك الجملة التي كان لها دويٌّ مجلجلٌ، ما كنتُ أحسب أنَّ جملةً ستفعلُ بي مثلما فعلت بي تلك الجملة، قال:

«أنتِ تلبسينَ أقراط أمّي!»

وجرى بيننا صمتٌ موحشٌ يلسعُ الأعماق، تطلّعتُ إليه وفي الوجه أكثر من سؤالٍ؛ كان حاسمًا حين أردف:

«تلك الأقراط قدّمتُها هديّةً لجواهر»

شهقتُ بسؤالٍ جافٍّ، كزند تيبَّسَ في صحراء قاحلةٍ. أستوضحهُ، فردَّ دون أن ترتجف أصابعهُ أو جسدهُ، هوت الدمعةُ من عينه، واشتبكت بالغابة التي يلبسُها وجهه، حين قال:

ابنةُ جواهر أنتِ، أمّا أبوَتُكِ.. فمعلّقةٌ بيني وبين سيمون. كنتِ تطلبين الحقيقة، وكنتُ أحاول أن أطمِسها، ما أردت أن أفطرَ قلبكِ، ما كنت أشتهي أن أورثكِ حزنًا فوق ما يطيقُ الكائن البشريُّ، لكنْ حين ضجّت بي نداءات الموت، خفتُ أن أتركَكِ نهبًا للأسئلة القاسية، حرائقُ الحقيقة تنطفئ، لكنَّ صقيع الأسئلة لا يذوب، ستحمليْنَهُ في القلب ما حييتِ..

كان كلامه بكاءً. أمّا أنا، فقد كنتُ أرزحُ تحت صليبٍ أسقطهُ فوقي هذا الرجل الغامض، كلّما حاولت أن أدفعَهُ بالمنطق، وبما أعرفُه عن سيرة هذا الرجل من جنون، زاد ثقلهُ، كان يعرف الوترَ الجريحَ، وبدل أن يرمّمَ تداعيهُ بادر إلى تمزيقه. يعرف هشاشتي، يعرف نكبة العمر الأولى، لذلك سار بإزميله صوب الجهة الهشّة من حياتي، قبل رحيله ترك لي وسواسًا عضالًا، كلّما حاولت أن أبتنيَ بالأدلة الواقعيّة والعلميّة حقيقةً أستكينُ إليها، بادر إلى هدمها.

قال كلامًا كثيرًا، وبكى أسفَهُ مرارًا، وبكيتُ، لا لأنّني صدّقتهُ ولا لأنّني اشتهيتُ أن أصدّقهُ، بل لأنّني كنتُ أعرف أنّني مقبلةٌ على نكبة العمر، وأنّني بما رشقَ القلبَ من سكاكين منذورة لعمرٍ من النزف والأسئلة الواخزة.. تحدّث بعدها عن المؤامرة الحضاريّة التي يزعمُ أنّها تحاكُ ضدَّ الوطن، تحدّث عن ماضيه قليلًا، عن العرّاف الذي خبّرهُ بأنّه سيموتُ بعد الخمسين ببضع سنوات (زعم أنّه قال لي في حديث البدايات إنّه تنبّأ له

بأن يموت في التاسع عشر من آذار، لكنّني لم أجد في التسجيلات الصوتيّة ما يسندُ رأيهُ!) تحدّث طويلًا ولم يترك لي مساحةً لأعالجَ كلامه بالحقائق التي انتهيتُ إليها. حين أذن لي بالكلام، خبطَ السجّانُ بعصاهُ على السيّاج المنتصب بيننا، سحبتهُ الأيادي مضرّجًا بدموعه، ومضيتُ ألملمُ شتاتي وأكفكفُ ما طفحَت به عيناي، ما كنتُ أحسب أنّنا سنفترقُ على هذا البتر الفجائيّ، وأنّ تلك اللّحظات الأخيرة، تلك اللّحظات القليلة، ستكون زحامًا من الأحداث والكلام والحقائق التي لا يقينَ فيها ولا مطلق!

أسلمتني البوّابةُ الكبيرة للسجن المحلّي إلى التيه، بمشرط كلامهِ أمعنَ في خراب جرحي المفتوح، هرّبَ إلى وجعي صديدًا لا أدري إن كان الحقيقة، وتركني نهبًا لوسواسٍ يصهرُ الأعماق.. تراهُ كان صادقًا؟ سؤالٌ يتسلّقُ تجاويفَ العقلِ ويعبثُ بأليافه. كنتُ أحسب أنّه طلبَني ناشدًا بوحًا أخيرًا، لكنّه كان يوفّرُ لي رصاصةً دامية.

الأقراط... تلك الأقراط، أنا من خبرتهُ بأنّها كلُّ إرثي من أمّي البيولوجيّة، فلماذا لا يكون خيالُهُ المريض قد صمّمَ حكاية أمّه لتليقَ بحكاية أمّي؟! درستُ حياتهُ، درستُ حياتهُ جيّدًا، وأعرف أيّ أكذوبة هو، أعرف أنّ لا شيء ممّا قالهُ عن نفسه حقيقيّ، أو على الأقلّ أغلبُ ما قال غيرُ حقيقيّ، غير حقيقيّ بما يكفي لأصدّقه، لست غبيّةً لأصدّق ببلاهةٍ كلّ كلامٍ يرميني به... لكنّني لا أجد طريقة ألتقطُ به شظايا كلامه الزجاجيّة من القلبِ، أصابني بنزفٍ حادّ، كلّما حاولت أن أستوقفهُ زاد دفقهُ.

في سبيل عتق رقبته، قمتُ بتحرّيات تخصُّ حياتَه، باحثةً كنت عن كلّ ما من شأنه أن يُلينَ قلوبَ القضاة، ليأذنوا له بمزيد من العمر في مستشفى الأمراض العقليّة والنفسيّة، وانتهيتُ إلى حقائق غريبة كلّ الغرابة، حين طفحت ذاكرتهُ التي زعمَ أنّه استعادها بتلك القصّة الأليمة، ثمّ بتلك المؤامرة التي زعم أنّه ضحيّتُها، صدّقتهُ، رغم أنّ ما يحكيهِ كان خطيرًا بحقّ، لكن لم أكن أملكُ وهو فرعونُ المدينة أن أسعى وراء كلام غيرِ الذي قالهُ. التشكيكُ في أقواله جريمةٌ، كنتُ أخاف أن تُسقطَ صداقتنا، لكنّ حين وقع الانقلاب، ثمّ حين تسلّمَ زمام المدينة غيرهُ، وأرغت الأفواه بسيرتهِ وأزبدت، وجدتُني أنقّبُ عن أثرِ ذلك الرجل المخبول الذي أفسد حياة قاسم، عن هارفي كلارك..

العجيب أنّني لم أجد لهُ أثرًا في المدينة أو في أفواه ساكنيها، كلُّ من قلتُ له أنّ الميرَ السّابق كان له صديقٌ، صديقٌ إيرلنديّ تنفلقُ شفتاهُ عن ابتسامة ساخرة، ثمّ يبادر بالنّفي، كما لو اتّفقوا على إجابة واحدة.

كانوا يردُّون أسئلتي الملحّة بجوابٍ واحد؛ «المير لا أصدقاء له». كانت تلك الجملة كصخرةٍ ثقيلةٍ تهوي في أعماقي وتتشظّى أسئلةً واخزة... سألتُ حرّاسهُ الشخصيّين، فردُّوا على أسئلتي بسخريّةٍ، بعضهم قال إنّه يحدثُ حين يسكر أن ينفق ليلًا كاملًا في حديث متواصل مع نفسهِ!

عدتُ إلى الأرشيفات المغبرة للبحريّة الفرنسيّة، عدتُ للرّحلات المؤرشفة على شبكة الإنترنيت، دون أن أجد لهذا المستر هارفي أثرًا، بحثتُ في قوائم أطبّاء النّفس الأوروبيّين دون جدوى، وأخيرًا، بحثتُ في تاريخ تلك الجزيرة المتاخمة لمارسيليا، لكنني أبدًا لم أجد ولو أمرًا بسيطًا يحملني على الظنّ بأنّ قاسم جلال قد مرّ من هناك. كانت كلّ تحرّياتي تنتهي بي إلى يقين واحد، أنّ هارفي كلارك ليس موجودًا، وأغلب الظنّ أنّه محضُ هلوسةٍ!

ما حدث ذلك اليوم الذي كنتُ أستعيد فيه كلام قاسم الذي اعتقلتهُ آلةُ التسجيل، حسمَ الشكّ باليقين، وأكّد بما لا يدعُ مجالًا للشكّ أنّ حقيقة قاسم، حقيقتهُ الحقّة ضاعت منه، وأنّه بعد ذلك، ضرب على نفسه بغلائل من وهم، سرقَ الفصامُ حياتهُ، طمس فيه كلّ ما يتّصلُ بحقيقته، وزجّ به في حياة لا دور له فيها سوى أنّه مُدان باستمرار. قال لي في إحدى الصوتيّات إنّه كان يُهملُ في جبٍّ موجود بالأكروبول التاريخيّ للمدينة رسائلهُ للمخابرات الفرنسيّة. قمتُ بناءً على هذا المعطى بالبحث عن هذا الجبّ، وقفتُ أمامه كثيرًا، يأكلني التردُّدُ قبل أن أقرّر انتعالَ الجنون والنزول إليه. كان ذلك عصر أحدٍ باردٍ.. دنوتُ من الجبّ بسيّارتي، ثمّ أزحتُ عن الجبّ ألواحًا خشبيّةً كان يُستترُ بها، لم يكن الجبُّ غائرًا في الأرض، بضعة أمتارٍ لا غير، وقد كان يلوحُ في قعره مرادي، ربطتُ الحبال إلى السيّارة ونزلتُ بتؤدةٍ إلى الجبّ، كان قعره يفترش المئات من الرّسائل الصفراء، المتراكم بعضها فوق بعض، لم تكن تحملُ أيّ عنوانٍ، كانت مطبقةً على أسرارها. فكّرتُ وأنا أهمُّ بافتضاض واحدةٍ، أنّه لا يجدر بي أن أفعل ذلك، الصواب أن أبلّغَ الشرطة أوّلًا، فكّرتُ في أنّ الأمر سيكون دليلًا قويًّا على اعتلال قاسم النّفسيّ. كضمتُ فضولي، وتسلّقتُ بمشقّة كبيرة الجبّ، أعدتُ الأمور إلى وضعها السّابق، نفضتُ عنّي الغبار، وانتظرتُ حلول الاثنين للقاء القاضي (هذا الأخير الذي أمر فيما بعد بإعدام قاسم رغم ما وضعتُ في يدهِ من أدلّةٍ تؤكّدُ فصامه). التقط من فمي الكلمات بحرصٍ بالغ، وردّ كلامي بوعودٍ كاذبة. ولم أكد أغادرُ مكتبه الوثير حتى أرسل رجال البوليس لتنشيف الجبّ من مدادٍ أكثر من ربع قرن من الرّسائل.

عدتُ بعد ذلك بأيّام، نزلتُ الجبَ مزة أخرى، لكنَّ قدميّ استقرّتا على أرضٍ ناشفة!

كان قتلهُ ضروريًا لتستقيم الحياة في هذه المدينة، وتعود العامّة إلى مشاغلها اليوميّة، ذلك الترقُّبُ اليوميّ المريض، ثمَّ تلك الوشوشاتُ التي تتفشّى بين النّاس حاملةً ما لذَّ وطاب من النمائم، كلُّها كانت تدنو به إلى حبل المشنقة. النّاس لن يفهموا أنّه لا يستحقُّ الإعدام، لن يستوعب أحدٌ الشطَطَ الذي كان يعيشهُ ولا الفصام الذي كان يسرقُ منه حياتَهُ، يعرفون أنَّ جسدهُ فعل ما فعل، يعرفون أنَّ تلك الشرائطَ تقوم برهانًا على ذلك، وهذا يكفي.. أمّا هل كان هو في جسدِهِ؟ هل جرائمهُ كانت عن سبق إصرار؟ هل كان في كامل قواه العقليّة؟ فإنَّ مثل هذه الأسئلة لا يمكن أن تجد لها مستقرًا في أذهانهم، يدفعونها عنهم بما انتهى إلى أسماعهم من أمر تلك الشرائط الفاضحة.

رجلٌ عاش أكثر من ربع قرن مع وهمٍ اسمهُ «مستر هارفي»، وفرَخ في أعماقه وهمٌ أكبر، وهو أنّه مجنّدٌ خفيّ، مهمّتهُ التآمرُ على بلاده ضاع في مضايقِ ذاته، ضاع من نفسه، وما عاد يملكُ زمامها.. فكيف يدانُ وهو لم يكن أصلًا أكثر من أكذوبة؟! حتّى تلك الحياة، تلك التي انفجرت بعد جلسات الكهرباء، قد يكون الجزء الأكبر منها محضَ وهمٍ ابتناهُ خيالهُ المريض.. أمّا ماضيه، طفولتهُ الحقيقيّة، لربّما تبدّدت واضمحلّت في الضباب الطاغي الذي زحف منذ زمن غابر على حياته، فكيف أصدّقهُ؟ كيف أهملُ كلَّ ما قرأتُ في روحهِ من خبلٍ، وأصدّقُ روايته عن هويّتي؟

قلبي مريضٌ بمحنتي التي أهدت مفاتيحها للبحر، في القلب ندبةٌ توجعُ، في القلب نزفٌ عصيٌّ لا سبيل إلى تضميده، في الرُّوح أملٌ ربّيتُه منذ زمن بعيد.. كنتُ ساذجة بحقّ، حين خلتُ أنَّ سفني ما إن تولّي وجهها شطرَ الجنوب حتى يفترش الربُّ لها الحقائق على حوافِّ اليابسة. حمقاءُ حين صدّقتُ القلبَ، جرّني صوب هذه الأرض اليباب. وقاسم جلال، ذلك الرجل الذي ضاع من نفسه، كيف استطاع أن يرقدَ في القلبِ رصاصة الوسواس ويمضي إلى حتفه باكيًا، بقدر ما أعرف عاهاتِه النّفسيّة بقدر ما لا أستطيعُ التملّصَ من تلك اللوثةِ في قلبي.. منذ طرحني ذلك السجن متداعيةَ القلبِ، وأنا أحاول أن أرفو قلبي الذي افترعَ فيه قاسم بكلامه أكثر من جرح، مذ انسحبتُ من حضرته وأنا أكفكفُ دمعًا لا يزيد إلّا إلحاحًا. في نفسي، في قرارة نفسي، كنتُ أعيش صراعًا ضاريًا بين قلبٍ يتمسّك باللّوثةِ التي ضخّها في القلبِ قاسم، وعقلٍ يشيدُ صرحًا من الأدلّة

التي تفنّدُ ما قال، وبين صرحٍ من براهين يشيّد وآخر يتهدّمُ... تخزُ روحي الأسئلة المعذّبة.

حين غيّبهُ السجن، سألتُ النّاس عن قصّة الحبّ التي جمعت بين جواهر وسيمون، فاندلقت أفواهُ النّاس بالحكاية كاملةً غير منقوصة، يعرفون سيمون مثلما يعرفون جواهر، وإذا كانوا بالأمس قد حاكموا حبّهما وأدانوه، وكلٌّ ساهم بنصيبٍ من أجل دفعه إلى الخسارة، فإنّهم يبدون اليوم أكثر تسامحًا، بل ومنهم من ينظرُ إلى القصّة بإعجاب كبير، ويتحدّثُ عنها، كأنّها شيء مهمٌّ في تاريخ المدينة، بل وكأنّها تاريخُ المدينة المُشرق، أو تاريخها الذي كان يفترَضُ أن ينظر إليه على أنّه مُشرق، الحاضر يحاكمُ عشّاقه، لكنّ التاريخ يهديهم بطولتهم المستحقّة. مدنُ العرب تسفحُ على صخرة الواقع دمَ عشّاقها لتنفقَ السنوات في رثائهم، دمُ العشّاق مرثيّةٌ ترفعها المدينة للتاريخ.

العجائزُ في هذه المدينة الغريبة بعد اندحار الجنرال ما إن تنفض على مرأى منهم أرشيفات الزمن الغابر حتى تجدهم يسكبون كلَّ تاريخها دفعةً واحدة. أمّا إذا تعلّقَ الأمر بسيرة عشق قديمة، فإنّهم يطرقون لحظاتٍ، تغورُ أعينهم في وجوههم وهم يمعنون في استجلاب الذكريات، ثمّ تلتمعُ بوميضٍ مبهم، لا هو يفصحُ عن عبرة ولا هو يتوّجُ ببوح مهمّ! لربّما هو بريق من يحسُّ أنّ الحياة مرّت سريعًا، وأنّ الموت قاب قوسين أو أدنى، وجدتُ في جوارير ذاكرتهم المتّقدة كلامًا كثيرًا، يلوكُ القصّة نفسها التي حدّثني عنها قاسم، لكنْ لم يأت أحدٌ على ذكر العلاقة الملتبسة بين جواهر وقاسم، قيل كان يلهثُ خلفها ذليلًا ككلبٍ، وقيل إنّه هو من زجّ بحبيبها بين أشداق الموج الهائج، قيل إنّه قابل رفضها بمزيدٍ من الإيلام، وإنّها انتهت بعد أن حمّلها حبيبُها درنَ صدرهِ، ولم يُشر أحدهم إلى حملها، لم يشر أحدٌ إلى الطفلة التي كنتُها.

نكأ بمديةِ هذيانهِ جرحيَ السريَّ، بعد أن أنستُ إلى صداقته وأمّنتهُ على وجعي، ومنيتُ بمساعدته نفسي. في مواجهته مع الموت، آثرَ أن يشعل في دواخلي فتيلَ حرب أهليّة، يعرف هشاشتي أمام تلك الأسئلة التي كانت ولا تزال أكبرَ ممّا أطيق. لكن ماذا لو كان صادقًا؟ ماذا لو أنّني فعلًا بنتُ جواهر، وأنّ دمي يقفُ حائرًا بينه وبين سيمون؟! لا أجد ضيرًا في الأمر، سيكون فيه على بؤسِه هناءٌ من نوع ما، لكن كيف السّبيل إلى التأكّد ممّا يقول؟ أيُّ برهانٍ سيؤكّدُ أو ينفي زعمه القاسي... ورّطني من حيث لا يدري في صراع أكبر منّي.

كان جهلي بوالديّ أخفَّ من ثقل ما قال، يصدّقهُ القلبُ أو يكاد، وتكذّبهُ الأدلّة النّفسيّة، تقول بوضوح إنَّ في الرجل خبلًا متأصّلًا، وإنَّ الفصام وأمراض نفسيّة شتى سرقت منه بوصلة الحياة.. وأنا بين مرافعاتِ العقل وتعنّت القلب، أقفُ في حقل ملغوم، أعلمُ أنَّ خطايَ لا تستوديني صوب ما أريدُ، وأنَّ أيّة خطوة تضمرُ لي موتًا أو ذبحة نفسيّة محتملة... ياه، لا أتعس من الواقفين على رصيف القلق بقلوب أطفال وعقول عجائز!

هذه المدينة تحترف الغموض والقتل المجّاني، وأنا أملك تاريخها وتاريخ مستبدٌ حكمها تعسُفًا أكثر من ربع قرن، وإن حدث وتماديتُ في نبش سيرته، فلا بدَّ أنَّ أجد أكثر من رصاصة بالمرصاد، يكفي أنّني أحملُ في رأسي صندوقه الأسود، وإن كان أكثر ما ينام فيه من حقائق مشكوكًا فيها!

يا أشجار النخيل.. يا من تشرئبُّ إلى البحر كأنّها تتشوّف رؤية حبيب طال غيابه، أيُّ يدٍ ظالمةٍ ضربت فسولكِ في رحم هذه الأرض الغريبة التي لا يشدّكِ إليها انتماءٌ حقيقيّ، أيُّ قدرٍ قذف بكِ إلى كورنيش هذا البحر الذي كلّما طاش موجهُ تحرّشَ بكِ وحاول أن يستدرج جذوركِ إليه، بناتُ الصحارى أنتِ، فكيف تنسين قيظها، وكيف يشغلكِ ما يسكبه عمّالُ النظافة حولكِ من مياه عن ضرب الجذور عميقًا في الأرض واستجلاب مائها؟ أيُّ قدرٍ شحيحٍ روّضكِ... مثلكِ كبرتُ في فرنسا، جذعٌ جذّرتهُ من شجرة مجهولة يدٌ، وغرستهُ في تلك المدينة الباردة، مثلكِ تحفُّني مآزق الهويّة، تراكِ تنتمين إلى الصحراء حيث أهلوكِ الحقيقيّون، حيث القحطُ والجفاف، أم تنتمين إلى هذا الكورنيش الذي لا يكفُّ أهلوه عن مدّ جذوركِ بما يكفي من الحياة؟!

الشمس في الأفق البعيد قطرةُ دم تشتعلُ بضوء شاحب، ترسلهُ صوب عريش النخيل النديّ وهي تنزلقُ رويدًا رويدًا، تغازلهُ وتتمايلُ به رياح خفيفة، فيرسمُ عناق الندى بخيوط النُّور الشاحبة أجمل لوحة، فرحٌ يعدُ بأعراس شتّى، فرحٌ عصيٌّ على القلبِ، لا أدري لماذا؟ فهمتُ من فرح أشجار النخيل أنّها تنتمي إلى حيث وجدت نفسها، وأنَّ صخبَ الهويّة بائس بحقّ، أمّا أنا، فما عادت تعنيني المدينة وخبلها الذي لا نهاية له، لكنَّ قلبي منكسرٌ بحقّ، جئت، ينوءُ الظهر بحزمة الأسئلة المتيبّسة، ما كنتُ أنشد غير التخفّف من بعضها... في القلب كان ينام أملٌ ضامرٌ، أن ألقى تلك التي أهملت فلذة كبِدها، أو ذلك الرجل الذي أهملَ فيها نطفتهُ، أو على

الأقلّ أن أجد مفاتيح تفكّ مغاليق ما لست أعرف من حياتي، لكنّ حين انتهيت إلى هذه المدينة الشؤم، ما اكتفت بالتستُّر على مكان جذوري التي طمرها النسيان في حارة من حارات هذه المدينة، بل أكثر من ذلك، حمّلتني أضغاث وسواسٍ، وألفَ سؤال وسؤال.

أعرف هشاشة ذلك الرجل وآفاتِهِ النّفسيّة البالغة التعقيد، لكنّ لماذا تصرُّ عليّ تلك الحكاية التي انتقل بي فيها من مستمعة لها إلى شريكةٍ فيها، لماذا يغلقُ القلبُ نوافذهُ على الأدلّة التي أسوقُها له... ويلحُّ على الزجّ بي في خندق القلق، تلسعني ألسنةُ أسئلةٍ لا سبيل إلى إخمادها؟

رحل النهار، الشمس انزلق نصفُها هناك خلف البحر، شوّه كرويّتها البعدُ والعجز. رحل نهار كأنّه من الجحيم استُلّ، أعدمَ فيه حاكمُ المدينة بعد أن أغمد في الصدر، جهة اليسار، مدية، وخلّفني بعد ذلك نهبًا للقلق والأسئلة العاصفة.. رحل نهار آخر، مثلما قبلهُ رحلت نهارات عدّة بدّدتُها في تطبيب نفوس هذه المدينة الكليمة، ساعاتٌ طوالٌ كابدتُها في محاولة يائسة لترميم ما تهالك من روح قاسم. وفي الأخير، أكتشفُ أنّني لم أكن أرمّمُ سوى أوهامهِ وأنّه ضاع، وضاعت حقيقتهُ للأبد، ضاعت في زحمة الوهم الذي ابتناهُ وسيّجَ به نفسه. يحدثُ أن يأكل الوهم صاحبَهُ، أن يبتلعَهُ ويسقطَهُ عن عرش نفسه.. وقاسم هذا الرجل الذي عرك المدينة كسيجارة هو ملكٌ مخلوع، عزلهُ الوهمُ منذ زمن طاعن في القدمِ، وتسلّقَ ككتلة من ضباب روحهُ واستوطنها، حين نشرَ على الأريكة حياتهُ المنكوبة توقّعتُ السيّئ، ومضيتُ أرمّمُ ما تهالك منه، غير آبهةٍ بالحقيقة المرّة: أنّ هناك ما هو أسوأ دائمًا، لم أنتبه وأنا أصيخُ السمعَ إلى تمزُّقاته النّفسيّة أنّ تلك الحكاية التي شيّدها حرفًا حرفًا، وزعم أنّه عاش كدماتها الكدمة تلو الأخرى لم تكن أكثرَ من زيفٍ رافقَ حياته.. وتجرّعَ مجّانًا ويلاته.

ما يزعجُ حقًّا أنّه لا شيء مضمون في حياته، صحيح أنّني انتهيتُ إلى أنّ هارفي كلارك، وكلّ ما يتعلّقُ به من دسائس ومؤامرات محضُ وهمٍ، لكن تراها حياتهُ كاملة محضُ وهمٍ، جواهر، إزميرالدا، جوزفين، سيمون.. وتلك الحكايات المتشعّبة، تراها كذلك وهم؟ لا يقينَ في حياتهِ ولا مطلق، وهذا ما يزعجُ بحقّ، حين أراجع تاريخ تطبيبه، ثمّ حين أستمعُ إلى التسجيلات أو أستعيدُ دموعهُ وهو يفضي إليّ بالحقيقة، أشعرُ في أعماقي بحنينٍ ما، بشعورٍ مبهمٍ ومزعجٍ في آن.. لا أشتهي تصديقهُ، لكنّني كذلك لا أقدر على دفعهِ بعيدًا عن تفكيري.

رحل النهار.. رفع اللّيلُ وشاحهُ الحالك في وجهه، استجلبَ البردَ

معه والضباب، اشتعلت أعمدة النورِ وافترشَ الكورنيشُ عشاقهُ وغراميًاتهم. كلمًا حلَّ الربيع أو اقترب، وجدتَ العشَّاق يلوذون بالكورنيش من عسَسِ العواطف. وحيدة كنتُ تتحرّشُ بوقفتي عيون الرجال المضرَّجة بالشهوة، نشر الضباب بياضه، ومنح لعشَّاق المدينة خلوةً لاستراقِ قبلات طائشةٍ وعناقات سريعة، سرعان ما تهرسُها خطوات المارّة.

قلبي حزينٌ، كما لم يكن يومًا، كأنَّ الدمَ تخثَرَ فيه، اتَّكأتُ على السور المقابل للبحر غيرَ بعيدٍ عن عاشقين يتطلَّعان إليَّ بأعين فيها كثيرٌ من الاحتجاج، صرفتُ عنهما عينيَّ إلى البحر، السوادُ أمامي وخلفي ضوء الكهرباء شاحبٌ، وكتلٌ من الضباب تسافر على نحو وئيد، اهتزَّ قلبي بعنف كأنَّه يشتهي التملُّص من شراييه ومنّي، حين شدَّت يدٌ بقوّة على ذراعي، التفتُّ لأجد أربعة رجالٍ غلاظٍ يحفّونني بأجسادهم، تقلَّصتُ وانكمشتُ، التصقتُ بالسور:

أأنتِ الدكتورة ليلى حدَّاد؟

زعقَ الصوت حادًا، وأنا كنتُ كما لو أنَّ اليد الذي داهمت خلوتي بالذاكرة وأطيافها المقيتة قد سحبتني رأسًا إلى ثقب الدَّهشة الأسود، استبدّت بي حالةٌ مبهمةٌ من الغرابة، كأنّي امتلأتُ بي أكثرَ ممَّا يجب، أو لكأنّي أفرغتُ منّي على حين غرّة. أجبتُ بصوتٍ مرتجفٍ يكاد يخذلني:

نعم..

ومدَّ أحدهم يدهُ إلى الجيب الداخليّ لمعطفهِ الخشن، واستلَّ ورقة مطوية، فردها أمامي، ثمَّ ناولني إيَّاها قائلًا:

أنتِ رهن الاعتقال..

تطلّعتُ إلى الورقة بعينينِ تقرآن كلمة وتنظان على جملة، فهمتُ أنّني متَّهمةٌ بأشياء خطيرة بحقّ، «التسثُّر على جريمة» و«التآمر على الدولة» وغيرها.. لكنّني قبل أن تقتادني الأيادي صوب عربة الأمن، انتبهتُ أنَّ الورقةَ ليست مختومةً من قبل أيّة جهة رسميّة. حين جأرتُ، كمّمت فمي يدٌ خشنةٌ، وحين دنت بي الأيادي من تلك العربة، لمحتُ عجوزًا أشيب منتكشَ الشعر في ملابس مدنيّة، كانت ملامحه غريبة ونظراته كانت تشي بالخطر، تسلّقَ الخوف وكلامُ قاسم القلبَ، لا أدري لماذا! لكنّني طرحتُ بعيدًا عنّي كلّ ذلك المنطق الذي ابتنيتُهُ وأنستُ له، إذ أحسستُ أنَّ هذا الرجل، هذا الرجل الغريب هو نفسه هارفي كلارك...

قاومتُ كثيرًا، لكنّهم كانوا أقوياء.. ولم أكد أدفَعُ في العربة حتّى

استقبل رأسي كيس خشن، ما عدتُ أرى شيئًا ولا أدري إلى أين تمضي بي تلك العربة! كان الخوف يزغردُ في القلب الواجف، لا أدري لماذا كنتُ أشعرُ أنَّ ذلك العجوز، ذا النظرات الغريبة والوجه المتغضِّن الحليق هو هارفي، فكّرت والخوف يقرضُ حبالَ القلبِ كجرذ في أشجار النخيل التي تجاور البحر، فكّرت في نظرات العاشقين اللذين زاحمتُ خلوتهما بحضوريَ الثقيل، ثمَّ سَرَت في النَّفس فكرةٌ غامضة، أنَّ قاسم جلال لم يمت، وأنَّ هذه العربة تقتادني إليه!

اندلعت في العربة معزوفة **«كارمينا بورانا»** كنارٍ في ثوب عروس، حارقةً تملأ كهوفَ القلبِ حمَمًا، وتحمل المرء من أذنيه، وتطوِّحُ به في مدارات التلاشي، في تلك المساحة الهشَّة التي تتداخل فيها الأشياء وتقفُ الذات وسط خراب آلَ إليه العالم فجأةً، غيرَ مصدِّقةٍ أنَّ العالم، العالم قد ينهار في دواخلنا، وتبدِّدُ أشيَاءه الدَّهشةُ.

لم يكن يجري بينهم أيُّ كلام، وحدها السيَّارةُ كانت تهدرُ كأنَّها تصعدُ في السَّماء، والهلع كان يعلنُ على القلب فضائحهُ، الأمرُ برمَّتهِ أشبه بحلم كئيب متداخل كثير السَّواد لا سبيل إلى التملُّص منه.. وبكيتُ، والعربةُ تمضي بي إلى المجهول. بكيتُ كطفلةٍ صغيرة تفتقُ طفولتها فجيعةٌ مُرّة: أنَّها لا تنتمي إلى من تحسبهم كلَّ عائلتها.. بكيتُ وأنا أستعيدُ شجوَ قاسم وبكاءَ كلامه وهو يوزطني في حكايته. يوزطني نسبيًا في بنوّته.

الرسالة (١٢)

من قاسم إلى جواهر

ربيع ١٩٩٤

«جواهر...كيف السَّبيل إلى رثائكِ رثاءً لائقًا؟ أيُّ لغةٍ بعدكِ قد تقومُ سدًّا يستوقف دفقَ الشجن المتواصل؟ بعدكِ ليس وحده القلبُ من انكسرَ. اللُّغةُ، اللُّغةُ.. يا كلَّ العمرِ، تشظّت كأصيص الخزف على قارعة الأيّام العجافِ. أحبُّكِ، منذُ أسلمتُكِ بيديَّ إلى حفرةٍ في الأرض، وأنا أزداد كلَّ يومٍ يقينًا بأنَّ حبَكِ هو الحقيقةُ الوحيدةُ في حياتي، وأنَّ ما دونَهُ باطل وزائف.

جواهر.. يا رذاذًا من نورٍ لم تكد عيني تقعُ عليهِ حتّى بادرتُ إلى إخماده، تراكِ تتلصّصين عليَّ من ثلمة الغيب؟ تراكِ تتأمَّلينَ جرحيَ النازفَ بعدَكِ؟ بعدكِ، جرّبتُ صنوفَ النساء علّي أعثرُ على شبيهتكِ، بعدَكِ تداويتُ بغيركِ دون جدوى. لا أكادُ أغرسُ بيرقَ الشهوة في جسدٍ حتّى أتأكّد أنّه لا يعنيكِ في شيء، لم أعد أبحثُ بعدَ الهرس النفسيّ الذي أصبتِني به سوى عن امرأةٍ تسدُّ مسدّكِ، أو يكون فيها بعضٌ منكِ، نسبةٌ ولو ضئيلة منكِ. كلُّ حروب الإبادة بعدكِ لم أكن أطلبُ من ورائها سوى أن أرتطمَ بتلك التي يخرُّ لها القلب ساجدًا.

لكنَّ القلبَ ظلَّ ملككِ لا شريكَ لكِ فيه.. كنتِ سيّدتهُ وأنتِ كاملةُ الحضور، وظللتِ سيّدتهُ وأنتِ كاملةُ الغياب، ذلك أنَّ الحب، الحبَّ الكبير لا يشترطُ الحضور الفيزيائيّ، لكنْ تراني نفذتُ إلى أعماق قلبِك مثلما فعلتِ أنتِ؟ لا أظنُّ ذلك، ولا أدينكِ بأيّةِ حال.. قلوبنا ليست بأيدينا، ولا نحن نستطيع أن نؤمّنَ عليها من نشاء، ثمّ إنَّ الحبَ مسألة شخصيّة، والغباء، الغباء الكبير الذي اكتشفتُهُ، يا ربّةَ الوجع أنّني بقدرِ ما أحببتِكِ كنتُ ألزمُكِ بي...

آه.. لا أغبى من عاشقٍ يطالبُ بحبٍّ متبادل!»